

أرنولد توينبى

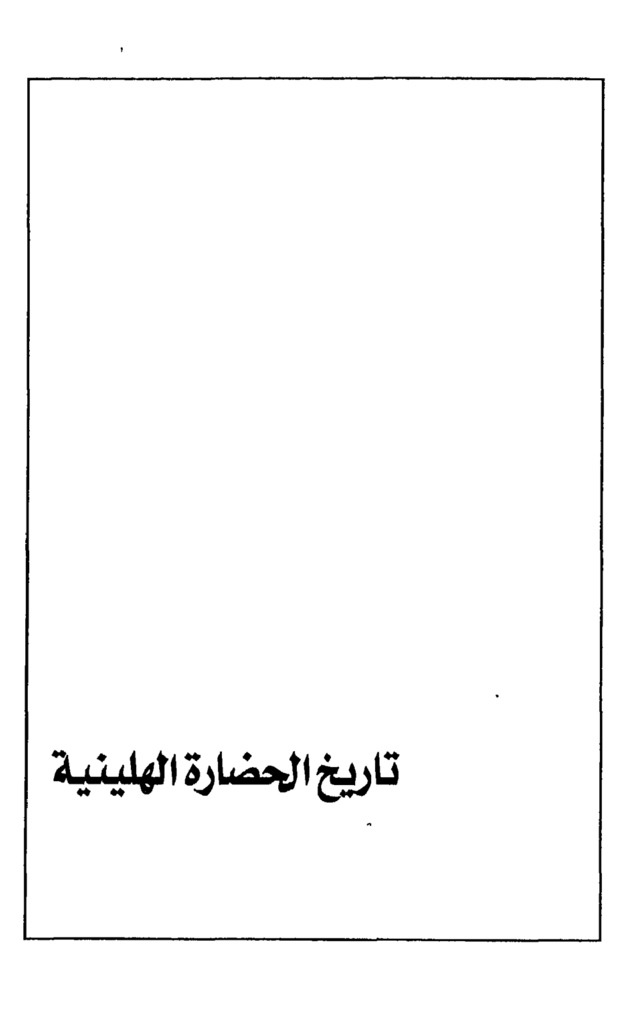
ترجمة : رمزى جرجس

مراجعة : د. صقر خفاجة

تاريخ الحضارة الهلينية

أمهات الكتب





تاريخ الحضارة الهلينية

أرنولد توينبى

تاريخ الحضارة الهلينية

ترجمة: رمزى جرجس

مراجعة الدكتور: صقر خفاجة

إعداد: د. محمد محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة أمهات الكتب)

تاريخ الحضارة الهلينية
أرنولد توينبى
تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : **محمود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزار ة الشــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سمير سرحان

تصدير

يسر مكتبة الأسرة هذا العام أن تقـدم هذا الكتاب الذى يعتبر مرجعًا لا غنى له لكل من يدرس الحضارة (أو الحضارات الإنسانية) وهى المجال الذى لمع فيه اسـم مؤلفه ، ذاع صيتـه منهجه الذى حوّل فلسـفة التاريخ تحويلاً جذريًا ، ألا وهو أرنولد توينبى (Arnold Toynbee) الذى ولد فى لندن عام ١٨٨٩ وتوفى عام ١٩٧٥ .

وقد اقـترن اسم تـوينبى بمذهب نشـأة الحضـارات وتدهورها ، فى دورات متتالـية ، فكان المذهب الذى جعل أبناء القرن العشـرين يعيدون النظر فى كل مـا كان يسـمى تاريخًا ، بل ودفع المـؤرخين إلى تعـديل مـساراتهم فى رصـد 'حركة الإنسانية' ، ولولا سـفـره العظيم «**دراسة التاريخ**» (١٢ مجلدًا) ما خرج علينا اليوم من يقول بصدام الحضارات أو بنهاية التاريخ - أو بنهاية الإنسان (وهو آخر ما أتى به **فوكوياما**) - ونحن حـين نرفض هذه الدعاوي الأخـيرة ، فـإنمـا نؤكد صـدق نظرات ذلك المفكر الذى تخصص أولاً فى دراسة الحضـارة اليونانية ، بعد أن درسها فى أوكسـفورد وقضى فتـرة ما فى أثينا ، ثم انتـقل منها إلى إبداع نظرة

شاملة عما يمثل الموضوع الأساسى للدراسة التاريخية ، وهو الحضارة لا 'الدولة الأمة' .

ويقول توينبى فى فلسفته للتاريخ إن المرحلة الأولى لأى حضارة هى مرحلة النمو ، وهو الذى ينشأ من 'التحدى' الذى تفرضه البيئة ، ويتميز هذا التحدى لا يبلغ الشدة التى تحول دون التقدم أو تعوقه ، ولا يكون 'مواتيًا' للتطور بحيث يمنع الإبداع والتغيير ، ويلاقى هذا التحدى 'استجابة' لدى أقلية مبدعة تتزعم مسيرة الغالبية التى قد تكون 'سلبية' ، ولكن إخلاصها وولاءها للأقلية المبدعة ، وقبولها ما تفعل بصفة عامة ، يمنح الاستجابة قدرة على مواجهة التحدى .

وتتلو هذه المرحلة مراحل عديدة أولها هو التوحيد المحتوم الذى يتخذ صورة الدولة التى ترسخها القوة لا القبول ، وتتلوها مرحلة أخرى - وهى مرحلة تعدى بعض الجماعات أو الفئات الهامشية على حدود تلك الحضارة ، وكل من هاتين المرحلتين تعتبران 'زمن اضطراب' ('time of troubles') أو قل زمن قلقلة وزعزعة ، يقلل من قدرة الأقلية على الإبداع ، وإن كان ذلك لا يحول دون قدرة الحضارة على استعادة حيويتها وطاقاتها .

ولكن قد يحدث أن يقل التضامن الاجتماعى تدريجيًا ، وهو الذى يتخذ صورة الحروب بين الدول ، أو الحروب الأهلية - فيما بين الطبقات الاجتماعية ، وعندها تستبدل الأقلية القوة بالإبداع ، أى تعتمد

فى بقائها على القوة من خلال نظام الدولة الذى قد يكون عالميًا ، وخير مثال عليه هو الامبراطورية الرومانية . ويصاحب ظهور الأقلية السائدة نمو فى طبقة عاملة 'خارجية وداخلية' ، وتسيطر عليها الأقلية بالقوة لا بفضل قبول هذه الطبقة لها . وتواجه هذه الطبقة قوة الأقلية بأسلوبين الأول هو اللجوء إلى عقائد تحميها من بطش الأقلية وتمثل لها 'حبل قوة' ، وهو ما تفعله الطبقة العاملة الداخلية ، والثانى هو ابتكار طرق 'غريبة' (أى من خير صلب الحضارة الخاصة بهذه الدولة) أو قل استحداث ثقافات وقيم جديدة تتمتع بقوة روحية ، وهو ما يأتى بحضارة جديدة . وقد حول توينبى منظوره من الحضارات بعد الحرب العالمية الثانية إلى ما يسميه 'أولوية الأديان العليا' .

وقد انتقد بعض المؤرخين هذه الفلسفة أولاً بسبب غموض تعريفاته للحضارة والثقافة والمجتمع ، وثانيها هو اعتماده على تاريخ الحضارة الهيلينية - موضوع هذا الكتاب - أكثر مما ينبغى ، وثالثًا بسبب استقائه مصادر للتاريخ من موضوعات ثقافية وفكرية بدلاً من 'الوقائع' المسجلة فى الحوليات ، ولكن فلسفة التاريخ التى أتى بها ستظل قائمة حتى فى معارضة المعارضين ، ومكتبة الأسرة تقدم اليوم الكتاب الذى يعتبر حجر الأساس فى هذه الفلسفة .

والله من وراء القصد ،،،

د. محمد عنانى

مقدمة

كلفت بهذا الكتاب عام ١٩١٤ من قبل «**هوم يونيفرستى ليبرارى**» بناء على طلب أحد المشرفين على التحرير وهو الأستاذ الدكتور **جلبرت مارى** Gilbert Murray . وفى بداية العطلة الطويلة التى قررتها جامعة أكسفورد فى ذلك العام دونت بعض المذكرات عن خطة الكتاب وعرضتها على الأستاذ الدكتور **مارى ليبدى** انتقاداته . وأمامى وأنا أكتب الآن خطاب له بتاريخ ٢٠ يوليو سنة ١٩١٤ مستهل بالعبارة الآتية : «يخجلنى أننى لم أكتب من قبل . فما كنت إلا مستغرقاً فى إنهاء «ألكستيس» Alcestis ، وغفلت عن سائر ما فى العالم» . ومنذ بداية الشهر التالى حتى نهاية حياته ، أى طيلة ما يقرب من ثلاث وأربعين سنة ، كرس **مارى** نفسه لخدمة السلام العالمى . بيد أن هذه العبارة ، وقد كتبت فى هذا التاريخ ، إنما تدل على أن نشوب الحرب العالمية الأولى ، لم يكن يدخل فى حسبان انجلترا على الإطلاق ، حتى بالنسبة لعالم مثل **مارى** كان يشعر دائماً ، منذ فترة دراسته بالمدارس ، بميل شديد غير عادى إلى السياسة .

وقبل اليوم الذى نشبت فيه الحرب ، كنت قد استوعبت تعليقات ماري الرشيدة على مذكراتى وكتبت مسودة الفصول الأربعة الأولى . غير أننى منذ ذلك التاريخ لم أعد إلى قراءة هذه المسودة أو تلك التعليقات .

وفى عام ١٩٥١ ، خلال عطلة قضيتها فى سويسرا ، دونت مجموعة جديدة من المذكرات وعرضت هذه بدورها على الأستاذ الدكتور ماري ، وفى هذه المرة لم تمنعنى كارثة عامة من كتابة مسودة جديدة كاملة ، وإن كان مما يؤسف له أننى لم أتمها فى الوقت المناسب لكى أتمكن من أن أطلع ماري عليها قبل وفاته .

أما النسخة الحالية من الكتاب فقد كتبت بين شهر أبريل من عام ١٩٥٦ وشهر أكتوبر من عام ١٩٥٧ ، فى أجزاء مختلفة من العالم ، فى المحيط الهادى وتسمانيا Tasmania ووستمورلاند Westmorland وأيسلنده وهامبستيد Hampstead وساسكس Sussex . وبينما كنت بسبيل كتابته ، لم أعد لزيارة قلب العالم الهلينى فى حوض بحر إيجة ، ولكنى شاهدت بالفعل جانباً من المساحات الشاسعة التى ضمت إليه عن طريق الفتوحات البرية التى قام بها الإسكندر المقدونى وديمتريوس الباكتيرى Demetrius of Bactria وعن طريق الإشعاع البحرى السلمى لنفوذ مدينة الإسكندرية الواقعة على نهر النيل فى الميدانين الاقتصادى والحضارى ، على البلاد الواقعة شرقى البحر العربى .

وعندما يحاول المرء أن يكتب تاريخ حضارة ما، فإنه لمما يعينه أكبر العون أن يشاهد جانباً ولو ضئيلاً من المسرح الذى دارت عليه حوادث المسرحية. إن لمحة عابرة واحدة يلقيها المرء على طبيعة الأرض لتجبره بأكثر مما تخبره به سنوات طوال يقضيها فى دراسة الخرائط والنصوص .

وبين عامى ١٩١١ و ١٩١٢ ، وقبل أن أدون المجموعة الأولى من مذكراتى الخاصة بهذا الكتاب ، طفت سيراً على الأقدام (وهذه هى الطريقة المثلى) بالأراضى الواقعة حول روما حتى تاركوينيى Tarquinii (كورنيتو Corneto) ، وهيسبيلوم Hespellum (سبيلو Spello) ، وكاييتا Caieta (جايتا Gaeta) وببلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية متجهاً إلى الشمال حتى فارسالوس Pharsalus وخليج أمبراك ، كما طفت أيضاً بثلثى جزيرة كريت من ناحية الشرق وبشبه جزيرة آثوس Athos . وفى عام ١٩٢١ زرت القسطنطينية ، والشواطئ الآسيوية المطلة على بحر مرمرة ، والساحل الغربى للأناضول فى امتداده إلى الجنوب حتى نهر ماياندر Maeander ، وشاهدت أيضاً تساليا الشمالية ومقدونيا الغربية بما فى ذلك لينكيستيس Lyncestis وإيوردايا Eordaea وإيليميوتيس Elimiotis . وفى عام ١٩٢٣ زرت أنقرة (Ancyra) وسافرت عام ١٩٢٩ ، عن طريق أنقرة والبوابات الكيليكية ، إلى المدينتين الشماليتين السليوكيتين ؛ أنطاكية على نهر العاصى وسليوكيه بييريا Seleucia Pieria ، وإلى البصرة والياابان بطريق حلب ودمشق .

وفى عام ١٩٤٨ ، قمت أنا وزوجتى ، وقد نزلنا ضيوفاً على الحكومة التركية ، برحلة فى طرقات شرق الأناضول الأوسط . فزرنا بوغاز قلعة Boghazqal'eh وأمازيا Amasia وتوكات Tokat وسيفاس Sivas (سيباستيا Sebastia) ، وقيصرية الكابادوكية ، والبوابات الكيليكية مرة أخرى (وفى هذه المرة قطعنا رحلتنا بالطريق لا بالقطار) ، ثم طرسوس وأدنه . وفى رحلة حول العالم من الشرق إلى الغرب قمنا بها بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ - وهى الرحلة التى كتبت خلالها النصف الأول من الكتاب - كان أول لقاء لنا بالعالم الهلينى كما بدا فى عصر مابعد **الإسكندر** ، فى شهر فبراير عام ١٩٥٧ عند أريكاميدو Arikamedo وهو «المصنع» الهلينى الواقع على الساحل الجنوبى الشرقى للهند ، إلى جنوب بونديشرى Pondichéry مباشرة . وبين هذا التاريخ وبداية شهر أغسطس عام ١٩٥٧ ، زرنا تاكشاسيلا Takshasila (تاكسيلا Taxila) وبوروشابورا Purushapaura (بيشاور Peshawar) فى جاندارا Gandhara ، وهما عاصمتا إمبراطورية **كوشان** ، ورحلت من بابل إلى مرمى البصر من بوابات بحر قزوين ، حتى الطريق الشمالى الشرقى العظيم الذى كان يمثل عصب المملكة السلوكية ، كما كان عصب الإمبراطورية الفارسية أيضاً ، ومن قاعدة للعمليات اتخذتها فى بيروت (وهى المدينة الفينيقية والمستعمرة الرومانية بيروتس Berytus) ، زرت أيضاً هاترا Hatra وكاربلاء Arbela ، وزرنا معاً البتراء Petra وتدمر Palmyra ، والمدينتين الجنوبيتين فى مملكة سلوكية : لاوديكية

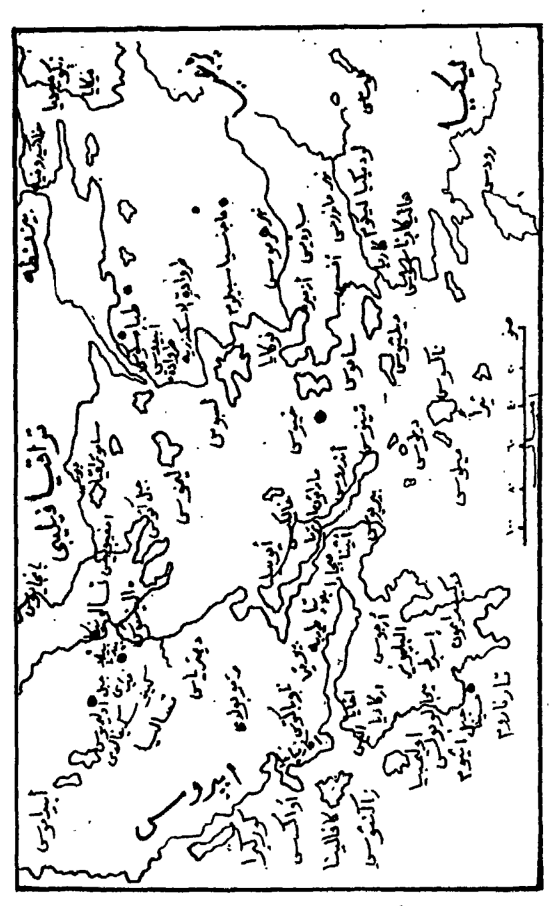
Laodicea (اللاذقية Lattaqieh) وأباميا على نهر العـاصى ، والمدينتين الفينيقـيتين أرادوس Aradus (أرواد Ruad) وانتـارادوس Antaradus (طرسوس Tarsus) ، وعدداً مـن الأماكن في سـوريا المجـوفة Coele Syria وهى بعلبك ومنـابع نهـرى العاصى والأردن ، ومـدن العـصـر الإمبـراطورى للتـاريخ الهلينى فى جبل الدروز وفـى حوران وفـيلادلفـيا Philadelphia (عمان Amman) وجيراسا Gerasa وجادارا Gadara فى ديكابوليس Decapolis ، وبيبلوس Byblos وصيدا وصور على الساحل الفـينيقى ، وغـزة ورفح على السـاحل الفلسطينى ، وفى الـنهاية مـدينة أورشليم ذات الأسـوار التى يكشف تخطيط طـرقاتهـا عن تخطيط مـدينة هادريان المعروفة باسم أيليا كابيتولينا Aelia Capitolina .

أما الثغـرات التى تشوب معلومـاتى عن العالم الهلينى المسـتقاة من مصادرها الأصلية فهى كبيرة وخطيرة . فإنى لم أشاهد بعد ماجنا جرايكيا Magna Graecia أو صقلية أو تونـس ، ولم أزر إيبيروس Epirus أو بيونيا Paeonia (وهى مقدونيا اليـوغوسلافية الحالية) ، أو أمـفيبوليس Amphipolis أو فيليبى Philippi أو جبل بانجايوس Pangaeus ، أو رودس أو كـاريا Caria أو ليكيا Lycia ، أو أكرانيـا أو مصـر (وهما المصـدران الرئيسـيان لمـوارد العالم الهلينـى من الغلال) ، أو باكـتريا Bactria أو باروبانيساداى Paropanisadae (وكلتاهما تقعان فى الوقت الحاضـر في أفغـانستان) . وإن تصـدى المرء للكتـابة عن هذه المناطق

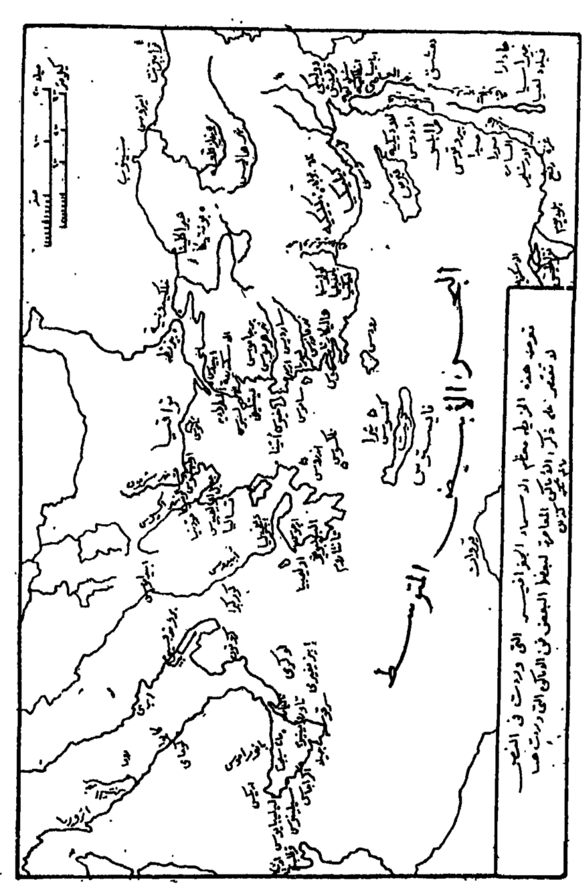
الهامة دون أن يلقى نظرة عليها ، لهو مغامرة محفوفة بالمخاطر ، بيد أنه لا مـحـيص عـن ذلك ، إلا إذا أراد المـرء أن يرجئ الكتـابة إلى أبد الآبدين. وعلى ذلك فإن كل مافى وسعى الآن هو أن أبسط أوراق اللعب التى بيدى على المائدة ليفحصها القارئ .

١٩٥٨

ارنولد توينبى



بعض الأماكن التى تظهر هنا ليست معاصرة لبعضها البعض



تعرض هذه الخريطة معظم الأسماء الجغرافية التى وردت فى النص لا تقتصر على ذكر :

الأماكن المعاصرة لبعضها البعض فمن الأماكن التى وردت هنا

الفصل الأول

عقدة المسرحية

كانت «الهلينية» حضارة خرجت إلى الوجود فى أواخر العصر الألفى الثانى قبل الميلاد واحتفظت بشخصيتها منذ ذلك التاريخ حتى القرن السابع من العصر المسيحى . وكان أول ظهور لها على جانبى البحر الإيجى ، وانتشرت من هناك إلى ما حول شواطئ البحر الأسود والبحر المتوسط ، ثم اتسع نطاقها براً فتوغلت صوب الشرق إلى آسيا الوسطى والهند وامتدت غرباً إلى شواطئ شمال أفريقيا وأوربا المطلة على المحيط الأطلنطى ، بما فى ذلك جزء من الجزيرة البريطانية .

ولفظة «الهلينية» Hellenism ليست من بين مفردات اللغة الإنجليزية الشائعة الاستعمال . فلفظتا «يونانى» و «اليونان» أكثر منها شيوعاً ، بيد أنه ليست هذه ولا تلك تصدق فى التعبير الدقيق عن موضوع هذا الكتاب، ولو أنه قد أطلق عليه «تاريخ الحضارة اليونانية» أو «تاريخ اليونان» لكان هذا مدعاة للالتباس والخطأ .

واليونان اسم بلد يحتل طرف شبه الجزيرة الواقعة فى أقصى جنوب شرق أوروبا ، وجد على الخريطة الطبيعية لسطح كوكبنا هذا منذ أن اتخذت الأراضى والبحار صورتهما الحالية . وهكذا كانت بلاد اليونان قائمة بالفعل قبل أجيال من ظهور الحضارة الهلينية ، وهى مازالت على الخريطة حتى اليوم ، تحمل اسمها مملكة تمثل دولة من دول العالم الحاضر، بعد مضى ألف وثلاثمائة عام على التاريخ الذى أفل فيه نجم الحضارة الهلينية ، كما شهدت اليونان أيضاً حضارات أخرى إلى جانب الحضارة الهلينية ، قامت بها ثم دالت . فقد احتلت الحضارة المينوية الموكنية اليونان قبل ازدهار الحضارة الهلينية ، التى تلتها الحضارة البيزنطية، على حين أنه فيما بين العصر البيزنطى والعصر الحديث ضمت اليونان على التوالى ، إلى العالم المسيحى الغربى فى العصور الوسطى على يد الصليبيين ، وإلى العالم الإسلامى على يد الأتراك العثمانيين . بل إنه خلال الفترة التى تقارب ألفاً وثمانمائة عام والتى كانت الحضارة الهلينية قائمة إبانها ، لم تتفق المساحة التى كانت تشغلها ومنطقة بلاد اليونان المصطلح عليها ، إلا فى أجزاء دون أجزاء . ومنذ بداية هذه الفترة حتى نهايتها ، كان الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى من بين المراكز الرئيسية للحضارة الهلينية ، وهو لا يقع فى اليونان بل فى تركيا . ومن ناحية أخرى ، لم ينضم الجزء الشمالى من اليونان الواقع فى القارة الأوروبية إلى العالم الهلينى انضماماً تاماً حتى القرن الرابع قبل الميلاد .

أما عن لفظة «يونانى» فـإنها فى اللغة الإنجليزية وفى اللغـة اللاتينية ترتبط ارتباطاً وثيـقاً باللغة اليـونانية ؛ بيد أن اللغـة اليونانية والحـضارة الهلينية لم تتفقا قط سواء من حيث العصر الذى ازدهرتا فيه أو من حيث مدى انـتشارهمـا . فمـا زالت اللغة الـيونانيـة حتى اليـوم لغة حـية ، والحضـارة الهلينية قـد مضى على اندثارهـا ما يقرب من ألف وثـلاثمائة عام، كما أنهـا ظلت بالفعل لغة حية لعدد غير مـعروف من القرون قبل مولد الحـضارة الهلينيـة ذاتها . ومنذ انتهـاء الحرب العـالمية الثـانية ، استطاع أحد العلماء البريطانيين وهو المرحوم مايكل فنتريس Ventris ، أن يحل رموز وثائق مكتـوبة باللغة اليـونانية يرجع تاريخهـا إلى ما بين القرن الخامس عشر والقرن الثالث عشر قبل الميلاد . وقد عثر على هذه الوثائق فى كنوسوس Cnossos بجزيرة كريت وفى موكناى Mycenae وبيلوس Pylos وفى شبه جزيرة المـورة ، وكانت هذه ثلاثا من عواصم العالم المينوى الموكينى. والوثائـق مكتوبة على ألواح فخارية ، وليست أبجديتها هى الأبجدية الفينيقية التى أصبحت اللغة اليونانية تكتب بها منذ القرن الثـامن قبل الميـلاد ، ولكنها «الأبجدية الخطيـة ب» المينوية التى ليست ألفبائية بل مقطعية . ولعل اللغة اليونانية قد نقلت إلى اليونان فى القارة الأوروبية فى وقت يعـود إلى القرن العشرين قـبل الميلاد ، ولسنا ندرى كم من الوقت قبل هذا التاريخ استغرقته اللغة اليونانية للتخلص من أصولها فى اللغات الهندية الأوروبية ، فى مكان ما بقلب العالم القديم ،

وفى الانتقال من شمال شرق أوروبا إلى حوض البحر المتوسط . وعلى أية حال ، فقد كان للغة اليونانية تاريخ أطول من تاريخ الحضارة الهلينية. إذ أنها سبقت الحضارة الهلينية إلى الوجود ، وعاشت بعدها أيضاً ، بل إنه خلال الفترة نفسها التى كانت تعيش فيها اللغة والحضارة معاً لم تتطابق المساحتان اللتان احتلتاهما قط .

وخلال الجزء الأعظم من التاريخ الهلينى كانت هناك شعوب تتكلم اليونانية ، وإن لم تكن أعضاء فى المجتمع الهلينى . فالشعوب التى كانت تحتل شمال اليونان التابع للقارة الأوروبية ، إلى شمال وغرب خط يقطع وسط اليونان من الجنوب إلى الشمال ، ممتداً إلى الغرب قليلاً من دلفى Delphi وثرموبولاى Thermopylae لم تعتنق الحضارة الهلينية حتى القرن الرابع قبل الميلاد ، وفى الاتجاه المقابل ، لم تتمثل الشعوب التى كانت تتكلم اليونانية فى قبرص وعلى طول الشاطئ الجنوبى لآسيا الصغرى الذى تمثله السهول الساحلية لكيليكيا Cilicia وبامفيلسيا Pamphylia (وكانت مسقط رأس القديس بولس المواطن الرومانى اليهودى الذى كان يتكلم اليونانية ، والميدان الأول لرسالته التبشيرية) لم تتمثل الحضارة الهلينية تمثلاً كاملاً حتى قرابة هذا التاريخ نفسه . وكانت هناك أيضاً بعض القبائل المتأخرة التى كانت تتكلم اليونانية وتقطن الركن الشمالى الغربى من تراقيا ، حول منابع نهرى ستريمون Strymon (شترما Sturma) وأوسكوس Oescus (إسكر Isker) ، وقد ظلت هذه القبائل خارج حظيرة الحضارة الهلينية حتى

القرن الأول من العصر المسيحى ، حين تم صبغها بالصبغة الهلينية ، بطريق القوة على نحو ما ، على يد الرومانيين الذين كانوا يتكلمون اللاتينية .

وما من شك فى أن الرومان كانوا أعظم من اعتنق الحضارة الهلينية من الشعوب قاطبة ، سواء تلك التى كانت تتكلم منها اليونانية أو التى لم تكن تتكلمها . بيد أن الرومان كانوا من المهتدين المتأخرين . فقد تمثلت شعوب أخرى لا تتكلم اليونانية - مثل المسابيين والأبوليين والإترسكيين فى إيطاليا والليديين فى آسيا الصغرى - الحضارة الهلينية قبل الرومان ، كما كانت هناك فى الطرف الجنوبى من الساحل الغربى لآسيا الصغرى شعوب أخرى لا تتكلم اليونانية وهم الكاريون والليكيون، الذين كانوا فى الأصل أعضاء فى المجتمع الهلينى مثل جيرانهم الذين يتكلمون اليونانية على كل من جانبى البحر الإيجى . ولم يكن للدور الذى لعبته هذه الشعورب فى التاريخ الهلينى قط ، من الأهمية ما كان للدور الذى قدر أن يلعبه الرومان فيما بعد ، بيد أنه لها شرف التميز بالطابع الهلينى فى طرائق حياتها منذ الفصل الأول إلى الفصل الأخير من قصة الحضارة الهلينية .

وفى هذا الفصل الأخير ، لم يهب الرومان الوحدة السياسية والأمن الداخلى لكافة الهلينيين القاطنين حول شواطئ البحر المتوسط ، بأن بسطوا عليهم ظل حكومة واحدة فحسب ، بل إنهم وهبوا الحضارة

الهلينية وسيلة لغـوية ثانية ، لتحل محل اللغة اليونانيـة . وكان للمساواة الرسميـة بين اللغتين اليونانيـة واللاتينية فى الإمبراطورية الرومـانية ، ما يبررها فى روائع **شيشرون وفرجيل وهوراس** ، وغيرهم من رجال الأدب الرومانيين الذين أنتجوا باللغة اللاتينيـة ، أعمالاً فنية هلينية تضارع أعظم الأعمال الأدبية التى كتبت باللغة اليونانية . وكان الآباء الروحيون للعالم الهلينى فى هذا العصر الزاهر من عصـور التاريخ الهلينى ، ممن يتحدثون بلغتـين . فقـد كتب الإمـبراطور **ماركوس أوريليـوس أنتونينوس** الذى انحدرت أسـرته من إسبانـيا والذى كانت لغـة آبائه اللاتينية ، يومـياته باليونانيـة وكانت أنطاكية هى مـسقط رأس المؤرخ **أميانوس ماركلينوس** Ammianus Marcellinus كـما كـانت الإسكندرية هى مسـقط رأس الشاعر **كلوديان** Claudian وكانت أيضـاً اللغة الأصلية لكل منهـما هى اليونانية ، غير أنهما كتبا مؤلفاتهما باللاتينية .

هذه هى بعض الأسـباب التى تبـين خطأ تسمـية الحـضارة الهلينـية «بالحضارة اليـونانية» أو «بحضارة اليـونان» . وعلى الرغم من أن ألفاظ «الهلينية» و «الهلـينى» و «هيلاس» غير مـألوفة لدى جمـهور المتـحدثين باللغـة الإنجليزية على العكـس من لفظتى «اليونان» و «يونانى» إلا أنـها تتمـتع بميزتين . فـهى غير مضللة ولا تحـتمل الالتبـاس ، ثم إنها هى الألفاظ عينهـا التى استخدمهـا الهلينيون أنفسهم ، فى اللغـة اليونانية ، للدلالة على حضارتهم وعالمهم وأشـخاصهم . ويبدو أن لفظة «هيلاس»

كانت فى الأصل الاسم الذى أطلق على المنطقة الواقعة حول رأس خليج مالياك على الحدود التى تفصل بين وسط اليونان وشماله ، وهى المنطقة التى كانت تحوى معبد إلهة الأرض ومعبد أبولو فى دلفى ومعبد أرتميس Artemis فى أنثيلا Anthela بالقرب من ثرموبولاى (وهو الممر الضيق بين البحر والجبل والطريق الرئيسى الذى يصل بين وسط اليونان وشماله، ومن ثم إلى قارة أوراسيا العظيمة التى يمتد فيها شمال اليونان). ومن المرجح أن لفظة «الهلينيين» بمعنى سكان «هيلاس» قد اكتسبت معناها الواسع الدال على مفهوم «أعضاء المجتمع الهلينى» عن طريق استخدامها بمثابة اسم جامع يشمل مجموعة الشعوب المحلية المعروفة باسم الأمفكتيونيز Amphictyones «الجيران» التى كانت تدير معابد دلفى وثرموبولاى وتنظم شئون «الاحتفال البيثى» الذى كان مقترناً بهذه المعابد. وكان هذا واحداً من الاحتفالات الأربعة فى العالم الهلينى التى أصبح ينظر إليها على أنها احتفالات بانهلينية أو «دولية» ، لا باعتبارها مجرد أحداث محلية . أما الاحتفالات الثلاثة الأخرى فكانت ، الاحتفال الأسثيمى ويعقد فى منطقة كورنثة ، والاحتفال النيمى ويعقد فى منطقة فليوس Phlius فى البليبونيز (شبه جزيرة المورة) إلى الجنوب الغربى بقليل من خليج كورنثة ، والاحتفال الأوليمبى ويعقد فى منطقة إليس Elis غربى البليبونيز إلى شمال بيلوس Pylos . وكانت الجوائز التى تمنح للفائزين فى المسابقات الفنية والرياضية ، فى الاحتفالات التى

أصبح لها كيان بانهلينى، جوائز رمزية ليس لها قيم مادية . أما الاحتفالات المحلية فقد كان عليها أن تجتذب المتسابقين عن طريق عرض جوائز ثمينة، فى حين أن شرف الفوز فى واحد من الاحتفالات الدولية كان يبلغ من العظم درجة تتضاءل إلى جانبها الحاجة إلى الجوائز المادية .

وعلى الرغم من أن «الاحتفال البيثى البانهلينى» هو الذى منح الهلينيين تسميتهم المشتركة ، إلا أن الاحتفال الأوليمبى كان أسبق الاحتفالات الأربعة إلى بلوغ مرتبة الاحتفالات البانهلينية . وكان المؤرخون الهلينيون يؤرخون للأحداث العامة على أساس من وقوعها فى هذا الاحتفال الأوليمبى أو ذاك (وكان الاحتفال الأوليمبى يعقد كل أربع سنوات) كما أصبح الحصول على الإذن بالدخول فى مسابقات أوليمبيا هو محك الاعتراف بعضوية الفرد للمجتمع الهلينى ، ومثال ذلك أن الإسكندر الأول ملك مقدونيا ، الذى كان من رعايا الإمبراطور الفارسى اكسركسيس الساخطين ، والذى نقل معلومات قيمة إلى القيادة العليا للجيوش الهلينية المؤتلفة خلال الغزو الفارسى لبلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية بين عامى ٤٨٠ و ٤٧٩ قبل الميلاد ، قد جوزى على صنيعه بأن سمح له بالاشتراك فى مسابقات أوليمبيا ، لا لأن المقدونيين كانوا يتكلمون اللغة اليونانية باعتبارها لغة آبائهم ، بل على أساس من شجرة أسرية خرافية تشير إلى انحدار الأسرة المالكة المقدونية من أرجوس Argos وهى مدينة كانت تقع فى شمال شرق البليبونيز وكانت

من أقدس مدن هيلاس قاطبة . وسمح للرومانيين بالدخول فى مباريات الاحتفال الإسثيمى رمزاً للاعتراف بالجميل للخدمات التى قدموها للعالم الهلينى عام ٢٢٩ ق.م فى قمعهم للقراصنة الإليريين الذين كانوا يعيثون فساداً فى الساحل الغربى من بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية .

وإذا كان من المتعذر أن نقرن الحضارة الهلينية بدولة بعينها أو بلغة بذاتها فكيف لنا إذن أن نعرفها ؟ إن جوهر الهلينية ليس جغرافياً أو لغوياً ، إنما هو اجتماعى ثقافى . لقد كانت الهلينية طريقة مميزة من طرائق الحياة ، تجسمت فى منظمة عليا هى المدينة الدولة ، وإن أى امرئ استطاع أن يتأقلم مع الحياة على التنسق الذى تجرى عليه داخل المدينة الدولة ليعد هلينياً ، بغض النظر عن أصله أو منبته . وإن **الإسكندر الأول** ملك مقدونيا والبدوى **خان سايلز** **Khan Sayles** الإسكيثى الذى عاش فى القرن الخامس ق.م والقائد الرومانى **تيتوس كونكتيوس فلامينوس** **Titus Quinctius Flaminius** والكاهن الأعلى اليهودى **يوشع جاسون** فى القرن الثانى ق.م ، إن هم إلا أمثلة بارزة لهؤلاء الهلينيين بالتبنى .

بيد أن تعريفنا للحضارة الهلينية مازال مع ذلك ناقصاً مبتوراً ، ذلك لأن المنظمة المميزة لها لم تكن قاصرة عليها وحدها . وعلى الرغم من أن اللفظة اليونانية التى تعنى المدينة الدولة ألا وهى Polis قد انتقلت – دون غيرها – إلى لغات العالم الغربى فى العصر الحديث فى الألفاظ

الاشتقاقية : Politics, Policy, Police إلا أن المـدينة الدولة لم تكن تمثل اختـراعاً هلينيـاً بحتاً . إذ كانت مـتمثلة فى سـومر Sumer (فى الحوض الأدنـى لنهرى دجلة والفـرات) حول عـام ٣٠٠٠ ق.م أى قبل ألفى سنة من مـولد الحضـارة الهلينيـة . كمـا كانت المـدينة الدولة من مميـزات حضارة كانت سائدة فى أرض كنعـان وكانت معاصرة وشقـيقة للحضـارة الهلينية . ومن الأمـثلة الشهـيرة للمـدن الكنعانية تـلك المدن الفينـيقيـة صور وصـيدا وأرواد على سـاحل الشام ، وقادش وقـرطاجنة وغيـرهما من المسـتعمـرات الفينيقـية فى جنوب إسبـانيا وشمـال غرب أفريقيا، كما أن هناك نصاً فى العهد القديم يذكر تحويل إقليم يهوذا إلى مدينـة دولة هى أورشليم على يد الملك يوشيا Yosiah فى القرن السابع ق.م. كما بعثت هذه المنظمـة مرة أخرى فى البلاد المسيحـية الغربية ، وهى مجـتمع ينتسب إلى المجـتمع الهلينى ، خرج إلى الوجـود بعد أن أصاب المجتمع الهلينى الانحلال . ومن الأمثلة الشهيرة للمدن الغربية ، فى القـرون الوسطى ، التى قـامت على نسق المـدينة الدولة الهلينيـة ، فينيسيا وميلانو وفلورنسا وسينا فى شمال إيطاليا ووسطها ، ومرسيليا فى بروفنس ، وبرشلـونة فى كـتالونـيا ، وجـنت وبروجـيس يوبريس فى الفلاندرز ومدن هانسا فى شمال ألمانيا . وكـادت البلاد المسيحية الغربية فى العصور الـوسطى أن تصبح مجتـمعاً من المدن الدول ، مثـلما كانت هيلاس ، بل إنه حتى إلى يومنا هذا وبعـد مضى ٥٠٠ سنة على التاريخ

الذى أصبحت فيه «الأمة الدولة» هى المنظمة المميزة للعالم الغربى ، مازال نظام المدينة الدولة العقيم الذى كان سائداً فى العصور الوسطى ممثلاً فى تلك المدن الشهيرة المتخلفة عن ذلك العصر مثل هامبورج وبريمن وبازيل وجنيف وبرن وزيورخ وسان مارينو . والمدينة الأخيرة رغم أنها أصغر هذه المدن جميعاً ، إلا أنها تتميز عنها بأنها مازالت تتمتع بالسيادة والاستقلال التام .

وهكذا يتضح أن نظام المدينة الدولة وحده لا يمثل فى حد ذاته سمة مميزة لطريقة الحياة الهلينية ، إن ما يميز الحضارة الهلينية فى الواقع هو كيفية استفادتها من هذه المنظمة باتخاذها إياها وسيلة للتعبير العملى عن نظرة خاصة إلى الكون . ولقد عبر الفيلسوف الهلينى **بروتاجوراس** Protagoras الأبديرى فى القرن الخامس ق. م عن هذه النظرة فى قولته المشهورة : «إن الإنسان هو مقياس كل شيء» . وعندما نتحدث باللغة التقليدية لليهودية والمسيحية والإسلام يمكننا القول بأن الهلينيين رأوا فى الإنسان «سيد الخلق» وعبدوه كإله بدلاً من الله .

وعبادة الإنسان أو مذهب الإيمان بالإنسان ليست ضرباً من عبادة الأوثان يقتصر على الهلينيين وحدهم . فهناك ما يوحى بأنها كانت العقيدة المميزة للإنسان فى طور تحضره فى كل زمان ومكان . فمن الواضح الجلى ، أنها على سبيل المثال ، العقيدة السائدة فى واقع الأمر - وإن كان لا يعترف بذلك - فى العالم الغربى فى الوقت الحاضر . فالغربيون يعدون من المؤمنين المتحمسين ، بقوة الإنسان الجماعية ،

وبخاصة قوته على الطبيعة غير البشرية ، كما تظهر فى التطبيق العملى للاكتشافات التى يتوصل إليها علماء الطبيعة الغربيون فى العصر الحديث. كما كان الغربيون من أتباع المذهب العقلى فى القرن الثامن عشر ، والفلاسفة الإنسانيون الغربيون فى القرن الخامس عشر من عبدة الإنسان كل بطريقته الخاصة . وما يميز التجربة الهلينية فى مجال الفلسفة الإنسانية عن غيرها ، هو أنها كانت أصدق وأصلب عبادة للإنسان سجلها التاريخ حتى يومنا هذا . كانت هذه هى السمة المميزة للتاريخ الهلينى - وأنها لتثير مسألة جديرة بالاهتمام . إذ ماهى العلاقة بين عبادة الهليتيين للإنسان وبين نشأة الحضارة الهلينية والأمجاد التى حققتها وانكسارها ثم انهيارها فى النهاية ؟

هذا هو موضوع الكتاب الذى بأيدينا . ولكنه ينبغى علينا قبل أن نبدأ فى سرد القصة وفى محاولة تفهم معناها ، أن نسأل أنفسنا عن الأسباب التى دعت إلى أن تكون الحضارة الهلينية أولى الحضارات التى آمنت بالفلسفة الإنسانية دون قيد أو شرط ولأن تكون الحضارة الوحيدة التى فعلت ذلك حتى هذا التاريخ ، ذلك لأنه ما من حضارة ظهرت بعد ذلك ، حتى ولا حضارتنا أيضاً ، قد ربطت نفسها قط بعجلة الفلسفة الإنسانية عن هذا النحو الوثيق . وفيما يلى بعض الاعتبارات التى قد تعيننا على إيجاد جواب على هذا السؤال الأولى .

الفلسفة الإنسانية عقيدة تجتذب الإنسان خلال تلك المرحلة من تاريخه التى يدرك فيها بالفعل أنه قد أصبحت له السيادة على الطبيعة غير

الإنسانيـة ، ولكن قبل أن تضطره التـجربة المريرة لأن يواجـه الحقيـقة الماثلة في أنه لم تتحقق له السيادة بعد على نفسه .

لقد حققت حـضارات الجيل الأول سيادة الإنسان على الطبيـعة غير البشـرية ، وهذه الحضـارات هى الحضـارة السومرية فـى الحوض الأدنى لنهـرى دجلة والفرات ، وحـضارة نهـر هندوس فى غرب باكـستـان ، وحضارة شانج فى الوادى الأدنى من النهر الأصـفر ، والحضارة المصرية فى الوادى الأدنى لنهر النيل ، والحضارة المينوية الموكنية فى جزر البحر الإيجى . وكـانت الحضـارات القـديمة ، قـبل قيـام الحـضارة الهلينيـة والحضـارة المعاصـرة المماثلة لهـا فى كنعان ، قد تـوصلت بالفعل أو ورثت من الاكتشافات العلمية - وهى الزراعـة واستئناس الحيوان واختراع العجلة والقارب - ما يفوق من حيث عبقرية الخلق والإبداع وسعة الخيال والجرأة، جميع الاكـتشافات السابقة فيمـا خلا تحكم الإنسان البدائى فى استخدام النار ، كما يفوق أيضاً جمـيع الاكتشافات اللاحقة ، التى قامت على أساسها . بيد أنه على الرغم من أن هذه الحـضارات البدائية دعمت بما حقـقته من أمجاد انتصـار الإنسان على الطبيعة غيـر البشرية على هذا النحو البـاهر ، فإن ذلك لم يغرها بأن تعبـد قدرة الإنسان . فقـد كانت الحضـارات الأولى ، وقد برزت من الحيـاة البدائية بعـد مرحلة انتقـالية قصيرة نسبياً تعرف بالعصر الحجرى الحديث ، مازالت واقعة تحت تأثير الدهور السـابقة التى لم تتـحقـق للإنسان البـدائى خلالهـا السيـادة على

الطبيعة، رغم سيطرته على النار وقدرته على الكلام ، ولذلك عبد الإنسان الطبيعة لأنه كان يدرك أنها سيدته . غير أنه لم تتحقق السيادة للحضارات البدائية بوجه خاص على عنصر معين من عناصر الطبيعة يستأثر باهتمام الإنسان بصورة أقوى وأوثق من أى عنصر آخر لأنه الأصل - فى الطبيعة - الذى ترتبط به شخصيات أفراد الجنس البشرى ، ألا وهو الأسرة فقد ظل بنو البشر يرسفون فى أغلالها .

كانت عبادة الطبيعة فى العصر البدائى هى المادة التى شكلت منها الحضارات البدائية الديانات السامية التى كانت بمثابة رد لهذه الحضارات على تجربة الانهيار والانحلال الاجتماعى التى مرت بها . أمدت عبادة الإنسان البدائى للطبيعة مجسمة فى الأسرة ، وعبادته للطبيعة ممثلة فى المحاصيل الزراعية ، تلك الحضارات البدائية التى كانت الأولى من نوعها والتى ذاقت مرارة الفشل ، بوسيلة من وسائل التعبير . لقد أمدتها برمز على الجانب المفجع من الحياة البشرية ، وعلى الانتصار العجيب للحياة الذى ينشأ ، على نحو يثير الدهشة ، عن هزيمة الحياة نفسها . وأعرب عن هذه التجارب فى صورة الحبة التى تموت وتدفن فى رحم «الأرض الأم» ثم تنبت ثانية فى محصول العام التالى ، أو فى الجيل التالى من الأسرة البشرية . وطبقت هذه الصورة فى عبادة الأم أو الزوج الباكية المكلومة وأبنها أو زوجها المعذب الذى لقى ميتة قاسية وحقق قيامة مظفرة . وأرسلت هذه العقيدة إشعاعاتها من أرض سومر إلى

أقاصى المعمورة . فتعود الإلهة السومرية **إينانا** Inanna «التى اشتهرت باسمها الأكادى إيشار Ishar» ورفيقها **تموز** إلى الظهور فى مصر تحت اسم **إيزيس وأوزوريس**، وفى كنعان تحت اسم **عشتروت** Astarte وأدونيس Adonis وفى العالم الحيثى تحت اسم **كوبيلا** Cybele **وأتيس** Attis وفى اسكندينافيا فى أقاصى الشمال تحت اسم **نانا** Nana **وبالدر** Balder ، والإلهة هنا مازالت تحمل اسمها السومرى الأصلى ، على حين يدعى الإله فى اسكنديناقيا كما في كنعان «ربنا» دون تحديد لاسمه.

وكان أشهر المراكز الهلينية لهذه العقيدة التى انتشرت فى معظم أنحاء العالم والتى تتمثل فى الإلهة ورفيقها الذى يموت ويبعث مرة أخرى هو **إليسيس** Eleusis ومعبد **ديميتر** Demeter «الأرض الأم» وابنتها **برسيفوني** Persephone وإله الحبوب **تريبتوليموس** Triptole-mus . ولنا إن نقول أن الأسرار الإليوسية كانت تراثاً ورثته الحضارة الهلينية من الحضارة المينوية الموكنية التي سبقتها . على حين أنه لم يكن معهوداً فى العالم الهلينى أن تكون لعبادة الطبيعة السيادة كما كان الحال فى إليوسيس. ولم تنمح عبادة الطبيعة . فقد بقيت عقيدة يعتنقها النساء وأهل الريف ، وكان هؤلاء مجتمعين يؤلفون غالبية عظمى من الشعب . بيد أنها كانت غالبية مضطهدة ، ولذا فإن عقيدتها قد انحدرت معها إلى الكهوف والمغاور .

وكـان السبب فى وقـوع ذلك ، هو أنه قد حـدث فى حوض بحـر إيجة، على خلاف من امتداد أجل النهـضة الحضارية بدرجة ما فى وديان النيل ودجلة والفـرات ، تصدع تام فى الفـترة مـا بين سقـوط الحـضارة المينوية وقيام خليفتها الحضارة الهلينية هناك . ولقد غرق حطام المجتمع المنهار فى طوفـان الغزو البربرى ، وانمـحت آثار الماضى محـواً تاماً ، حـتى إنه لم تتخلف في أذهان الشـعب الهلينى أية ذكـرى ذات بال عن الحضارة السابقة . وكان على الحضـارة الهلينية أن تبدأ حياتها بأن تعيش على تراثين خلفهما البـرابرة ، هما الملاحم التى تنسب إلى هومر والتى أصبحت بالنسبة للهليـنيين كالإنجيل بالنسبة للمسيحـيين والقرآن بالنسبة للمسلمين ، ومجموعة من الآلهـة التى لم تكن رموزاً على تقلبات الطبيعة الغامضـة ، بل صنعت على صورة الإنسان وصورة الإنســان البربرى من دون سائر البشر .

كان هؤلاء الآلهة الأوليمبيون نسخاً تنبض بالحياة لنماذجها الإنسانية الأصلية ، ولم يكن هذا من حسن الطالع ، لأن الطبيـعة البشرية البربرية تتميز بوجه خاص بانعدام روح التهذيب فيها . فالبربرى رجل بدائى كان من سوء حظه أنه سـيق إلى معركة مع آخـر ما يمثل إحدى الحـضارات الآفلة . وكـان لهذه الحادثة الـتاريخيـة أن حطمت على حيـن غرة إطار عادات البربرى وتقـاليده ، وبذلك أطلقته من العقال قـبل أن يتم نضجه واستعداده للتمتع بالحرية . والحقيقة أن البربرى إنما هو مراهق فقد براءة

الطفل دون أن يروض نفسه على ضبط النفس الذى يتميز به البالغ . كان هؤلاء الآلهة المحدثون الذين فـرضوا سيادتهم على آلهة الطبيـعة القدماء خلال الفاصل الاجـتماعى الذى تخلل انهيـار الحضارة المينوية الـموكنية وبزوغ الحضارة الهلينية عصابة من البرابرة الذين يـتمتعون بقوة تفوق قوة البشر ، وإن كانوا يتميزون بوجه خاص بسوء سمعتهم . وقد استقر بهم المقـام على جبل أوليـمبوس ، وأخـذوا فى الهيـمنة على الكون من هذا الوكر الرائع للصوص .

وكانت الطبيعة البشرية البربرية التى انعكست صورتها على مجموعة الآلهة الأوليمبية فى واقعيـة مؤلمة ، موضعاً للعبادة لا يليق على الإطلاق بمجتمع مازال فى طور التحضر ، الأمر الذى أدى بها إلى السقوط سريعاً فى نظر العالم الهلينى . وذهب الأمر إلى أن أصبحت الآلهة الأوليمبية ، فى قصائد هومر ذاتها ، فى صـورتها المنقحـة الأخيرة التى باتت فيـها قانونية معـتمدة ، موضعاً للتجريح والهـزء . وما إن حل القرن السادس قبل الميلاد حتى حمل عليها الفيلسوف **كسينوفانيس** Xenophanes من كلوفون حملة شـعواء . واضطر الهلينيون إلى البحث عن مـوضع للعبادة عوضـاً عن الآلهة الأوليـمبـية ، وظل هذا البـحث جارياً حتـى انمحت الحـضارة الهلـينية نفـسـها من الوجـود ، بيـد أن الهلينيـين الذين أتوا بالمعـجزات فى ميـادين الفن والفكر ، لم يفلحوا قـط فى التخلص دون معونة خـارجية ، من عبادة الإنسان التى ورثوها عن أسـلافهم البرابرة .

وما حدث هو أنهم أخذوا يتأرجحون بين ضربين من ضروب عبادة الإنسان كانا على درجة أقل من الزراية التى كانت تقابل بها عبادة المحاربين والنسوة السليطات من البرابرة المؤلهين . وكان البديل الأول هو عبادة قوة البشر الجماعية كما ظهرت أول الأمر فى صورة المدن الدول المحلية ، وكما انعكست فى النهاية فى شكل إمبراطورية موحدة بدت لرعاياها وكأنها تضم العالم بأسره ، وأفلحت فى الواقع فى ضم جميع المدن الهلينية الواقعة حول شواطئ البحر المتوسط . وكان البديل الآخر هو عبادة فرد من أفراد الجنس البشرى تم تأليهه لأنه ظهر بمظهر المخلص. كان هناك الطاغية الصقلى أو الملك المقدونى أو الإمبراطور الرومانى الذين قدموا أنفسهم على أنهم منقذون للمجتمع ، وكان هناك أيضاً الحكيم الرواقى أو الأبيقورى الذى بدا كما لو أن فى استطاعته أن ينقذ أفراداً آخرين عن طريق ضربه المثل القاسى بنفسه ، لأنه قد أنقذ نفسه فيما يبدو بوساطة تدريباته التقشفية الصارمة .

ولم يشعر الهلينيون بالاطمئنان قط لممارستهم عبادة الإنسان ، حتى فى أشكالها المبسطة التى لا تعد مجلبة للعار . وكان شاهد قلقهم ذلك الخوف الذى كان يسيطر عليهم من أن يرتكبوا جرم «الهيبريس» Hybris، أى ذلك الكبرياء والصلف اللذين يجلبان على الإنسان حنق الآلهة وعقابهم . ولقد أدرك الهلينيون أنه ليس باستطاعة الإنسان أن يؤله نفسه ويفلت من القصاص .

ووجد الهلينيون فى النهاية أن عقوبات الكبرياء رادعة ساحقة ، وأن ممارسة عبادة الإنسان فى أى شكل من أشكالها مكروهة منبوذة ، حتى إنهم سلموا قيادهم لديانتين شرقيتين ظهرتا ، تحت تأثير الحضارة الهلينية، فى مجتمعات آسيوية كان الهلينيون قد قهروها بحد السيف . فاعتنق الهلينيون فى الهند ووسط آسيا الديانة البوذية فى صورتها الحديثة التى عرفت بين أتباعها باسم «السيرة العظمى» (Mahayana) واعتنقوا فى حوض البحر المتوسط الديانة المسيحية .

وحولت هاتان العقيدتان الهلينيين فى النهاية عن الفلسفة الإنسانية لأن كلا منهما قدمت موضعاً للعبادة لم يكن هو الإنسان . كان إله إسرائيل الذى أصبح أيضاً إله المسيحية - مثله مثل الآلهة الهلينية **أبولو وأبيقور وأوغسطس** - شخصاً يمكن للبشر أن يتقابلوا معه ويتصلوا به ، بيد أن العلاقة المشتركة بين الإله والإنسان لم يكن لها الأساس نفسه فى كل من العقيدتين . فالآلهة الهلينية قريبة الصلة بالإنسان ، لأنها خلقت بيد الإنسان على صورة الإنسان . أما إله **إسرائيل** فكان قريب الصلة بالإنسان لأنه خلق الإنسان على صورته هو . أما عن البوذيين الكامنين Bodhisativas الذين كان يكن لهم البوذيون المهايانيون الإجلال والولاء والإخلاص إلى درجة العبادة ، فقد كانوا نفوساً استطاعت فى محاولتها بلوغ هدف الديانة البوذية فى محو الذات ، أن تنفض عنها كل أثر من آثار الطبيعة البشرية ، واقترب هؤلاء من هدفهم هذا إلى الحد

الذى أصبح معه فى مقدورهم فى أية لحظة أن ينفضوا عن أنفسهم الوجود نفسه ، وليس هناك ما يمنعهم من أن ينتقلوا إلى النيرفانا Nir-vana أو الراحة الأبدية إلا عطفهم على أنفس أخرى تحتاج إلى المعونة لكى تخلص ذواتها من شراك الشهوة . وقد ابتعدت الماهايانا أكثر من الديانة اليهودية نفسها، عن عبادة الإنسان . بيد أن الهلينية فى خضوعها لهاتين العقيدتين الشرقيتين اللتين لا تعبدان الإنسان ، قد تركت فى كل منهما جانباً من فلسفتها الإنسانية .

وكانت الديانة المسيحية التى استأثرت فى النهاية بنصف العالم الهلينى تعد صورة معدلة للديانة اليهودية ، وقد تم هذا التغيير عن طريق تطعيم الديانة اليهودية بفكرة هلينية تعد فى نظر اليهود على النقيض تماماً من كل ما تمثله الديانة اليهودية . تقول العقيدة المسيحية إن إله إسرائيل الذى خلق الإنسان على صورته قد هيأ أيضاً وسيلة للخلاص لخلائقه البشرية ، بأن تجسد بذاته فى صورة إنسان . وكان هذا المبدأ المسيحى الثورى الذى يقول بتجسد الله ، فى نظر اليهود ، إقحاماً إلحادياً على الديانة اليهودية ، لأسطورة كانت من أفدح وألعن الأخطاء التى وقعت فيها الديانة الوثنية الهلينية . كانت هذه خيانة لكل ما حققته العقيدة اليهودية بعد صراع طويل مرير من أجل تطهير نظرة الإنسان إلى طبيعة الله والسمو بها ، ولم يكن لأى يهودى صادق الإيمان أن يقدم عليها . ولم يكن ليقترف هذا الجرم غير الجليليين الذين عاشوا تحت تأثير

الحضارة الهلينية زهاء ربع عصر ألفى قبل أن تفرض الديانة اليهودية على الجليل بالقوة فى أوائل القرن الأخير قبل الميلاد . والحقيقة أن تأثير الحضارة الهلينية على مبادئ المسيحية ونظرتها ، كان تأثيراً عميقاً ، لأن الله فى تحوله إلى إنسان يعرض نفسه للشقاء الذى هو المصير المحتوم لكل إنسان. ولاشك فى أن عبدة الإنسان الهلينيين قد نبذوا صورة الإله المعذب ، التى تكمن فى ثنايا عبادة الإنسان . وكان القديس **بولس** يدرك أن صلب **المسيح** كان ، إلى جانب وقوفه عقبة كئود بالنسبة لليهود ، حماقة فى نظر الهلينيين . وهنا أدى المنطق الهلينى إلى نظرة ازدراء من جانب رجل مثقف ثقافة هلينية ، تجاه الديانة السرية للنساء وأهل الريف. بيد أن تطعيم الديانة اليهودية بفكرة التجسد الهلينية كان من شأنه أن خرجت إلى السطح من جديد ، وفى الديانة المسيحية هذه المرة ، عبادة الإله الذى لم تفقد قصة موته المفجع وقيامته المظفرة سحرها على النفوس البشرية فى العالم الخفى العظيم للمجتمع الهلينى .

أما الآثار الأخرى التى خلفتها الحضارة الهلينية فى الديانات الشرقية المنتصرة ، فتبدو تافهة إذا ما قورنت بالأثر السالف الذكر ، بيد أن الأثرين التاليين كانا عظيمى الأهمية بالرغم من ذلك . لقد وجدت كل من المسيحية والماهايانا فى الفن الهلينى واسطة بصرية لعرض أفكارهما ومثلهما على الغالبية الأمية من أتباعهما . ووجدت المسيحية فى الفلسفة الهلينية واسطة ذهنية لبسط العقائد المسيحية فى عبارات اصطلاحية تقبلها

الأقلية المثقفة تثقيفاً هلينياً من بين أعضاء المجتمع . كما وجدت الكنيسة المسيحية فى البناء الإدارى للإمبراطورية الرومانية - وهى دولة مسكونية بنيت من خلايا تتألف من مدن دول - نموذجاً عملياً صالحاً تحتذيه فى منظمتها الخاصة بها .

وكان للتجربة الهلينية فى المضمار الحضارى أن تمثل حقبة رائعة من تاريخ الإنسانية ، حتى ولو لم تسفر عن أية نتائج . ولكن بوسعنا الآن أن نرى ، إذا رجعنا إلى الماضى ، أنه قد كان هناك بالفعل خطر وقيمة بالنسبة للأجيال التالية لما أسهمت به الحضارة الهلينية فى الأفكار والمثل التى تضمنتها الديانة المسيحية والديانة الماهايانية وغيرهما من الديانات السامية وخاصة الإسلام والديانة الهندية المتأخرة عن البوذية ، وهى الديانات التى نشأت عن تلاقى الحضارة الهلينية مع الحضارتين اللتين عاصرتاها فى كل من كنعان والهند . إن هذه الديانات السامية هى أعظم القوى الروحية فى حياة البشر فى الوقت الحاضر ، ومازالت الحضارة الهلينية تنعم بالحياة وذلك فى الأثر الذى تركته فى كل من هذه الديانات. كانت الآثار التى خلفتها الحضارة الهلينية فى الديانات السامية آثاراً سلبية وآثاراً إيجابية أيضاً . وكان أعظم آثارها السلبية ، دلالتها المؤسفة على قصور عبادة الإنسان ، وكان أجل آثارها الإيجابية خلق المسيحية عن طريق تطعيم الديانة اليهودية بفكرة تتناقض مع المبادئ اليهودية ، ألا وهى فكرة التجسد .

الفصـــل الثانى

البيئة الطبيعية لطرائق الحياة الهلينية

كان مركز العالم الهلينى ، والطريق الرئيسى به دائماً ، ممراً مائياً . فبعـد أن مد الإسكندر الأكبر سلطـان الحضارة الهلينية براً إلى مـسافات قصـية إلى الشرق وإلى الغـرب بأن أطاح بالإمبـراطورية الفارسيـة وجد الحكام الهلينيـون الذين خلفـوا الأباطرة الفرس على جنوب غـرب آسيـا ومصر ، أنفـسهم ، منجذبين مرة أخرى تحت تأثيـر قوى لا فكاك منها إلى ناحية البحـر ، وكان هؤلاء على استعداد لأن يضحـوا بولاية برمتها فى داخل القارة فـيما وراء هيلاس ، فى سـبيل الظفر بجـزيرة واحدة من جزر الأرخبيل الإيجى . وقد حدث فى حقبة متأخرة من التاريخ الهلينى، وبعد أن وحد الرومان النصف الغربى من العـالم الهلينى بعد اتساع رقعته تحت ظل حكومـة موحـدة ، أن نقلت عاصـمة هذه «الدولة العـالمـية» الهلينية فى النهاية من روما إلى بيزنطة على شاطئ خليج البوسفور .

أما إذا كان العالم الهليـنى قد نما حول ممر مائى فـتلك خاصية لم ينفرد بهـا وحده، فـقد شاركـته فى هذا الكيان الجـغرافى، الحـضارات المعاصرة التى قامت على ضفاف النيل ودجلة والفرات ونهر الهند والنهر الأصفر. ولكن العالم الهلينى قد انفرد بالفعل بمشاركته الحضارة السابقة عليه وهى الحضـارة الميناوية الموكنية خاصـيتها المميـزة وهى أن الممر المائى بها لم يكن نهراً بل بحـراً. ولم يحدث أن قامت تلك الحضارتان الأخريان اللتان نشأتا حول البحـار فى أندونيسيا واليابان، إلا بعد أن بدأ العهد المسـيحى بالفعل وفى وقت كانت فيه الحضـارة الهلينية فى نزعها الأخير .

كان مهـد الحضارة الهلينيـة هو حوض بحر إيجة . وكـان الشاطئ الشرقى لا يقل أهمية فى اعتبـاره جزءاً من هيلاس عن الشاطئ الغربى أو عن الجزر التى تنتشـر بين الشاطئين . والحقيقـة أن المدن الدول الهلينية الواقعة على طول الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى لعبت الدور الرئيسى فى الحياة الهلينية حتى القرن السادس قبل الميلاد ، حين وقعت تحت حكم دول أجنبـية تمـتد وراءها فى قلب الـقارة وأصـبح عليهـا أن تتنازل عن زعامـتها لهـيلاس إلى بلاد هيلاس الواقـعة فى القـارة الأوروبية ، والتى تضم البليـبـونيـز (شبـه جـزيرة المـورة) ووسط اليـونان حـتى دلفى وثرموبولاى غرباً .

وطبيعة الأرض فى حـوض بحر إيجة معقدة كل التعقـيد . فسلاسل الجبال تقطع الأراضى المستوية الواطئـة ، وصفوف الجزر تشطر البحر .

وقد تشكل هذا البناء نتيجة لعوامل التواء وانخساف وانهيار القشرة الأرضية . والواقع أن حوض بحر إيجة لا يمثل إلا قسماً صغيراً من منطقة شاسعة تلتف حول ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، حيث وقعت هذه التقلبات الطبيعية . وتمتد هذه المنطقة من الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية ، حيث تبرز من المحيط المتجمد الجنوبى ، إلى مراكش وإسبانيا حيث تنغمر تحت سطح المحيط الأطلنطى . وثمة قوس من الجبال الملتوية يمتد فى منحنيات هائلة حول ثلاثة جوانب من المحيط الهادى ، مبتدئاً بالانحدار الغربى للأمريكتين حتى أقصى نقطة جنوباً فى تعرجات الجزر التى تطوق الشاطئ الشرقى لآسيا . وفى جزر السيليبين ينعقد هذا القوس مع قوس آخر يتلوى آخذاً طريقه من نيوزيلندة عبر أندونيسيا وجبال الهيمالايا إلى هضبة بامير ، وتواصل الثنيات الجبلية رحلتها من هناك متجهة صوب الغرب فى خطوط متوازية ، عبر النصف الغربى من العالم القديم . وليس حوض بحر إيجة هو القسم الوحيد فى المنطقة الذى انهارت فيه الثنيات الجبلية وانغمرت تحت مستوى سطح البحر . فقد حدث الشيء نفسه فى البحر الكاريبى وعند مضيق بهرنج وفى اليابان والفلبين وأندونيسيا ، كما فى حوض البحر الأسود وغربى البحر المتوسط ، اللذين يعتبر حوض بحر إيجة همزة وصل بينهما . بيد أن ما يهمنا فى هذا المقام هو الجزء الخاص بحوض بحر إيجة من هذه القشرة الأرضية المتكسرة ، إذ كان هذا هو الموطن الأصلى للحضارة الهلينية والمحور الدائم لها .

وكان لتضاريس بحر إيجة ومركزه الجغرافى أن أمداه بمظاهر طبيعية بارزة ثلاثة كان لها آثار هامة على حياة سكانه .

فحوض بحر إيجة يهيئ فى المكان الأول طرقاً ممتازة للمواصلات البحرية . فعلى حين أن هناك مشقة كبيرة فى الانتقال براً من سهل صغير إلى آخر عبر الجبال الوعرة الشديدة الانحدار التى تفصل بين الواحد والآخر ، فإن لكثير من هذه السهول نوافذ تطل منها على العالم الخارجى الرحب ، تكونت نتيجة لانغمارها إلى ما تحت مستوى سطح البحر . وتنشأ فى كثير من الأحيان عند النقط الساحلية التى تلتقى عندها السهول والجبال ، مرافئ طبيعية طيبة ، كما تهيئ سلاسل الجزر – وهى قمم الأجزاء المغمورة من السلاسل الجبلية – التى تمتد من ميل عبر البحر من شاطئ إلى شاطئ فى خطوط متوازية ميداناً صالحاً لتدريب المبتدئين على الملاحة . وفى وسع الملاح المحلى الذى تعلم أصول حرفته فى بحر إيجة، حيث لا يبعد البر قط عن مرمى البصر وحيث يندر أن يخرج أمر الوصول إلى الموانئ عن طوقه ، أن يجد حينذاك القنوات التى تفضى به إلى مياه أوسع وأرحب . فإذا ما أبحر الملاح الإيجى صوب الشمال الشرقى خارج البحر الإيجى ، وعبر الدردنيل (هيليسبونت Hellespont) وبحر مرمرة (بروبونتيس propontis) ومضيق البوسفور فإنه ينفذ إلى البحر الأسود . وإذا ما أبحر صوب الجنوب الشرقى عن طريق قنطرة من الجزر – أكبرها وأفضلها موقعاً جزيرة رودس الواقعة بين

الطرف الشرقى لجزيرة كريت والركن الجنوبى الغربى من آسيا الصغرى، فإنه ينفـذ إلى شرقى البـحر المـتوسط ، وإذا ما سـار محاذيـاً للشاطئ الشرقى حتى بلغ دلتـا النيل وصعد فى النهر من هناك فإنه سـيجد - فى العصور الأولـى - نقالة، أو قناة ملاحيـة - كما أصبح الحـال فى عصر متأخـر - تحمله من رأس الدلتا إلى رأس خليج السويـس ، حيث يصبح على أعـتاب المـحيط الهـندى. وإذا ما أبحـر خارج بحـر إيجة صـوب الجنوب الغربى بين الطرف الغـربى لجزيرة كريت والشعـبة التى تقع فى أقصى جنوب شرق البليبـونيز - عند رأس ماليا Cape Malea - فسيجد أمامه الحوضين الأوسط والغربى للبحر المتوسط . وفى وسعه أن يتلمس طريقه عبر مضيق مسينا إلى ثـغور أنهار التيبر وأرنو والرون وإبرو ، كما أن فى اسـتطاعتـه أيضاً إذا مـا أخذ الطـريق الأرحب الواقع بين صقليـة وتونس ، أن يغـامر باخـتراق أعـمدة هرقل خلال مـضيق جـبل طارق والخروج إلى المحيط الأطلنطى .

والأثر الثانى لـطبيعـة بناء حوض بحـر إيجة هو أنها توفـر لسكانه أرضاً صالحة للزراعة عظيمة الجودة ، وإن كـانت محدودة المساحة ضيقة النطاق . وتؤدى شدة انحدار الجـبال إلى تجمع التربة فى الفجـوات كما يتجـمع الحساء فى الطاس . وعمق التـربة هنا عظيم ، كما أن سطحـها مستو ، بيد أن الزراعة لا تلـبث أن تتوقف عند الخط الذى يلتقى فيه هذا السطح المسـتوى مع سـفح الجبل . أما عن الجـبال نفـسها فـهى قاحلة

جرداء إلى حد كبير ، حتى إنه إذا تكبد المزارع مشقة تدريج سفوحها الدنيا ، فإن كمية التربة التى يستطيع الاحتفاظ بها فوق مستوى السهل تبلغ من الضآلة حداً لا تصلح معه لغير إنبات عدد قليل من أشجار الزيتون . ومن المجزى فى الأراضى الشديدة الانحدار الغزيرة الأمطار مثل سفوح هضبة بيرو المطلة على المحيط الأطلنطى ، أن يدرج منحدر الجبل حتى قمته تقريباً ، بيد أن المناخ فى حوض بحر إيجة شديد الجفاف ، كما أن سفوح الجبال جرداء ماحلة ، بدرجة لا تعوض عن هذه المشقة الكبيرة . صحيح أن فى وسع حوض بحر إيجة - شأنه شأن هضبة بيرو - الاعتماد على المطر لتوفير مياه الرى اللازمة لمحاصيله ، بيد أن الخط الفاصل فى بحر إيجة بين الصحراء والأرض الزراعية يكاد يبلغ من الحدة ما يبلغه فى هضبة بيرو حيث يمتد بطول الساحل الذى لا تسقط عليه الأمطار ، وتعتمد فيه الزراعة اعتماداً كلياً على الرى ، ويتوقف نمو النبات فجأة عند النقطة التى يتعذر عندها تدفق المياه المانحة للحياة إلى ما وراءها .

ومن شأن الموقع الجغرافى لحوض بحر إيجة خلق تغيرات موسمية متطرفة . فلما كان بحر إيجة يقع عند الحد الفاصل بين أوروبا وأفريقيا ، فشتاؤه شتاء أوروبا وصيفه صيف أفريقيا ، وكثيراً ما أثارت قسوة كل من الموسمين دهشة الزائرين الوافدين من أقاليم مثل شواطئ أوروبا المطلة على المحيط الأطلنطى أو شواطئ هضبة بيرو المشرفة على المحيط

الهادى ، حيث تنحصر الذبذبات المناخية فى نطاق ضيق نتيجة للتأثير الملطف لتيار محيطى يحتفظ بدرجة حرارة ثابتة على نحو ما .

وكثيراً ما تعرضت على غرة فى كثير من المرات للتطرف الموسمى الكبير الذى تذهب إليه تقلبات المناخ فى حوض بحر إيجة . فإننى قد سرت على سبيل المثال ، فيما بين ٢٧ و ٣٠ ديسمبر سنة ١٩١١ فوق هضبة شمال أركاديا فى البليبونيز من أرجوس Argos إلى دير ميجاسبيليون Meghaspileon . ووجدت أن الهضبة مغطاة بملاءة من الجليد يبلغ عمقها فى بعض المواضع عدة أقدام ، ولم يكن من الممكن السير إلا حيثما دكت البغال والآدميون مسلكاً ضيقاً لا يسع غير فرد واحد، حيث يشق المرء طريقه فى صعوبة بالغة بين جدارين من الجليد. وسافرت مرة أخرى فى الأسبوع الثانى من شهر يناير سنة ١٩١٢ إلى تساليا بغية التجوال فى ريفها غير أن البرودة القارسة قد أحبطت مسعاى. فقد كانت هناك ريح شمالية تهب من المنطقة الغربية لسهول الإستبس الأوراسية العظيمة ، التى تمتد على طول الساحل الشمالى للبحر الأسود إلى السفوح الشرقية لجبال كارباثيا ، كما كانت الأرض تتشح بصقيع قاتم يجمد الدم فى العروق . ومررت أيضاً بتجربة ثالثة لمست فيها ما يمكن أن يفعله شتاء حوض بحر إيجة ، وحدث هذا فى يوم من أيام شهر نوفمبر الأخيرة من سنة ١٩٤٨ ، عندما قطعت الطريق من أثينا إلى كورنثة بسيارتى أنا وزوجى ثم عدنا إلى كورنثة . وكانت الألوان التى

اصطبغت بها الطبيعة فى مثل ذلك اليوم من أيام الشتاء هى الألوان التى استخدمها الرسام الجريكو El Greco فى لوحته التى تصور طليطلة وقد اجتاحتها عاصفة راعدة . كانت السماء قاتمة والبحر عاتيا . وكان على أن أخوض فى أكوام من الجليد عندما شققت طريقى مصعداً إلى قمة جبل أكروكورنثوس Acrocorinthus ، وكانت الرياح عند عودتى إلى أثينا بطريق كاكى سكالا Kaki Skala (المرسى الردئ) عند حافة صخور سكيرونيا Scironian Rocks ، تعصف فى دفعات قوية ، وتضرب مياه الخليج السارونى فيعلوها الزبد ، وتكاد تكتسح الناظر وتطيح به بعيداً . ولو مد المرء بصره عبر جبال أرجوليد Argolid التى تكتسحها العواصف، لظن - إن لم يكن يعرف أين هو - أنه إنما يحدق فى شواطئ أيسلندة . وفى الطرف الآخر من سلم المواسم لا تقل حرارة الصيف بشاعة - بطريقتها الخاصة - عن برودة الشتاء . فقد رست سفينتى فى ١٧ يوليو سنة ١٩١٢ فى إتيا Itéa فى الساعة الخامسة صباحاً، ومن هناك قصدت دلفى سيراً على الأقدام . وكان طريقى طويلاً صعوداً فى الجبل ، وما لبثت أن أدركت أننى إنما قد دخلت فى صراع مع الشمس . فقد داهمتنى أشعتها اللافحة قبل أن أبلغ نهاية رحلتى ، رغم أننى دخلت إلى دلفى مترنحاً قبل أن تقترب الشمس من سمتها بوقت طويل . وقد اتفق بعد مضى سبعة عشر عاماً على هذا التاريخ أن كنت فى بغداد فى شهر سبتمبر ، حيث بلغت درجة الحرارة ١١٧ درجة فهرنهيتية فى الظل ، مع انعدام ريح الشمال الملطفة التى تهب من سهول

الاستبس والتى تعد خلال فصول الصيف فى بحر إيجة الصديق الرحيم للإنسان . بيد أننى لم أشعر بقسوة الحر فى العراق أو المملكة العربية السعودية كما شعرت بها فى اليونان .

كانت هذه المظاهر الطبيعية لحوض بحر إيجة عوامل فعالة فى التاريخ الهلينى . فإن ندرة الأراضى الزراعية فى الداخل واستحالة زيادة رقعة الأرض الصالحة للزراعة زيادة ذات بال ، دفعتا الشعوب الهلينية إلى التوسع أولاً على حساب الدولة الضعيفة المجاورة ، ثم إلى دعم الزراعة فيما بعد بالاتجاه إلى التجارة والصناعات الإنتاجية وذلك عندما توقفت حركة توسعهم إزاء مقاومة ضحاياهم ومنافسيهم لهم . وكان لسيادة الهلينيين على البحر المتاخم لأوطانهم أن فتحت أمامهم الطريق إلى عالم عظيم الاتساع شديد التعقيد . كما أن تعودهم على التغيرات الموسمية المتطرفة التى عرفت عن بحر إيجة أكسبهم المران على أن يألفوا الحياة فى أى وطن داخل نطاق واسع من البيئات الطبيعية المختلفة .

وكانت أقل الجبهات مقاومة لتوسع الشعوب الهلينية فيما وراء البحار هى التى تقع فى اتجاه الغرب على امتداد البحر المتوسط وفى الاتجاه الشمالى الشرقى خلال المضايق إلى البحر الأسود ، ذلك لأن الشعوب الوطنية فى كل من هذين الاتجاهين ، كانت أكثر تخلفاً من الهلينيين فى المضمار الحضارى ، ومن ثم لم تكن لتقوى على الوقوف فى وجههم ، وعلى ذلك فإنه لم يكن أمام الهلينيين من خصوم يخشى بأسهم غير

المجتمعات المتقدمة المناهضة لهم من بين مجتمعات شرق البحر المتوسط الأخرى . وقد أقام المستعمرون الهلينيون «هيلاس العظمى» (بمعنى «اليونان الوسطى العظمى») عند «ظاهر قدم» إيطاليا و «أصبعها» ، كما أقاموا فى صقلية مستعمرة على غرار البليبونيز وإن كانت تفوقها خصوبة، وثالثة شبيهة بكريت فى قيروان Cyrenaica . ورابعة تعد صورة مصغرة لأيونيا Ionia بعيداً على شاطئ الريفييرا الفرنسية . وتجاوز هذا التوسع البحرى حدود مناخ البلاد الأصلية للمهاجرين الهلينيين . فإن الساحل الشمالى لبحر إيجة ، حيث أسس الخلكيديون مستعمرة على غرار بلادهم خليكديكى Chalcidice ، كان أشد قسوة فى مناخه إلى حد بعيد من الريفييرا الفرنسية ، على الرغم من أنه يقع قريباً للغاية من وطن المستعمرين . أما مناخ الساحل الشمالى للبحر الأسود ، حيث أسس أهل مليسيا Milesians المراكز التجارية عند مصبات أنهار روسيا العظيمة، فقد كان أشد قسوة من ذلك أيضاً . وفى الناحية المقابلة كانت تقع المستعمرة البانهلينية عند نقراطيس Naucratis ، على أحد الفروع الشمالية الغربية لدلتا النيل ، وكانت هذه دون شك تقع فى منطقة أشد حرارة من منطقة بحر إيجة ، وقد حملت نقراطيس لواء الهلينية قبل الإسكندرية ، التى اتخذت فيما بعد عاصمة للعالم الهلينى خلال عصر بدأ بسقوط الإمبراطورية الفارسية على يد الإسكندر الأكبر ، واختتم بغزو الرومان لحوض البحر المتوسط .

ومـا لبثت حـركة الـتوسع فى العـالم الهلينى - التى سـارت إبان جولتها الأولى مـتتبعة الطرق البحرية ، إلى أن قـامت العراقيل فى وجه هذه الحركـة البحرية قـرابة نهاية القـرن السادس قبل المـيلاد - أن دفع **الإسكندر** الأكبر عجلتها من جديد قبل نهاية القرن الرابع ق. م وواصلها **الرومان** قبل نهاية القـرن الثالث ، وفى هذه المرة اتخذت حـركة التوسع طريقـهـا براً . .فى القـرن الثـانى ق. م حـمل خلفـاء **الإسكندر** لواء الحضارة الهلينية إلى حوض نهرى جومنا Jumna وجانجيز Ganges ، أى إلى منطقة هبوب الرياح الموسمية ، ونقلها **الرومان** فى القرن الأخير ق. م إلى الشـاطئ الأوروبى المطل على المـحـيط الأطلنطى ، أى إلى مجال تيار الخليج .

ولقـد صمدت الـمدن الهلينيـة فى هذا التوسع البـرى إلى ناحيـتى الجنوب الشرقى والـشمال الغـربى ، حيال بيـئات أشد غـرابة من مدينة بورسثينيز Boryothenes الشديدة البـرودة الواقعـة على نهر الدنيـبر أو نقراطيس ذات الشمس اللافحة الواقـعة على نهر النيل . فاستطاعت دورا يوروبوس Dura Europus العـيش على ضفـة الفرات فى جـانب من مجرى النهر حيث يشق طريقه فى سهول الأستبس الشمالية لشبه الجزيرة العربية . واستطاعت كل من «سلوكـية علـى الدجلة» و «أنطاكية علـى أورلايوس» و «بوكيـفالا على هيداسـبيس» Bucephala-on-Hydaspes العيش فى السهـول الحارة فى العراق وخوزستان والبنجـاب . واستقرت

بعض المستعمرات الهلينية الأخرى على هضبتى الأناضول وإيران وفى حوض نهرى أوكسوس Oxus وجاكسارتيز Gascartas ، حيث يغطى الثلج البلاد إلى نصف العام . وفى الاتجاه المقابل ، تشهد أسماء المدن الحديثة كولن Koln (كولونيا أجريبينا Colonia Agrippina) فى رانيلاد ولنكولن Lincoln (لندوم كولونيا Lindum Colonia) بين عوالم إنجلترا الشرقية على جلد المستعمرين الرومانيين الذين بثوا فى شمال غرب أوروبا مدناً هلينية فى ثياب لاتينية .

لقد عمد رواد الحضارة الهلينية الأوائل فى انتشارهم براً على تطويع أنفسهم للصمود أمام ظروف البيئة غير الملائمة ، ولكنهم كانوا بطبيعة الحال يشعرون بحنين جارف إلى تلك البقاع - وهى قليلة متباعدة تنتثر فى الأراضى الداخلية القارية الشاسعة التى تحوط حوض بحر إيجة الصغير - التى يذكرهم مناخها أو تذكرهم نباتاتها أو مياهها بوطنهم . فقد انقض على سبيل المثال المستوطنون الهلينيون - وكانوا من قدماء المحاربين المسرحين أو من المدنيين المغامرين - الذين تدفقوا إلى جنوب غرب آسيا ومصر فى آثار جيش الإسكندر الأكبر ، انقضوا على منطقة شرق الأردن الجبلية ، بغاباتها وقنواتها التى تغذيها الأمطار ، ثم إنهم عندما بلغوا بلاد باروبانيسادای Paropanisadae القصية - وتقع في تلك الهضاب الباردة الطقس التى تطوق منابع أنهار أفغانستان حيث تتجمع الطرق القادمة من أركان آسيا الأربعة - دعوا هذا الفردوس المكسو

بالكروم وطناً للإله ديونيسوس Dionysus . لقد احتل المستعمرون الهلينيون باروبانيساداى Paropanisadae بحد السيف ، وظلوا صامدين هناك حتى القرن الأول ق. م. فى الوقت الذى كان الغزاة البدو الأوراسيون قد اجتاحوا بقية أجزاء العالم الهلينى جميعها الواقعة شرقى نهر الفرات . وكانت الريفييرا القرمية والبونتية - وهما صورتان مطابقتان لأيونيا واقعتان على شواطئ البحر الأسود ، احتلهما المستعمرون الهلينيون من قبل إبان المرحلة البحرية لحركة التوسع الهلينى - هما آخر ملاذ لنظام المدينة الدولة الهلينية . فقد بقيت خرسونيسوس توريكا Chersonesus Taurica (فى موقع مدينة سيبا ستوبول الحديثة) على أطراف الريفييرا القرمية ، مدينة دولة تتمتع بالحكم الذاتى ، حتى القرن التاسع من العهد المسيحى ، كما استعادت مدينة تريبيزوند Trebizond استقلالها ، واحتفظت به مدة ربع عصر ألفى ، بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية على يد الصليبيين الغربيين عام ١٢٠٤ من الميلاد .

والحقيقة أن احتمال الهلينيين المغتربين لظروف البيئة غير المواتية كان مجرد عمل فذ أقاموا به الدليل على عبقريتهم ، غير أنهم لم يكفوا قط عن الإحساس وهم فى منفاهم بذلك الحنين الذى كان يشدهم دائماً إلى وطنهم هيلاس . وقد حدث فى أواخر القرن السادس ق. م. أن وجد أحد الهلينيين من أبناء «هيلاس الكبرى» ، وهو الطبيب ديموكيديس Dèmocédés من كروتون Croton الواقعة على «أصبع

قدم» إيطاليا ، وجـد نفسه قد نفى على حين بغتـة إلى قلب الإمبراطورية الفارسيـة . وكان قد عين مفتـشاً للصحة العامة فى جـزيرة ساموس -Sa mos الهلينية ، القـريبة من الشاطئ الغـربى لآسيا الصغـرى ، وشارك رؤساءه فى مصيرهم عندما احتلت حملة فـارسية مقاتلة جزيرة ساموس . وكان من حسن الصدف أن استدعى لعلاج الإمبراطور الفارسى **دارا الأول** من إصابات لحـقت به من جراء سقوطه عن فـرسه ، فكوفئ على إبرائه هذا المـريض الجليل بتـعـيـينه فى منصب المـستشـار الطبى الخـاص للإمبـراطور . بيد أن **ديموكيديس** لم يجـد فى هذا المنصب المرمـوق العزاء عن حياة الأسر التى يحياها فى خوزستان Khuzistan ، ولما كان **دارا** يرفض إخلاء سبيله ، فـقد احتال **ديموكيديس** على ذلك بـأن أقنع الإمـبراطور بالسـمـاح له بالعمل ضـابطاً للمـخابـرات على متن حـملة استطلاعية فـارسية كلفت بتفقد الحوض الغربى للبـحر المتوسط ، وعند ذلك استطاع ، كما كانت نيته فى الأصل ، أن يفر عند أول نقطة حاذى فيها الأسطول الفارسى الصغير وطنه فى مدينة كروتون .

وكان هذا الحنيـن إلى هيلاس من بين نقط الضـعف الموروثة لدى الأسرة السليـوكية Seleucidae التى تمـيزت عن سـائر الأسر المـالكة الهلينية التى خلفت **الإسكندر** الأكبر ، باستطاعتها التوغل بحدودها إلى أقصى نقطة ممكنة فى قلب القـارة الأوروبية . وكان **سلوكس** المظفر هو الذى أرسى دعائم أسرته المالكة ، بعـد موت سيده **الإسكندر** الأكبر ،

بأن استولى على بابيلونيا Babylonia (العراق) الولاية الرئيسية التى تتحكم فى جنوب غربى آسيا ، باعتبارها مصدراً للمؤن وباعتبارها ملتقى طرق المواصلات أيضاً . بيد أنه لم يهدأ له بال حتى هيأ لنفسه شاطئاً على البحر المتوسط ، وما إن تم له غزو شمال سوريا ، حتى نقل المركز الإدارى والحربى لإمبراطوريته إلى هذا الركن البحرى الشاذ منها. وكان على «سلوكية على الدجلة» أن تعترف بزعامة أنطاكية على العاصى التى أقيمت فى النقطة التى يجرى فيها النهر السورى فى صورة سورية طبق الأصل من وادى تيمبى Vale of Tempe إلى نسخة سورية من بييريا Pieria وهو فى طريقة إلى البحر الهلينى . وخلقت بلاد جديدة تحت أسماء كيرستيكى Cyrrhesticé وأنثيموزياس Anthemusias وموجدونيا Mygdonia وأدومانتيس Adomantis على طول الطرف الشمالى من «الهلال الخصيب» . غير أن بعث أسماء الولايات المقدونية على هذا النحو فى سورية والعراق لم يخفف من حنين سلوكس إلى وطنه وبلاده، وعندما ضم فى آخر حرب له من حروب الخلافة ، آسيا الصغرى وتراقيا إلى مملكته الآسيوية المترامية ، كانت الفكرة التى استبدت به هى العودة إلى زيارة مقدونيا التى غاب عنها حتى هذا الحين ثلاثة وخمسين عاماً . وقد كلف هذا الحنين إلى الشاطئ الإيجى سلوكس المظفر حياته ، فقد اغتيل وهو فى طريقه إليه . وكلف سليله أنتيوخوس الثالث العظيم Antiochus إمبراطوريته بأن أدى به إلى الاصطدام

بالرومـان . بيـد أن هذه الـدروس القـاسـيـة لم تثن **أنتيوخوس** الرابع «**إبيفانيس**» عن إنفاق دخول المملكة السلوكية المتضائلة على حوض بحر إيجة السـاحر الآسر ، وذلك بتـزيين أثينا وتجمـيلها . فقـد سعى إلى تخليد ذكراه فى بلاد هيـلاس الأصلية هذه بأن استأنف العمل فى تشـييد معبد **زيوس** الأولمـبى العظيم ، الذى كـان قـد شرع الطاغـيـة الأثينى **بيزستراتوس** Peisistratus فى بنائه والذى قـدر للإمـبراطور الرومـانى **هادريان** أن يتمه . بيد أن سلوك أسرة **سلوكس** إنما يقدم الدليل على أنه مهـما طوف الهلينـى بعيداً عن الـبحر الإيجى ، فـإن قلبه الحـانى يظل مرتبطاً بقلب هيلاس الجغرافى .

الفصل الثالث

الرد على أخطار الفوضى والضغط

كانت الظروف التاريخية التى أحاطت الفصل الأول من تاريخ الحضارة الهلينية ، هى انهيار وسقوط الحضارة الميناوية الموكنية التى سبقت الحضارة الهلينية فى حوض بحر إيجة . ولعل سقوط الميناويين غير اليونانيين ، الذين أسسوا هذه الحضارة القديمة ، كان النتيجة أو السبب فى ظهور الموكنيين بالقارة الأوروبية الذين كانوا يتكلمون اليونانية، والذين احتلوا كنوسوس Cnossos – عاصمة كريت الميناوية– قبل تدميرها فى نهاية القرن الخامس عشر ق.م والموكنيون يعدون برابرة بالقياس إلى الميناويين ، ولكنهم اعتبروا بالنظر إلى البرابرة الأجانب الذين وفدوا فى أعقابهم ، ورثة التقاليد الميناوية وحماتها . وقد قام الموكنيون بالفعل بخلق بعض الأشياء التى حلت على نحو ما محل ما حطموه بأيديهم . فقد خلقوا على سبيل المثال ، القوة البحرية الآخية ، التى واصلت جهود «الملك مينوس» وإن جرى ذلك بصورة غير متقنة –

فى خفر البحار . ولقد كانت الفترة جميعها التى تمتد من نهاية القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن الثانى عشر ، تمثل دون شك عصراً من عصور الانحلال ، بيد أن الانفصام العظيم الذى أصاب سلسلة التطور الاجتماعى والثقافى لم يقع فى بداية هذا العصر بل قرب نهايته . ولم تكن الكارثة العظمى هى تدمير كنوسوس فى القرن الخامس عشر . بل كانت الهجرة الجماعية (Völker wanderung) التى دفعت إليها الموجة التالية من موجات البرابرة فى بداية القرن الثانى عشر ق. م. ولم تتسبب هذه الهجرة فى تدمير موكناى Mycenae والمراكز الأخرى للحضارة الموكنية فى حوض بحر إيجة بل اجتاحت كالموجة العالية أراضى آسيا الصغرى وجرفت أمامها مدينة هتوساس Hattusas (المعروفة الآن باسمها التركى : بوغاز قلعة) عاصمة الإمبراطورية الحيثية . وإذا ما وقف المرء بين أطلال هاتوساس وحاول أن يتخيل مشهد الحصار بأن يستعيد فى ذاكرته وصف فرجيل الشاعر الرومانى لحصار طروادة كما تخيله فى الكتاب الثانى من الإلياذة ، فإنه لن يلبث أن يدرك فداحة كارثة القرن الثانى عشر . فقد تدفق سيل المهاجرين المقاتلين ، الذين كانت قوتهم ما تزال على أشدها ، مطوقاً الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط إلى أن تكسر عند الطرف الشمالى الشرقى لدلتا النيل أمام المقاومة المستميتة التى أبدتها القوات المصرية البحرية والبرية . واستقر المقام بمن كتبت له الحياة من الفلسطينيين المقهورين على السهل الساحلى لفلسطين ودعيت البلاد باسمهم .

وقد استقينا معلوماتنا عن هذا العصر الذى عرف بتقلباته العنيفة ، والذى بدأ بتدمير كنوسوس وانتهى بمعركة النيل عام ١١٨٨ ، مما عثر عليه علماء الآثار فى العصر الحديث من قصاصات الوثائق الرسمية الخاصة بالحكومات المصرية والحيثية والآشورية ، من ناحية ، ومن الدراسة التاريخية التفسيرية لخريطة توزيع اللغات فى حوض بحر إيجة وآسيا الصغرى وسوريا وكنعان بالصورة التى كانت عليها فى العصر الألفى الأخير ق. م. بعد أن هدأت الأحوال به ، من ناحية أخرى ، ثم من هاتين الملحمتين الهيلينيتين ، الإلياذة Eliad والأوديسة odyssey ، اللتين تنسبان منذ القدم إلى هومر .

وتفيدنا السجلات الرسمية المصرية بأن الاضطراب كان شاملاً مطبقاً. فإن ذلك التفجر المروع للشعوب المغيرة وتدفقها من الشمال فى مستهل القرن الثانى عشر ق. م. - وهذه هى الذروة التى بلغتها حالة الاضطراب جميعها - قد ظهرت بوادره فى القرن الرابع عشر ق. م. ، فى الموجة الأولى من موجات غزو كنعان والشام من ناحية الشرق ، وهى الموجة التى خرجت من الصحراء الشمالية لشبه الجزيرة العربية وكذلك خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر فى الغزوات المتلاحقة لدلتا النيل من جهة الصحراء الغربية ،والتى كان يشنها برابرة يفدون فيما يبدو من جهات نائية مثل تونس وصقلية ، بل ومن سردينيا فيما يظهر أيضاً . ومما يفسر اتساع الرقعة التى انتشرت بها الاضطرابات ، الحقيقة

المائلة فى أنه خلال النصف الثانى من العصر الألفى الثانى ق. م. لم يكن المجتمع المينوى هو الحضارة الشرقية الوحيدة التى أصابها الانحلال . فقد استنفد المصريون والحيثيون قواهم بخوضهم غمار حرب استغرقت مائة سنة فى سبيل الاستيلاء على سوريا وكنعان ، وانتهت قرابة عام ١٢٧٨ ق. م. باتفاق يقضى باقتسام منطقة النزاع فيما بينها . كما أنهك الحيثيون قواهم أكثر من ذلك نتيجة لسلسلة من الحروب مع إمبراطورية أرزوه Arzawa ، فى غرب آسيا الصغرى ، وانتهى الصراع بينهما فى وقت ما خلال النصف الأخير من القرن الرابع ، بانتصار الحيثيين ، غير أن انتصارهم - كما تكشف فيما بعد - كان باهظاً فادح التكاليف . والحقيقة أن الفراغ الاجتماعى الذى اجتذب البرابرة من أركان الأرض لم يكن يشمل حوض بحر إيجة وحده بل امتد إلى الشرق جميعه .

وتطلعنا الخريطة اللغوية لهذه المنطقة فى الفترة التالية على مزيد من المعلومات حول ماهية هؤلاء المهاجرين والطرق التى اتخذوها فى هجرتهم، نتبين فيها سهماً عريضاً من الشعوب الدخيلة التى تتكلم الفريجية يسير فى اتجاه مائل عبر آسيا الصغرى ممتداً من الجهة الجنوبية الشرقية للدردنيل ، كما أن فريقاً من المغيرين دفع الكاريين Carians أمامه بحيث هبطوا فى وادى نهر مندرس Maeander حتى البلاد الواقعة عند مصبه حيث طرد الكاريون بدورهم اللوكيين Lycians منه إلى «بطن» و«أصبع» شبه الجزيرة . وتدلنا سجلات الملك تغلث فلاسر الأول Tiglath-Pileser ملك آشور على أن طلائع المهاجرين الفريجيين

القادميـن من جنوب شرق أوربا كانت قد بلغت بالفـعل الحوض العلوى لدجلة قبل أن يوقف الجـيش الأشورى تقدمـها قرابة نهاية القـرن الثانى عشـر ق. م. ويسير سهم آخـر من الشعوب الدخـيلة بميل عبـر اليونان الواقعة فى القارة الأوروبيـة وعبر حوض بحر إيجة ، مـمتداً من إبيروس Epirus (البـر الأصلى) على الجـانب الشـرقى من مـضـايق أوترانتـو Otranto ، فى الاتجاه الـمقابل «الكعـب» إيطاليا ، حتـى جزيرة رودس والجزر الصغـيرة المجاورة الواقـعة تجاه الركن الجنوبى الغـربى من آسيا الصغرى .

وكانت اللغة التى يتكلمهـا هؤلاء الدخلاء الوافدون إلى حوض بحر إيجة من القـارة الأوروبية هى لهـجة من لهجـات اللغة اليـونانية ، وهى اللهجة المـعروفة فى مصطلحات اللغة الهلينيـة باللهجة الدورية Doric . ولعل هذه التـسميـة ترجع إلى أن هذه اللهجـة كانت شائـعة فى دوريس Doris ، وهى مجـموعة الـجزر التى كانت تحـتل أقصى نقطة ، جـهة الجنوب الشرقى ، بلغها المعـتدون . ولقد شق سهم الغزاة الذين كانت لغتـهم هى الدورية ، طريقة فى الطبـقة القديمـة من الشعوب المـتكلمة باليونانية فى هذه المنطقة وهى الشعوب التى احـتضنت الحضارة الموكنية وكانت المتـسلطة على القوة البحرية الآخـية . فاكتسـح الغزاة الجدد هذه الشعوب وأغـرقوهم فى طوفانهم أو دفـعوهم خارج البلاد . أما الـطبقة القديمة من شعوب البليبونيز فلم تبق إلا فى الهضبة الوسطى (أركاديا) أو

بعيـداً فيمـا وراء البحار فى قبـرص ، التى كان المغـامرون الآخيـون قد احتلوها فى القرن الرابع عشر ق.م. ولم يعد للطبقة القديمة من الشعوب التى تتكلم اليـونانية فى اليـونان الوسطى أى موضع فى القـارة الأوروبية فيما عدا مـقريهما فى أتيكا وفى يوبويا Euboea (التى تعتبر جزيرة من الوجـهة الجغـرافيـة وإن كانت فى الواقع جـزءاً من القارة الأوروبـية) . وكانت الـغالبيـة العظمى من هؤلاء اليـونانيين الذين يتكـلمون اللهـجة الأيونية ، قد دفع بهـا عبر البحر إلى جزر بحـر إيجة وإلى ما وراء ذلك أيضاً ، فى بلد أيونى جديد ، يقع على الشـاطئ الغربى من الأناضول ، حيث أدى انهيار الإمبراطورية الحيـثية إلى خلو الساحل تماماً (وكان كل ما أفلـحت القوة البـحرية الآخـية فى الحـصول عليـه من مزاكز بـالقارة الآسيـوية هو رأس جسر واحـد عند ميليـتوس Miletus) . ودفع أيضـاً بالطبقة القديمة من الشعوب التى تتكلم اليونانية والتى كانت تقطن شمال اليونان إلى مـا وراء البحـار حتى أيوليس Aeolis ، وتقع على الشـاطئ الغربى من آسيا الصغرى إلى الشمال من أيونيا Ionia . وأصبح لا يمثل اليونـانيين الذين يتكلمـون اللهجـة الأيولية فى أوروبا غـير مـقاطعـتين محصورتين إحداهمـا فى تساليا وأخرى فى بويوتيا Boeotia حيث حل هؤلاء الذين يتكلمون الأيوليـة ، وقد وقعوا تحت ضـغط الدخلاء الذين يتكلمـون الدورية عند مؤخـرتهم ، محل السكان السـابقين الذيـن كانوا يتكلمـون الأيونية . ويدل اسم «البـويوتبون» على أن هذا الشـعب الذى

يتكلم الأيولية قد انحدر من شمال اليونان ، حيث إن هذا الاسم يعنى سكان بويون Boion وهى لفظة مرادفة لجبل بندوس Pindus .

وتروى الخريطة اللغوية الجديدة لسوريا وكنعان القصة ذاتها . فقد انغمرت فى سوريا الشعوب الأمورية التى كانت تتكلم اللغة السامية تحت موجة اللاجئين الحيثيين القادمين من آسيا الصغرى والذين سيقوا إلى أعالى وادى نهر العاصى إلى ما يقرب من منابعه ، وتحت موجة مضادة من المعتدين الأراميين الذين يتكلمون اللغة السامية والقادمين من شمال شبه الجزيرة الغربية ، وقد شق هؤلاء طريقهم فى سفوح جبال أنتيطوروس Antitaurus وأمانوس Amanus . وأصبحت الطبقة القديمة من الشعوب التى تتكلم اللغة السامية فى كنعان ، لا توجد إلا فى مقاطعات محصورة متفرقة منعزلة ، كما حدث للشعوب التى تتكلم الأيولية والشعوب التى تتكلم الأركادية فى بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية . واحتل الساحل ، فيما عدا فينيقيا ، اللاجئون الفلسطينيون الوافدون من حوض بحر إيجة ، واحتلت الداخل الشعوب اليهودية : **موآب ويهوذا وعمون وإسرائيل .**

وتعتبر الإلياذة والأوديسة ، أكثر مصادر معلوماتنا عن عصر العنف تفصيلاً وأعظمها سحراً ، ولكنها فى الوقت ذاته أعسرها فهماً وأقلها نصيباً من ثقتنا . وما من شك فى أن مدينة إليون Ilion (وتدعى طروادة فى مواضع أخرى) ، نظراً لوقوعها عند النقطة التى يمتد عندها - فوق

الممر المائى الواصل بين بحر إيجة والبحر الأسود - معبر القوارب الذى يصل بين جنوب شرق أوروبا وآسيا الصغرى ، قد لعبت دوراً هاماً خلال هذه الحقبة من التاريخ . والحقيقة أن اكتشاف موقع طروادة وأعمال التنقيب عن الآثار التى جرت فيه فى العصر الحديث أكدت بما لا يدع مجالاً للشك أن طروادة احتلت مركزاً مرموقاً فى فترة امتدت من العصر الألفى الثالث حتى القرن الثالث عشر ق.م . وأن الصورة التى يرسمها هومر لحصار الآخيين لهذا المركز الاستراتيجى الهام طوال عشرة أعوام ، وما تلى ذلك من تشتتهم بحثاً عن الطريق إلى وطنهم ، لينطبق أيما انطباق على صورة ذلك العصر كما ترسمها لنا السجلات المصرية والحيثية. ويظهر الآخيون فى هذه السجلات أيضاً . ، مثلما يظهرون فى القصائد الهومرية ، فى صورة القراصنة المعتدين . وبالإضافة إلى ذلك فإن التاريخ التقليدى لسقوط طروادة بين عامى ١١٩٤ - ١١٩٣ ق.م. كما جاء فى حساب البعض ، وفى عام ١١٨٣ كما جاء فى حساب البعض الآخر ، ليقارب بصورة مذهلة التاريخ الذى يحدده علماء المصريات لمعركة النيل التى لقيت فيها «الشعوب البحرية» الهزيمة على أيدى المصريين . بيد أن أية محاولة لاتخاذ الإلياذة والأوديسة مصدرين تاريخيين لابد وأن تعترض سبيلها العقبات . وعلى سبيل المثال ، فإن شرير الإلياذة ، باريس الذى يسمى فى مواضع أخرى **«الكسندروس الطروادى»** Alexandros of Ilion يظهر من السجلات الرسمية الحيثية تحت اسم **«الكسندوس من ويلوزا»** Aleksandus of Wilusa ، بيد أنه

فى هذا النص ، الذى يعتبر النص التاريخى المعتمد بالنسبة له ، لا يظهر فى القرن الثانى عشر ق. م. بل قبل نهـاية القرن الرابع عشر . فإما أن باريس والكسندروس لم يكونا علمـين فى الواقع على شخـص واحد ، وإما أن هذا الشخص - إن كان بخلاف ذلك - ليـست له علاقة بحصار طروادة فى زمن الاضطراب العظيم الـذى وقع فى القرن الثـانى عشـر . والحقيقة أن شعراء المـلاحم كانوا فنانين مبدعين ذوى أصالة تحول دون أن يكونوا مؤرخين مـدققين صادقين . فعلى الرغم من أن الـموضوعات التى عالجـوها تناولت أحداثاً تاريخيـة ثابتة، إلا أن جل اهتمامـهم كان منصباً على اجتـذاب انتباه جمهور مستمـعيهم ولذلك فلم يكونوا يترددون فى صياغة قصصهم فى قـالب فنى براق على حساب الدقة التاريخية ، بل قد يكلفـهم ذلك فى بعض الأحيـان تغييـر القصة بمـا يطمس معالمـها ويخرج بها عن الأصل تماماً .

ويعرض لنا الشـاعر الهلينى هزيود Hesiod الذى كـان يكتب عن هذه الأحداث بعد انقضاء أربعة قرون أو خـمسة على وقوعها ، وذلك فى فترة الظلـمات التى سبقت انبـلاج فجر الحضارة من جـديد ، يعرض لنا جنباً إلى جنب ، صورتين مـتناقضتين لحقبة الاضـطراب الاجتماعى فى حوض بحر إيجة . ففى إحدى هاتين الصورتين ، صور البرابرة وكأنهم فى الواقع جنس شرير ينتسب إلى عصر العنف والاضطراب ، ثم مجدهم فى الصورة الأخرى ، كما مجدتهم المـلاحم الهومرية ، باعتبارهم جنس

الأبطال النبيل العـريق . فإننا فى الصورة الثـانية نرى البرابرة كمـا كانوا يبـدون فى نظر أنفسهم ، وفى الصـورة الأولى نراهم على النحـو الذى ظهروا به لضحاياهم . وكـانت السيادة ؛ فى التـراث الأدبى الهلينى ، لصورتهم المثـالية ، ويرجع السبب فى ذلك من ناحية إلى فـضل عباقرة الحضـارة الهلينية الذين صـاغوا تلك الأعمـال الفنية الرائعة مـثل الإلياذة والأوديسة مستمدين إياها من أشعـار الملاحم البربرية ، ويعود من ناحية أخرى إلى أن المجتمع الهلينى لم يرث من سلفه المنيوى أى كتاب يقوم مقـام «الكتاب المقـدس» الذى حل محل المـلاحم التيوتونيـة فى البلاد المسيـحية الغربيـة ، أو مقام القرآن الذى دفع بالأشـعار الباقيـة للوثنيين العرب إلى زوايا الإهمـال فى العالم الإسـلامى . لقد وقع مؤسـسو نظام المدينة الدولة الهلينيـون خلال الفصل الأول من تاريخ الحضـارة الهلينية تحت سحر الأبطال البرابرة . ولكنهم فى الوقت الذى كانوا يمجدون فيه عصر البربرية فى الأشعار الهـومرية ، كانوا بسبيل التخلص منه فى واقع الحياة .

ولقد كـان التراث الذى خلفه عصـر البربرية فى حوض بحـر إيجة يقوم على الفـوضى ، ولذلك فقد كان الفـصل الأول من التاريخ الهلينى يمثل عصراً مظلماً لابد أن امتـد إلى ما يقرب من أربعمائة سنة ، إلى أن تبددت ظلماته فى النهاية فى القرن الثامن ق.م. وكان هذا العصر المظلم من العصور التى ازدادت فيـها مشقات الحياة ، كما يشـهد بذلك الشاعر

هزيود . بيد أنه ، على خلاف فترة الفراغ الاجتماعى التى سبقته ، كان عصر مشروعات بناءة . فقد شهد استتباب النظام فى حوض بحر إيجة من جديد ، نتيجة لانتصار فلاحى السهل على رعاة الجبل .

ولا يختلف الحال فى حوض بحر إيجة عن الحال فى مجموعة الجزر اليابانية ، فإن ما يقرب من ٩٠ ٪ من مساحة الأرض، تشغلها الجبال غير الصالحة للزراعة، أما الأرض المستوية الصالحة للزراعة فلا تزيد على ١٠ ٪ تقريباً. بيد أن سكان السهل كانوا يتمتعون فى الصراع الذى نشب بينهم وبين سكان الجبل ، بثلاث ميزات. فكان سكان السهول أكثر عدداً، وأعظم تركيزاً ، وأيسر حالاً، مما أتاح لهم فرصاً للتنظيم والتسليح لم تتيسر لخصومهم من سكان الجبل فى تشتتهم وفقرهم المدقع.

ومن المرجح أن اختراع المعدات الحربية التى كانت فى متناول أهل السهل قد تم فى وقت ما يقع خلال النصف الأخير من العصر الألفى الثانى ق.م. وقد شاع استعمال هذه المعدات ، فى العصر الألفى الأخير ق.م. فى منطقة تمتد من آشور الواقعة فى الركن الجنوبى الشرقى عبر أورارتو Urartu (أرمينيا) ثم آسيا الصغرى حتى المراكز الأمامية للحضارة الهلينية جهة الغرب ، بما فى ذلك الشعوب التى كانت فى دور التطبع بالطابع الهلينى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط . وكان العنصران المميزان لهذه المعدات ، درع معدنى مستدير ، وخوذة معدنية لها عرف من شعور الخيل . ولابد أن مخترعى هذه المعدات كانوا ينظرون إلى

الخيل نظرة إجلال وإكبار ، وكان لهم أيضاً شغف بالتعدين ، ومصدر وفير للمعادن الخام ، وتشير هذه الاعتبارات الثلاثة إلى الحيثيين الذين عرف عنهم شغفهم بالخيل وتقدمهم فى مضمار سبك الحديد . وفى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. كانت الإمبراطورية البرية الحيثية فى آسيا الصغرى على علاقة مباشرة بالقوة البحرية الآخية التى حلت محل القوة البحرية المينياوية فى بحر إيجة ، وكان الآخيون مازالوا يتلقنون إذ ذاك من جيرانهم الحيثيين كيفية استخدام العربات الحربية ، ومن ثم فقد يكون هذا هو الوقت أيضاً الذى بدأت فيه شعوب حوض بحر إيجة فى اصطناع الأسلحة المعدنية . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فالاحتمال الثانى هو أن هذه الأسلحة دخلت منطقة بحر إيجة خلال حركة الهجرة الجماعية Völkerwanderung التى حدثت فى القرن الثانى عشر ق.م. على أيدى الكاريين ، الذين ينسب إليهم هيرودوتس Herodo-tus وهو المؤرخ الكارى الذى عاش فى القرن الخامس استحداثهم فكرة العرف المصنوع من ذيول الخيل . والمسلم به فى الإلياذة هو أن هذه المعدات كانت شائعة الاستعمال بالفعل بين أبطال كل من طرفى النزاع فى حصار طروادة ، وكما أوضحنا من قبل ، فإنه لو صح أن هذا الحصار كان حادثة تاريخية فى واقع الأمر، فلابد أنه كان من بين الوقائع التاريخية للهجرة الجماعية . وكان استخدام الأسلحة المعدنية والعربات فى عصر الهجرة الجماعية وطوال العصر المظلم الذى أعقبه ، وفقاً على

طبقــة أرستــقراطية ووراثيــة ينتظم محــاربوها فى صفــوف سلاح للمــشاة الراكــبين، ممــن يقومون بــمناوراتهم على العربات الحــربية على حــين يقاتلون راجلين فى مبارزة مع العدو وجهاً لوجه . ويتمتع سلاح العربات الثقيلة التسليح ، فى ميدانه المفضل أى السهل ، بميزة معينة على سكان الجبل الراجلين الخفيفى التسلــيح ، غير أن هذه الميزة لم تكن تضمن له التفوق الحاسم ، كما يستدل مما وقع فى كنعان ، خلال العصر المظلم، حيث لقى راكــبو العربات وهم سكان السهل ، الهــزيمة المنكرة على يد سكان الجبل فى جميع البقاع فيــما عدا الشريط الساحلى . ولعل انتصار سكان السهل فى هيلاس لا يرجع إلى تزودهم بالأسلــحة والعربات بقدر ما يرجع إلى انتظامهم فى المدن الدول .

وفى العالم الهلينى وخــلال العصر المظلم ، خــرجت المدن الدول إلى الوجود نتيجة لفرض الوحدة السياســية على مجتمعات كانت على قدر من الضــآلة لا تسمح بأن تؤلف كل منهــا على حــدة، دولة لها كــيانهــا وفاعليــتهــا. واللفظة اليونانيــة التى تستخــدم للدلالة على عمليــة التكتل السيــاسى هذه هى «سونأويــكيزم» Synoecism ، ومعناها الــحرفى هو «الإسكان المــشتــرك» . بيد أنه لا يجب أن يؤخــذ هذا الاصطلاح الفنى بمعناه الحرفى الصارم . فإن مدلوله لا يقتصر على فكرة «تجميع المناطق المدنية» فحــسب . وما من شك فى أنه كان لهذه العملية فى كل حالة من الحالات جانب طوبوغــرافى. واللفظة اليونانية التى تستــخدم للدلالة على

المدينة الدولة التى تتكون نتيجة لعملية الإسكان المشترك هذه هى «بوليس» Polis ، والمعنى الأصلى للفظة «بوليس» هو «القلعة» وكان من الطبيعى أن تقيم المجتمعات التى «تسكن سكناً مشتركاً» داخل مدينة دولة، قلعة مشتركة ، إن لم يكن لشىء فلكى تصبح هذه «مدينة الملجأ» التى يمكن لسكان السهل أن يلوذوا بها بصحبة قطعانهم وأغنامهم وحاجاتهم التى يسهل نقلها اتقاء شر العدو المغير . ولكنه لما كان «الإسكان المشترك» Synoecism يتطلب ، ضمنياً إقامة حكومة مشتركة، فقد كانت القلعة تضم فى العادة داخل محيط أسوارها مركزاً بلدياً دائماً ، يحوى المعابد العامة المخصصة للجمهور وأماكن الاجتماع التى كان بعضها يقام فى العراء ، والبعض الآخر فى قاعات مسقوفة حيث تصرف الشئون المدنية العامة . وقد قمت فى شهر مارس عام ١٩١٢ ، وفى المنطقة المجاورة لبلدة سيتيا Sitia ، قرب الطرف الشرقى لجزيرة كريت ، بزيادة موقع مركز بلدى محصن من هذا النوع . وكانت معالم أساسات المنشآت العامة فى هذا الموقع واضحة يسهل التعرف عليها ، بيد أنه لم يكن هناك ما يدل على أنه قد أنشئت فى أى زمن من الأزمان مساكن لإقامة الأفراد داخل محيط الأسوار . وما من شك فى أنه قد أصبح من المعتاد أيضاً أن يجمع المركز البلدى الدائم حوله فى النهاية ، أحياء دائمة لسكنى الأفراد ، وقد يحدث أن تطوق هذه المدينة الوليدة فى نهاية الأمر بسور دائرى خاص بها . ومع ذلك فلعله لم يكن من المألوف أن يتخذ جميع سكان المدينة الدولة مساكنهم داخل أسوار

المدينة ، حتى وإن كانت المنطقة التى تحتلها من الصغر بحيث يسهل الوصول منها إلى جميع الأراضى الزراعية فيما حولها ، ثم إنه من الواضح أنه كان من المحال تحقيق ذلك فى حالة اتساع المنطقة وامتدادها.

كانت مدينة إسبرطة ، على سبيل المثال ، اتحاداً بين خمس قرى فى سهل لاكيدايمون Lacedaemon الفسيح ، الذى يقطعه نهر يوروتاس Eurotas عند الجزء الأوسط من مجراه . ويبدو أن أربعاً من هذه القرى قد ائتلفت بالفعل فى مدينة واحدة ، غير أن القرية الخامسة وهى أموكلاى Amycle كانت مرتبطة ، نظراً لقدسية معبدها المحلى المقام للإله أبولو ، بموقعها الأصلى ، وكان على بعد ثلاثة أميال شمال الوادى. بيد أن سكان أموكلاى كانوا بحكم القانون مواطنين إسبرطيين يقفون على قدم المساواة ، ويتمتعون بالحقوق والواجبات ذاتها ، التى يتمتع بها إخوانهم المواطنون المقيمون فى مدينة إسبرطة . وعلى هذا القياس أيضاً كان كل ساكن وطنى فى أتيكا Attica ، وهى المنطقة التابعة للمدينة الدولة أثينا ، يعد مواطناً آثينياً ، بيد أن أتيكا كانت تمثل أيضاً منطقة شاسعة . فالمسافة بين رأس سونيوم Cape Sunium الواقعة فى طرف شبه جزيرة أتيكا وبين مدينة أثينا ، تستغرق يوماً كاملاً سيراً على الأقدام، ويبلغ طولها نحو أربعين ميلاً . ومن المحتمل أن الأغلبية من مواطنى أثينا ظلوا مقيمين فى بعض عواصم الريف أو القرى خارج المدينة ، حتى عسكر سكان الريف ، عند نشوب الحرب الآثينية

البليبونيزية العظمى عـام ٤٣١ ق.م، بين «الأسوار الطويلة» التى أصبحت فى ذلك التـاريخ تصل مـا بين المدينـة وموانيـها، اتـقاء خطر الجـيش البليبـونيزى المغـير. ولا مراء فى أن الأراضى التى كـانت تتبع كل من أثينا وإسـبرطة كـانت بالغة الاتسـاع على نحو غـير مـعهـود . وظلت المدينتـان الدولتان الواقعـتان فى جزيرة صـقلية: سرقـوسة Syracuse وأكراجـاس Akragas (أجـريجنتم Agrigentum) همـا المـدينتـان الوحيدتان اللتان تضارعان فى مساحتهما مساحتى إسبرطة وأثينا فى جميع أنحاء العـالم الهلينى، حتى بدأت رومـا فى التوسع فى أراضيـها بطريق الغزو، وذلك فى القرن الرابع ق.م. ومع ذلك ، فـإن عدم تطبيق أسس الإسكان المشتـرك القائمة على الوحدة الطبوغـرافية ، تطبيقـاً كاملاً، فى أثينا أو إسـبـرطة لم يكن غـريبـاً أو شـاذاً. فلم يكن جـوهر الإسكان المـشـترك هو وحـدة المـسـاكن بل وحدة الـنفوس ومـثل هذه الوحـدة السـيكلوجيـة لا يمكن أن تفـتعل افـتعـالاً. ففى عـام ٣٦٩ ق.م. ألف السياسى الطيبى إبامابنونداس Epameinondas بين المجتمعات القروية الواقعة فى جنوب غـرب أركاديا فى مدينة دولة تحت اسم ميـجالوبوليس Megalopolis (و «مـيجـالى بوليس megale polis» تعنى المـدينة العظمى). وكان المقصود أن تكون الدولة الجـديدة حاجزاً يقوم فى وجه إسبرطة، وأن تكون المدينة الجديدة أيضـاً بمثابة قلعة من قلاع الحدود . ورغبة فى توفيـر القوة العددية الكافية من السكان لمدينـة ميجالوبوليس، لضمان مـتانة دفاعهـا، حمل مؤسس المدينة، القـرويين الأركاديين على

ﻫﺠﺮ أوطان أجدادهم فى الريف والإقامة داخل سور المدينة الدائرى الجديد، ولكن هذا الإجراء قوبل بالسخط والإعراض البالغين من جانب الأهلين، حتى إنه رؤى أن الحكمة السياسية تقتضى- رغبة فى انتشال الدولة الجديدة من خطر تصدعها، وانقسامها من جديد إلى عناصرها الأصلية- أن يسمح لسكان عدد من القرى المنقولة بالعودة إلى أوطانهم الأولى على حين يحتفظون بحقوق مواطنتهم الجديدة لمدينة ميجالوبوليس. ويتضح لنا من هذا المثل، أن ثمن إنقاذ الوحدة السياسية للمدينة الدولة من خطر التفكك، كان هو التضحية ببعض مظاهر الوحدة الطوبوغرافية .

ولسنا ندرى أين بدأت حركة التوحيد السكنى فى العالم الهلينى ، ولكن غالب ظننا هو أنها بدأت فى الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى ، حيث وجد كل من اللاجئين الذين يتكلمون الأيونية واللاجئين الذين يتكلمون الأيولية بعد أن طردهم الغزاة المتحدثون بالدورية خارج بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية ، أن عليهم أن يثبتوا ويصمدوا أمام الأعداء المتربصين بهم داخل القارة . وكان يتحتم على القادمين الجدد إذا ما أرادوا البقاء على قيد الحياة أن يتكاتفوا لتحصين قلاع مشتركة ، ولإقامة حكومات مشتركة بداخلها . وقد تناهى إلينا أن مؤسسى مثل هذه المدن الدول فى الأراضى الآسيوية كانوا ينحدرون عن أصول مختلفة متباينة كل التباين (والتسمية الجغرافية الآسيوية اليونانية أيوليس Aiolis تعنى «مختلف الألوان») . وكان من شأن جماعات البحارة الوافدين من

جهـات متفرقـة كثيرة فى بلاد اليـونان الأوروبية أن تأتلف فى كثـير من الأحيان لتكوين دولة جديدة فوق الأراضى الآسيوية . والتسمية التى تطلق وفق المصطلحات الدستورية الهلينية ، على الجزئيات الرئيسية التى تنقسم إليها المدينة الدولة هى «فولاى» Phylae . والمعنى الحرفى لهذا اللفظ هو «الأمم» أو «الأجناس» . وكان من الطبيـعى أن يطلق مثل هذا الاسم على جماعات ركاب السفن ذوى الجنسيـات المختلفة الذين كانوا يتحدون فيما بينهم لتأسيس مدينة مثل فوكايا Phocaea أو كلوفون Clophon بيد أنه كان من السخف بالنسبـة لأفراد عدة مجتمعـات قروية ، كانت تعيش متجاورة فى ذات السهل الصغيـر فى صقع من أصقاع بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية منذ زمن لعله يضـرب فى أعماق التاريخ ، أن يفكروا فى إطلاق هذا الاسم على بعضهم البعـض عند اتحادهم فى سبيل تكوين مدينة دولة ، هذا إذا لم تكـن هذه التسميـة قد أصبـحت مألوفة مـتداولة باعتبارها من بين المفـردات الفنية المقررة لنظام المدينة الدولة . وتوحى هذه الاعتبارات بأنه من المحـتمل أن يكون نظام المدينة الدولة فى العالم الهلينى قد ظهر فى أول الأمر على الشاطئ الآسيوى لبحر إيجة ، وانتقل من هناك إلى بلاد اليونان الأوروبية .

وعلى أية حـال ، فإن اتخـاذ سكان السـهل لهذا الـنظام السيـاسى مكنهم من التغلب على سكان الجبل فى معظم أنحاء هيلاس . وكان من شأن قيام المدن الدول أن نعم مواطنوها بالأمن والسلام . وما لبثت عادة

تقلد السيوف أن بطلت ، بل أصبح مجرد حمل عصاه للمشى يعد عملاً عدوانياً منبوذاً . ومن الأمثلة القديمة الشهيرة التى تصور الأحوال التى نشأت عن تطبيق نظام المدينة الدولة ، المثال الذى تقدمه إسبرطة . فإن لفظة إسبرطة تعنى فى اللغة اليونانية «الأرض المبذورة» . ففى حوض نهر يوروتاس Eurotas ، بلغ اندحار سكان الجبل وانكسارهم أمام سكان السهل درجة استطاع معها سكان السهل أن يقيموا مدينتهم فى الحقول العارية المنبسطة . ولم يكن لمدينة إسبرطة سور يحوطها أو قلعة تحميها. وكان ضمان سلامتها هو التفوق العسكرى الذى كانت تتمتع به القوات الموحدة التابعة للقرى الخمس المؤتلفة فى هذا الوادى . وفى الوقت ذاته يدلنا تاريخ كنعان المعاصر أن نتيجة الصراع الذى قام فى لاكيديمون Lacedaemon (لاكونيا Laconia) بين الإسبرطيين وسكان الجبل المحيطين بهم ، كانت مظنة شك وقضية غير مسلم بها . لقد كانت كنعان تمثل بالفعل عالماً من المدن الدول قبل أن تقع الهجرة الجماعية Völker wanderung ، أما بعد هذه الهجرة فقد صمد نظام المدينة الدولة على طول الشاطئ . ومن ناحية أخرى ، فإن الصراع الذى نشب فى الداخل بين سكان السهل وسكان الجبل خلال العصر المظلم قد انتهى كما رأينا باندحار سكان السهل ، أما الاتحاد الذى تم بين مجتمعى سكان الجبل الظافرين ، وهما قبيلتا **إسرائيل ويهوذا** ، فإنما كان فصلاً متأخراً من فصول القصة ، له ما يقابله فى التاريخ الهلينى فيما

حدث من اتحاد مـجتمعات سكـان الجبل فى أركاديا Arcadia فى نهاية الأمر .

وكـان من أثر انتصـار سكان السهل عـلى سكان الجبل فى مـعظم أنحاء هيـلاس أن توطد النظام وعلت كلمة القانون فى حوض بـحر إيجة كما كان الحال فى القديم ، بعد أن كـانا قد تزعزعا فى أول الأمر نتيجة لانتزاع الموكنيين للسيادة البحـرية من أيدى الميناويين ، ثم قضى عليهما كلية فى النهـاية حين انهارت قـوة الآخيين البحـرية بدورها . وكان هذا الانتصار هو الخـطوة الأولى فى سبيل بناء حضـارة جديدة . وكان خطوة عـسيـرة ، مهـد الطريق إليـها بابتكار نظـام المدينة الدولة . وكـان من الطبيعى أن ترتفع مكانة المنظمة التى أدت هذه الخدمة الاجتماعية الجليلة وأن تحظى بالشكر والامـتنان . وليس أصدق مـن قول أرسطو : «لقد جاءت المدينة الدولة إلي الوجود لكى تجعل الحياة ممكنة» . بيد أن كل شيء ذا قيمة ، يجب أن يبتاع بثمن .

وكان جـانب من الثـمن الذى دفع من أجل إعادة توطيـد النظام من جديد فى حـوض بحر إيجة هو خلق حـالة من الظلم الاجتماعى . فـقد بدأت معظم المدن الدول الهلينية – وتعد أثينا استثناء بارزاً لهذه القاعدة– حياتها وهى ترزح تحت عبء انقسام شعبـها إلى جماعتين إحداهما تمثل المرتـبة الأولى من المـواطنين وتعيش داخل المـدينة على دخل الأراضى الزراعـية المجـاورة لها ، وأخـرى لا تحتل فـى البناء الاجتـماعى غـير الأطراف ويمثلها الـمواطنون من الدرجة الثانية وهم سـلالة سكان الجبل

المقـهورين ، وقد كـان هذا الانفصام فى المـجتمع مـصدراً لا ينضب له مـعين من مـصادر الصـراع الاجتـمـاعى الذى تلا ذلك . ولقد عـاملت إسبرطة المدينة الدولـة المجتمعات المغلوبة من سكان الجـبل المحيطين بها فى لاكيديمـون معاملة بلغت حداً غير معهـود من السخاء والحكمة . فقد سمحت لهؤلاء التابعين Perioeci بالاحتفاظ بحكمهم الذاتى فى مدن خاصة بهم كانت صوراً مصـغرة من المدن الدول . وكان واجبهم الأول تجاه ساداتهم هو الانخراط فى سلك القوات اللاكـيديمونية الموحدة وقت الحرب . وعنـد ذلك كانوا يلحـقون بالفرق ذاتهـا التى كان ينتـظم بها المواطنون الإسبـرطيون ، ولم يظهر قط خلال تاريخ الجـيش الإسبرطى جميعه من بدايته حتى نهايتـه ، ما يوحى بأن الجندى اللاكيديمونى غير الإسبرطى كان يقل عن أخيه الإسبرطى فـى السلاح ثباتاً أو استبسالاً فإنه عندما غزت إسبرطة السهل السـاحلى لحوض نهر يوروتاس ، عمدت إلى معاملة الشعوب المغلوبة هناك بصرامة وقسوة لم يكونا معهودين فى تلك المـرحلة من مـراحل التاريـخ الهلينى ، وكـان ينظر إلى هؤلاء العـبيـد (واسمـهم باليونـانية Heilotes وتعنى «أسـرى الحـرب» أو «سكان المسـتنقعـات») على أنهم قد أهدروا حـقوقـهم الإنسانية ومـن ثم حفت عليهم العبودية .

وثمة جانب آخر من ثمن استعادة النظام ، يستدل عليه مما جاء على لسان الفـيلسوف **هيراقليطس** من أفـسوس Heracleitus of Ephesus الذى عاش فى أوائل القـرن الخامس ق.م. قال **هيراقليطس** : «الحرب

أصل كل شئ» . ولم يكن يفكر بالأسلوب السياسى بل فى النواحى المتعلقة بشئون الكون ، كما كان يقصد فى هذا النص المعنى المجازى لكلمة «حرب» . بيد أن مأثورته هذه صدقت بكل حذافيرها على الطريقة التى أعيد بها توطيد النظام من جديد خلال العصر المظلم فى التاريخ الهلينى . فانتصار سكان السهل على سكان الجبل أحرزته القوة العسكرية، وأصبحت الحرب – وهى الوسيلة التى اتخذت لتحقيق هذه الخطوة الأولى من خطوات تقدم الحضارة الهلينية – ركناً أساسياً ، كالمدينة الدولة ، من أركان الحياة الهلينية . وكان هذا التزاوج المبكر بين الحضارة والحرب فى التاريخ الهلينى نذير شؤم ، ذلك لأن النظام الجديد – على خلاف النظام القديم – كان يقوم على أساس من وجود عدد من المراكز المحلية ، المستقلة استقلالاً سياسياً عن بعضها البعض ولذا فإنها قد تقع فى يسر من جراء ذلك فى صراع الواحدة مع الأخرى . لقد وطدت قوة مينوس Minos البحرية الأمن فى جميع شواطئ بحر إيجة وجزره ، كما قامت خليفتها وهى القوة الآخية البحرية بتقديم هذه الخدمة العامة العالمية ذاتها بدرجة ما . ولكن مثل هذا العامل الجوهرى فى توطيد السلام ، كان يعوز عالم المدن الدول الهلينية الجديد الذى دعت إلى وجوده الحرب التى دارت رحاها بين سكان الجبل وسكان السهل .

وطبقت قاعدة الحرب التى استخدمت لحل أولى المشكلات التى صادفت المجتمع الهلينى ، مرة أخرى لحل المشكلة التالية التى إبتلى بها

الهلينيون نتيجة للحل الذى أوجدوه للمشكلة الأولى . فإن استعادة سيادة القانون وتوطيد النظام الذى تم فى حوض بحر إيجة ، وكان الفضل فيه يعود إلى قيام نظام المدينة الدولة ، قد أتاح للسكان فرصة الزيادة فى العدد إلى ما يتجاوز حدود الموارد الإقليمية . وقد رأينا كيف أن البناء الجيولوجى للمنطقة قد قرر هذه الحدود فى صرامة غير معهودة . وهكذا عوقب الهلينيون على نجاحهم فى اتخاذ الخطوة الأولى فى سبيل التمدن. إذ وجدوا أنفسهم خلال القرن الثامن ق.م. حيال أمرين : إما أن يموتوا جوعاً وإما أن يطلقوا الفائض من السكان إلى ما وراء البحار للاستحواذ على أراض زراعية جديدة بقوة السلاح . وثبت تفوق الحملات المنظمة من «الفلاحين المهيئين للقتال» الذين استطاعت مدن هيلاس أن تبعث بهم إلى البحر على الشعوب الوطنية المتخلفة نسبياً التى تعيش على شواطئ شمال غرب اليونان وفى «ظاهر قدم» و «أصبع» إيطاليا، وجزيرة صقلية، والحزام الأخضر عند قيروان Cyrenaica وشواطئ هليسبونت Hellespont وبروبونتيس Propontis والبوسفور، والبحر الأسود، وحقق العالم الهلينى بذلك خلال فترة لا تتجاوز القرنين إلا قليلاً (تمتد من الربع الثالث للقرن الثامن ق.م. إلى الربع الأخير للقرن السادس) حركة التوسع البحرى الهائل التى تناولنا خطوطها العريضة فى الفصل السابق .

وكانت الشعوب الهلينية التى لعبت الأدوار الرئيسية فى تنظيم حركة الهجرة الجماعية هذه إلى ما وراء البحار هى : الآخيون Acháeans

واللوكريون Locrians الذين كـانوا أهـم المـسـتعـمـرين «الظاهر قـدم» و«أصبع» إيطاليـا ، والكورنثيون Corinthians الذين استعـمروا شاطئ شمال غرب اليونان ، بمـا فيه جزيرة كوركرا Corcyra (كورفو Corfu) ذات الأهميـة الاستـراتيجيـة، وأسسوا مـدينة سرقـوسة Syracuse فى صقلية، والميجاريون Megarians الذين يجاورون الكورنثـيين فى الخليج المسـمى باسمـهم ، وقد أفـاد هؤلاء من امتلاكـهم لشاطئـيه بتـأسيس المستعمـرات فى صقلية من ناحية وشواطئ البوسـفور والبحر الأسود من ناحـية أخـرى ، والخلكيـديون Chalcidians الذين مكن لـهم مـوقع مدينتـهم على الأوريبوس Euripus (وهى قناة ضـيقة بين جـزيرة يوبويا Euboea وأراضى اليونان الوسطى) من إرسال مستـعمرين إلى صقلية فى أحد الاتجاهين ، كما جعل فى وسعهم أن يقيموا فى الاتجاه الآخر مدينة تشبه خلكيدونيـة بكل تفاصيلها وذلك على الشاطئ الشمـالى لبحر إيجة وأهل ميليتوس Milesians فى أيونيا Ionia الذين لعبـوا ، فى البحر الأسود وفى البحار الضيقة المفضـية إليه ، الدور الرئيسى نفسه الذى لعبه الكورنثـيـون فى الغـرب ، والفوكـيـون Phocaeans وهـم الأيونيـون المغامرون الذين أسـسوا ماسيليا Massilia (مرسيليا Marseilles) على الريفييرا الفرنسيـة. أما عن مجموعة المستعمرات الـهلينية فى قيروان فقد أقامها هناك رواد شجعان قدموا من جزيرة ثيرا Thera (سانتورين Sant-orin) الصغيـرة فى بحر إيجة ، وهى تمثل شـذرة من حطام بركان انهار وغمرته المياه .

وكان من بين هذه المستعمرات مدينة هلينية واحدة على جانب عظيم من الأهمية ، تنتسب إلى إسبرطة . فقد قامت مدينة تاراس Taras (تارنتوم Tarentum)- التى تحتل موقعاً طيباً عند مرفأ طبيعى فى بطن كعب إيطاليا - بإحياء ذكرى مؤسسيها على اعتبار أنهم هم الإسبرطيون البارثينيون Parthenae (أبناء الأمهات غير المتزوجات) . ويحكى أن جميع المواطنين الإسبرطيين الذكور الذين كانوا فى سن التجنيد ، قد احتجزوا فى الميدان إبان الحرب التى انتهت باحتلال الإسبرطيين لمسينا messene مدة طويلة من الزمن حتى إن الجيل الناشئ من الفتيات الإسبرطيات عمدن بعد أن عيل صبرهن إلى حمل الأطفال سفاحاً . ولم تشأ الحكومة اللاكيديمونية الاعتراف بهؤلاء الأطفال الذين ولدوا بما لا يتفق وسنن الزواج المشروع ، باعتباراهم مواطنين إسبرطيين ، وعندما قرر هؤلاء ، ساخطين ، الهجرة بكامل هيئتهم ، شيعتهم الحكومة الإسبرطية غير آسفة . وقد تدخل قصة البارثينيين فى عداد الأساطير ، غير أنه من الثابت أن تاراس كانت المستعمرة الوحيدة التى أسستها إسبرطة فى تاريخها الطويل ، كما أنه لاشك أيضاً فى أن السبيل الآخر الذى طرقته إسبرطة لحل المشكلة الهلينية المشتركة المتعلقة بزيادة عدد السكان كان سبيلاً مخالفاً انفردت به وحدها . فإنها لم تظفر بالأراضى الزراعية الجديدة التى تحتاج إليها من البلاد الواقعة فيما وراء البحار ، بل من جارتها اللائى تتاخمنها فى البليبونيز ، كما لم تعتمد فى زراعة

الحقول المنتزعة على سواعد مواطنيها ، بل على كد سكانها وملاكها القدامى بعد أن وضعتهم فى مرتبة الفلاحين العبيد ، وهى المرتبة التى فرضتها من قبل على سكان وادى يرروتاس الأدنى .

ربما لم يكن حل إسبرطة لهذه المشكلة الشاملة بأكثر مجافاة للقواعد الخلقية من المسلك الطبيعى الذى يقضى بالاستيلاء على أرض فيما وراء البحار ، بيد أنه قد ثبت أن هذا الحل كان أصعب من غيره إلى حد بعيد فى مجال التنفيذ . لقد كانت هناك مدن استعمارية مثل تاراس وسرقوسة وأكراجاس Akr gas وهيراكليا بونتيكا Heraclea Pontica ، تضم سكاناً من الرعايا يقارب عددهم عدد السكان الذين كانوا يخضعون لإسبرطة فى مسينا Messene ، وقد زاد سخط هؤلاء الرعايا أيضاً . فقد تلاحقت ثورات المسابيين Messapians المتهورين ضد تاراس ، كما أثار الصقليون المغلوبون المتاعب فى وجه سرقوسة . بيد أن هؤلاء الرعايا التابعين ، فيما وراء البحار ، للمدن الهلينية الاستعمارية ، قد استخلصوا على أقل تقدير بعض المنافع الثقافية فى مقابل خسارتهم لحريتهم السياسية والاقتصادية . لقد أقحمت عليهم إحدى الحضارات التى ما لبثوا أن اعترفوا بسموها على حضارتهم ، ومهد ذلك السبيل إلى تمثلهم فى النهاية بالقاهرين لهم . ولكنه لم تكن ثمة منفعة من هذا القبيل يمكن أن يجنيها المسينيون من وراء هزيمتهم على يد إسبرطة . كما لم يقنع هؤلاء قط بمصيرهم . وأصبح حالهم فى العالم الهلينى كحال البولنديين فى أوروبا ، لا تسنح لهم فرصة للثورة إلا اغتنموها ،

كما لم يسمحوا لأعمال القمع قط أن تثبط عزائمهم أو تضعف من روحهم المعنوية . وكان على الإسبرطيين بعد أن غزوا مسينا فى القرن الثامن بعد حرب طويلة شاقة ، أن يخوضوا غمار حرب أشد هولا فى القرن السابع ، لقمع الثورة الأولى من سلسلة الثورات المسينية الطويلة . وعندما أعيد قهر الميسينيين من جديد ، كان على الإسبرطيين أيضاً القيام بالمهمة التى لا تنتهى قط ألا وهى ضمان رضوخهم .

وكانت اللعنة التى حلت بإسبرطة من جراء غزو مسينا تدعو إلى السخرية . فقد تحتم على الإسبرطيين ، كيما يحتفظون بالمسينين المغلوبين عبيداً زراعيين ، أن يخضعوا هم أنفسهم لعبودية الخدمة العسكرية الكاملة التى تبدأ من سن السابعة إلى سن الستين . وهكذا فإنهم لم يحرروا أنفسهم من سخرة العمل بأيديهم فى الأرض ، إلا لكى ينفقوا حياتهم فى ميادين التدريب وبين جدران الثكنات . وكانت إسبرطة هى المدينة الدولة الهلينية الأولى التى طبقت النظام الديمقراطى . فقد أدمجت النبلاء القدامى فى عامة الشعب . وأصبح جميع الذكور الإسبرطيين «نظراء» لبعضهم البعض . وخصصت لكل جندى من المواطنين الإسبرطيين حصة من الأراضى المسينية ، مع ما يخصها من العبيد ، لكى توفر له النصيب العينى الذى يجب أن يسهم به فى ميس الجند . وقد أصبح ميس الجند هو الوحدة التى يقوم على أساسها البناء العسكرى الإسبرطى .

ويقال إن مبتدع هذه الطريقة الغريبة من الحياة جماعياً (agôgê) ، وهى الحياة التى انعدمت فيها شخصيات الإسبرطيين القاهرين لمسينا ، وناهيك عن تعذر استمتاعهم بوقتهم أو ممتلكاتهم أو أسرهم ، هو **ليكورجوس** Lycurgus . بيد أن **ليكورجوس** لم يكن يمثل شخصية تاريخية . إذ كان إلهاً ، كما يظهر فى الأساطير اليونانية على أنه ملك من ملوك تراقيا ، وقع ذات مرة فى شراك الإله **ديونيسوس** Dionysus . ولم يكن ذلك النظام الذى يسمى بنظام **ليكورجوس** ، تخطيطاً وضعه مصلح اجتماعى ، بل لقد جاء نتيجة لمحاولة أرغم عليها الإسبرطيون لكى يوائموا بين حياتهم الإسبرطية والمطالب الفادحة التى اقتضتها سيادة إسبرطة على مسينا . لم يكن الشاعر الغنائى **ألكمان** Alcman الذى عاش فى القرن السابع يقل فحولة عن معاصريه فى المدن الهلينية الأخرى، بيد أنه لم يظهر له من يخلفه فى إسبرطة بالذات . وبوسع المرء أن يقرأ هذه القصة ذاتها ، كما لو كانت تمثل تمثيلاً صامتاً إذا ما طاف فى إسبرطة الحديثة بالمتحف المحلى . ويتبين المرء من معروضات القرن السابع والقرن السادس ، أن الإسبرطيين استطاعوا الوقوف على قدم المساواة مع معاصريهم فى هيلاس فى فنون طلاء الزهريات ونحت العاج. بيد أن هذه الفنون لا تلبث أن تذوى قرابة نهاية القرن السادس ، ومن ثم فإن معروضات الفترة التالية لا تعدو لوحات بارزة ، لا تبلغ درجة كبيرة من الإتقان ، يرجع تاريخها إلى ما بعد القرن

الثانى ق.م. وتتـفق فترة القرون الثـلاثة ونصف القرن العجـفاء هذه مع العصـر الذى كان نظام ليكورجوس معمولاً به فى إسبـرطة ، كما تتفق والفترة التى كانت فيهـا الفنون فى أوج ازدهارها فى بقية أجزاء هيلاس . كان هذا هو المصير الذى جلبته إسـبرطة على نفسها لأنفرادها باتخاذ هذا المسلك الغريب .

وقد وضعت الحكومة اللاكيديمونيـة عامدة حدًا لاشتراك إسبرطة فى الحياة العامة فى هيـلاس بأن منعت «النظراء» الإسبرطيين من الدخول فى مـسابقـات الاحتـفالات الـبانهلينيـة . وكـانت تخشى أن تضـار الروح العسكرية لدى الجندى إذا مـا سمح له بأن ينال شهرة شـخصية باعـتباره بطلاً رياضـيـاً دوليـاً . غـيـر أن هذا الشـرط لم يطبق على السـيـدات الإسبـرطيات . فكان من حق الإسبـرطية الوارثة أن تنفق ثروتهـا لإعداد فريق للدخول فى سباق العربات التى تجرها أربعة خيول . وكانت النسوة الإسبرطيات يخدمن نظام الحكم بالإسهـام بألسنتهن السليطة فى الاحتفاظ بالمسـتوى اللائق من التـدريب بين معـشر الرجال لديـهن ، الذى كان مثقلاً بالأعـباء والواجبات بصورة غير معـهودة . ومن القرن السادس إلى القرن الرابع ق.م. كانت النسـوة الإسبرطيات هن الوحيدات المـتحررات فى جميع أنحاء هيلاس .

الفصل الرابع

تحرير المدينة الدولة للفرد

كان التغيير غير المحمود الذى طرأ على الروح السائدة فى إسبرطة قبل نهاية القرن السادس ق.م. نذير شر بمستقبل المدن الدول الهلينية ، ونذير شر بمستقبل الحضارة الهلينية ذاتها . فقد عمد الهلينيون إلى عبادة مدنهم على اعتبار أنها آلهة ، بدلاً من أن ينظروا إليها على أنها مجرد مرفق عام ، وذهب الأمر فى النهاية إلى أن أصبحت المطالب التى فرضتها المدن الدول المؤلهة على مواطنيها تستلزم من التضحيات ما استلزمه الصنم الهندى جوجرنوت Juggernaut من عبدة الجوجرنوت ، الأمر الذى ساق هذه المنظمة إلى نهايتها المحتومة . فإن المدن الدول الهلينية ، قد أثارت فى النهاية - كما فعل الإله المهيب كنوسوس Kno-sos حين عمد إلى التهام أبنائه - ثائرة أتباعها الذين عانوا من الويلات زمناً طويلاً ، مما دفعهم إلى العصيان والثورة ضدها .

وعلى أية حال ، فقد كـان هذا التطور الذى طرأ على إسبرطة تطوراً مبكراً سـابقاً لأوانه ، ولم تكن السمـة المميـزة لتاريخ الحضـارة الهلينية خلال عصر التـوسع فيما وراء البحار ، هى تلك الصبـغة العسكرية التى اصطبغت بها الحياة الإسبرطية فى نهاية عهدها ، بل كانت ذلك الازدهار الذى تسنى قبل ذلك لـلفن الإسبرطى ، رغم أنه فى هذا العـصر ذاته ، كانت مطالب المدن الدول الهـلينية ، شأنها شأن جـميع المنظمات التى تسفر عن نتائج فعالة ، شديدة الوطأة على كواهل المواطنين . كانت هذه تقضى بطاعة القـوانين المحلية ، وبالخضوع للتدريب العـسكرى وقواعده الصارمة ، وتتطلب اسـتعداد الفرد للتضـحية بحياته فى ميـدان القتال من أجل دولته ضد خصومها .

وقد يعنى ذلك القتال دفـاعا عن قضية خاسرة غاية الخـسران . فقد كان الشاعر الآثينى سوفوكليس Sophocles من بين قواد الحملة الآثينية التى جردت لإعادة غزو ساموس عام ٤٣٩ ق.م. ، كما اشترك الفيلسوف الآثينى سقراط فى القـوة التى أعادت غزو بوتـيدايا Potidaea فى بداية الحرب الآثينيـة البليبونيزية العظمى التى وقـعت بين عامى ٤٣١ ، ٤٠٤ ق.م. وقد أخضع الآثينيون أهل سامـوس وبوتيدايا ظلماً وعدواناً ، ومن ثم «كان هؤلاء على حق فى الكفاح من أجل حـريتهم» . وإنه لمما يسئ إلى مكانة هذه المنظمـة الأولى من منظمات الحـضارة الهلينيـة أن يضطر عبقـريان فاضلان نبيلان - وهما بسـبيل القيام بالواجبـات العادية الملقاة

على عاتق المـواطن - إلى القتال من أجل بلدهما فى وقت لم يـكن فيه هذا البلد فى جانب الحق ، وكـانت مثل هذه التجربة تنـذر بوقوع صراع بين الدولة والضمير . وكان هذا فى الواقع هو موضوع مأساة «**أنتيجونى**» Antigoné التى أخرجت قـبيل السنة التى اشـترك خلالهـا المؤلف فى خدمـة بلاده فى حربهـا ضد سامـوس . وتجلب **أنتيجونى** - بطلـة هذه المأساة - على نفسـها ، عامدة عقوبة الإعدام بـأن تعصى أوامر الحكومة التى كانت تقضـى بأن تمتنع عن دفن جثة أخيـها ، الذى اتهم بارتكاب جريمة شنعـاء ضد أمته وهى جريمـة الخيانة العظمى . وتؤثر **أنتيجونى** الموت على أن تتنكـر لإيمانها بأن واجبـها فى دفن جثـة أخيهـا بطريقة كريمة أحق بالطاعة من واجبهـا الذى يقضى بالإذعان للسلطات العامة . وفى سنة ٣٩٩ ق.م. أى بعد مضى اثنين وأربعين عاماً على هذا التاريخ، اتخذ سقراط هو نفسـه الموقف ذاته الذى وقـفه سوفـوكليس فى أثينا فى شخص بطلتـه . ومع ذلك فيمكـن القول بوجه عـام إنه حتى سنة ٤٣١ ق.م. المشئومـة ، كانت الخدمات التى تسديهـا المدن الدول الهلينية - باستثناء إسبرطة - إلى مواطنيها ، سواء بصفة فردية أو بصفة جماعية ، تفوق بالفعل الواجـبات التى فرضتها عليهم . فـإن المدينة الدولة ، بعد أن ساعدت الهلينيين على حل المشكلتين المتتاليتين المتعلقتين بالفوضى والضغط ، لم تجعل فى مقدورهم «تنسم الحياة» فحسب ، بل «وتنسمها عن سعة ووفرة» . إذ تمضى الفقـرة التى اقتبسناها فى الفصل السابق من

كتاب «السياسة» لأرسطو ، والتى تقول : «جاءت المدينة الدولة إلى الوجود ، لكى تجعل الحياة ممكنة» فتذكر أن «علة وجود هذا النظام هو أنه يجعل الحياة جديرة بأن يحياها الناس» . ولو أن أرسطو كان يكتب قبل التاريخ الذى سطر فيه عبارته الأخيرة بنحو مائة عام لكان قد وجد من الحقائق ما يثبت أيضاً صحة ما ذهب إليه . فالحقيقة أن المدن الدول الهلينية قد أتاحت بالفعل لأفراد الجنس البشرى ، طوال مدة لا تقل عن ثلاثة قرون تنتهى بعام ٤٣١ ق.م. مجال الانطلاق والحافز على الانطلاق أيضاً .

أتاحت للأفراد الانطلاق بأن حررتهم من قيود «عبادة الطبيعة» ، وعلى رأسها تلك القيود الشديدة الوطأة التى تتمثل فى عبادة «الطبيعة» فى صورة الأسرة . وحياة الأسرة إنما تغلل البشرية بقيود «الطبيعة» غير الإنسانية . وفى أحضان الأسرة ، يفقد بنو البشر شخصياتهم المستقلة التى تتميز بفكرها وإرادتها الخاصة ، فهم لا يعدون سوى أفرع شجرة أسرية ، لا تمثل بدورها غير فرع آخر من شجرة الحياة المتطورة التى تضرب جذورها فى أغوار النفس غير الواعية .

وفى الثلاثية التى كتبها الشاعر المسرحى الآثينى أيسخليوس Aeschylus والتى تدور حول قصة «آل أتريوس» Atreus - وقد أخرجت لأول مرة عام ٤٥٨ ق.م. تقف على تصوير درامى للصراع المرير الذى خاضه أحد الأفراد من أجل الخلاص من المأزق النفسى الذى جرته إليه واجباته العائلية ، وكيف أنه تحرر من هذه المحنة

العصبية التى نزلت به - دون وجه حق - عن طريق تدخل إنسانى كريم من جانب مدينة دولة هبت لمساعدته . وتدور القصة حول أسرة عمد أفرادها إلى قتل ذوى قرباهم ، وكيف أنه قد ترتب على ذلك أن وجد هؤلاء الذين كتبت لهم الحياة ، وجدوا أنفسهم حيال التزامات جبرية فادحة لا سبيل إلى التوفيق بينها . فإن الإله أبولو يأمر أوريستيس Orestes بأن ينتقم لموت أبيه أجاممنون Agamemnon بذبح قاتلة أبيه كليتيا يمنسترا Clytaemnestra ، زوج أجاممنون وأم أوريستيس ، وعند ذلك تضطهد إلهات الانتقام Erinyes أوريستيس ، دون رحمة أو شفقة لأنه أزهق أشد النساء قربى إليه . وإلهات الانتقام هن بمثابة تشخيص أسطورى لشعور الإنسان بالذنب . وفى داخل الحلقة المفرغة من الواجبات العائلية المتعارضة المتناقضة ، لا يجد أوريستيس أمامه من سبيل إلى الخلاص من محنته المروعة ، برغم أن المنطق والعقل كانا يقضيان بأنه لم يكن مجرماً آثماً ، بل ضحية . ويتم له الخلاص على يد الإلهة أثينا Athènè التى تعد تشخيصاً أسطورياً للمدينة الدولة الآثينية ، إذ تتمكن أثينا من إقناع إلهات الانتقام بقبول الحكم الذى تقضى به هيئة من المحلفين الآثينيين ، وعندما تتعادل أصوات المحلفين بين الجانبين المتخاصمين تدلى أثينا - باعتبارها رئيسة المحكمة - بصورتها المرجح مؤثرة جانب الرحمة والعدل.

كان من شأن قانون المدينة الدولة ، بل والخدمة العسكرية فى ظل المدينة الدولة ، أن حررا الأفراد بالفعل من عبوديتهم القديمة للأسرة ،

ولكن ثمن ذلك كـان دخولهم فى عـبودية من نوع جـديد هى العبـودية للمدينة الدولة . وقـبل أن يحل عهد أيسخيلوس بأثينا كانـت « المدينة الدولة » قد قضت فى هذه المسألة لصالح الفرد ، غير أن العهد بذلك لم يكن قـد تقادم إلى الـحد الذى يجـعل من المـوضوع الذى دارت حـوله مسرحية أوريستيا Oresteia موضوعاً مبتـذلاً أو غفلاً من المعنى بالنسبة لجـمهـور النظارة الآثينيـين فى القـرن الخامس . وفى لاتيـوم Latium الواقعة على الحـافة الغربية لعالم هلينى مطرد الاتسـاع ، خاضت الأسرة غمار معركـة أشد هولاً عند مؤخرتها دفاعاً عن حقـوقها البدائية الأولى . ولقد احتـفظ رب الأسرة خلال تاريخ القانون الرومانـى الطويل ، بكثير من حقوقه الاسـتبدادية القديمة على زوجه وأبنائه البـالغين حتى فى ظل مجموعة القوانين المعدلة الأخـيرة التى أمر بوضعها الإمبراطور جستينيان Justinian فى القرن السادس من الـعهد المسيـحى ، أى بعد أن تعرض القانون الرومانى طوال سبعة قرون للتأثير الإنسانى للفلسفة الهلينية وطوال قرنين للتأثير المهذب الرقيق للديانة المـسيحية . وخلال الجانب الأعظم من الرحلة التى قطعهـا التاريخ الرومانى ، كان المواطـن الرومانى البالغ من الذكور يعد فى واقع الأمر عبداً لأبيه إلى اليوم الذى يموت فيه الأب، بيد أن ثمـة موضعاً واحـداً كان هذا الابن العبـد يعتبر فـيه ، وذلك منذ تأسـيس الدولة الرومانيـة ، من الأحرار وهذا المـوضع هو المعـسكر . فعندما كان يجند كل من الأب والابن ، يصبح الابن نظير أبيه باعتبارهما أخوين فى السلاح فى خدمة الدولة .

وبالإضافة إلى أن المدينة الدولة قد أتاحت للأفراد مجال الانطلاق، فإنها أتاحت لهم كذلك الحافز عليه . فهى عند تحريرها لهم من عبوديتهم القديمة العهد لأسرهم ، لم تحاول أن تمحل حياتهم وتجدبها بأن تحرمهم من مشاعر الألفة التى هى مصدر سحر الحياة بين أحضان الأسرة. كانت المدن الدول فى حد ذاتها مجتمعات تبلغ من الصغر الدرجة التى تجعل فى إمكانها ، إلى حد بعيد ، أن تصرف شئونها - كما تفعل الأسرة - عن طريق الاتصال المباشر بين أفرادها . وبطبيعة الحال ، فإنه مهما تناهت حدود الحياة السياسية فى الصغر ، فالقانون يبدو جامداً جافاً لا علاقة له بالأشخاص إذا ما قورن بالعرف السائد بين أفراد الأسرة ، وهكذا تبدو الحرب أيضاً إذا ما قورنت بالأحقاد والمنازعات الأسرية . ومن ناحية أخرى فإن المدينة الدولة الهلينية ، كانت قبل العصر الإمبراطورى تتمتع فى العلاقات بين أفرادها - على خلاف ما اتسمت به العلاقات الإنسانية فى الإمبراطورية الرومانية أو ما تظهر عليه هذه العلاقات فى الدول الغربية الحديثة من جمود شديد - بمثل تلك الألفة ومشاعر القربى التى تنشأ بين أفراد أسرة كبيرة بعض الشىء . ويشير أرسطو إلى أنه لا ينبغى أن يزيد جمهور المواطنين على الحد الذى يمكن فيه «لصوت مناد ليس لديه مكبر للصوت» (Kèryx mè stentoreios) أن يبلغ مسامع الجماعة كلها . ومن الحقائق التاريخية الثابتة أن قلة من المدن الدول الهلينية - وربما لم تكن هذه تعدو أثينا

وسرقوسة وأكراجاس Akragas (أجريجنتوم Agrigentum) ثم روما فى نهاية الأمر - كانت تضم جماهير من المواطنين تتجاوز الحد الذى رسمه أرسطو . ولم تكن إسبرطة تشذ عن هذه القاعدة ، فإنه على الرغم من أن أراضيها أصبحت تشغل بعد غزوها لمسينا ما يقرب من خمس مساحة شبه جزيرة البيليبونيز، إلا أن جميع سكانها فيما عدا نسبة ضئيلة منهم كانوا من التابعين Perioeci أو أسرى الحرب Heilotes . ويقال إن الأقلية المسيطرة من المواطنين الإسبرطيين الذكور البالغين الذين كانوا فى سن التجنيد ، كانت تقدر بخمسة آلاف جندى وقت غزو الإمبراطور الفارسى كسركسيس Xerxes لبلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوربية (٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م.) ، ولكنه يبدو أن هذا التقدير إنما ينطوى على بعض المغالاة، لأن عدد الجنود الإسبرطيين لم يكن يتجاوز فيما يظهر ٣٥٠٠ جندى وقت أن خرجت إسبرطة مع أثينا للحرب عام ٤٣١ ق.م.

وليس أدل على عظم كل من مجال الانطلاق الجديد والحافز عليه ، اللذين أتاحتهما المدن الدول للأفراد فى العالم الهلينى فى عصر توسعه فيما وراء البحار (من القرن الثامن إلى القرن السادس ق.م.) ، من تلك الأمجاد التى حققها فى ذلك العصر بعض الأفراد الذين ذاع صيتهم فى شتى ميادين العمل والنشاط . فظهر فى ميدان الأدب شعراء من أمثال ممنرموس من كلوفون Mimnermus of Colophon وأرخيلوخوس من

باروس Archilochus of Paros وألكايوس Alcaeus وسافو Sappho من لسبوس Lesbos . وكانت المـوضوعات التى عالجـوها تدور حول تجارب الفـرد عندما يبـدأ فى الشعـور بذاتيته ، أى حـول لذات الجنس والخمر وعواقبهما ، وحول الولاء والأحقاد فى ميدان السياسة ، وإن كان يأتى على رأس هذه المـوضوعـات «مصيـر الإنسان الفـانى فى عظمتـه وحقارته» . وقد استطاع أرخيلوخوس أن يحرر نفسه تحريراً كاملاً بحيث وجد من نفسـه القـدرة على أن يتبـاهى بفشله فى أداء واجبـه الوطنى فى ميدان القـتال . وحدث ذلك إبان حرب عـدوانية جائرة كانت تخـوضها باروس ضد الوطنيين التراقيين فى جزيرة ثاسوس Thasos فى شمال بحر إيجة ، حيث أفلت أرخيلوخوس ذات مرة من موت محقق بأن ألقى عنه درعه . وبدلاً من أن يخفى وجهه خجلاً ، راح يفاخر فى إحدى قصائده بمسلكه الذى لا يليق بشـرف الجندية ، وإن الحقيقـة الماثلة فى أن هذه القصيدة مازالت بين أيدينا حتى اليوم إنما تدلنا على أن هذا الشاعر وجد من بين معاصريه بعض من يشاركونه شعوره ويعطفون عليه . وفى ميدان الفكر ، كان هناك العلماء الطبـيعيون الذين راحوا يتأملون طبـيعة الكون المـادية ؛ هل كانت الـمادة الأوليـة هى المـاء أو مادة أخـرى لا يمكن تحديدها أو كانت العقل ؟ كانت هذه هى المسألة التى ثار حولها النقاش بين ثاليس Thales وأناكسيماندر Anaximander وكلاهما من ميليتوس وبين أناكساجوراس من كلازوميناى Anaxagoras of Clazomenae .

هل كان الكون وحدة غير مميـزة عديمة الحركة ؟ أو أنه كانت به تعددية وتباين وحركـة وإيقاع ؟ هل كان إيقاعه تغـيير وفصل لعناصـر مندمجة تختلف عـن بعضهـا البعض من حـيث النوع ؟ أو هل نشأت الصـفات والأشكال الظاهرة أيضاً لجميع الأشيـاء المرئية عن مطر أبدى يتألف من مئات الآلاف من الذرات المنتظمة الشكل ؟ كـان هذا هو موضوع النقاش بين زينون من إليـا Zeno of Elea وأمبيذوكليس Empedocles من أكراجاس ولوكيبوس Leucippus من ميليتوس (؟) .

كمـا ظهرت هناك أيضـاً أسمـاء شهيـرة فى العلوم التطبيـقيـة مثل: أمينياس الكورنثى Ameinias ، وهو أول هلينى صمم سفناً تسـير بقوة ثلاث طبقات من المجدفين ، وثيودوروس Theodorus من ساموس ، وهو أول هلينى قام بصب قوالب من البرنز . بيد أن الهلينيين لم يكونوا قط من بين الرواد الأوائل فى مضمـار العلوم التطبيقية . فـقد كانت هذه حرفة يحتقرونها ، وامتد احـتقارهم لها إلى معظم ضروب العمل اليدوى الأخرى فيمـا عدا الزراعة . فلم يهتمـوا مثلاً بفن طلاء الزهريات ، وهو الفن الذى يعتبر فى نظرنا أجمل ما تفتقت عنه عبقريتهم الفنية . كما أن أساتذة الفنون الجميلة العظام لم يكونوا يتمتعون بمكانة اجتماعية كبيرة ، ولم يشـهد التاريخ الهـلينى ذلك الازدواج المثـمر بين العلوم التطبـيقـية والعلوم البـحتة الذى كـان العامل فى ازدهار هذيـن الميدانين فـى العالم الغربى الحـديث منذ القرن السـابع من العهد المـسيحـى . كانت العلوم

الهلينية منذ بداية التاريخ الهلينى حتى نهـايته تميل إلى الناحية النظرية لا إلى الناحية التجـريبية . فميادين الرياضيات والفلسـفة والشعر كانت هى الميادين التى اطمأن إليها الهلينيون ولم يشعروا نحوها بغرابة أو نفور .

ولا عجب أن أمجاد الهلينيين فى هذه المـيادين خلال عصر التوسع الحضارى الهلينى فـيما وراء البحار بلغت شأوا بعـيداً ، حدا بهم إلى أن يرفعوا تلك المنظمة السـياسية التى أطلقت العبقرية الفـردية من عقالها ، إلى مراتب الآلهـة . وفي هذه الأثناء كانت عبادة قـوة الإنسان الجماعـية المجـسمـة فى المدينة الدولة قـد حلت فى واقع الأمر مـحل «البانثـيون» الأوليمـبى أو مجموعـة الآلهة الأوليمبـية باعتبـارها الديانة الأولى للعالم الهلينى ، وإن لم يعلن عن ذلك صـراحة أو يعتـرف به رسميـاً . وكان المواطنون فى المدن الدول يعبدون مدنهم تحت قناع الآلهة القديمة (وكان بعضها من بين الآلهة الأوليمبـية والبعض الآخر أقدم من هذه عهداً) التى كانت تجند للقيام بهذا الدور . وقد نجد من آن لآخر أن الإله المجند من الذكور . فاتخذ الكورنثيون الجوابون لـلبحار ، على سبيل المثال ، الإله بوسيدون Poseidon إله البحار الأوليمبى ، إلهاً حارساً لمدينتهم . بيد أن معظم المدن الدول ، كانت تمثلها إلهـات حارسات ، فقد مثلت أثينا على سبيل المـثال الإلهة «أثينا بوليوخوس» Athênè Poliüchus (أى أثينا حـارسة المـدينة) ، ومـثلت إسـبرطة الإلهـة «أثاناخالكيأويكوس» Athànà Chalcioecus (أى سيـدتنا سليلة البـيت البرنزى» ، ومـثلت

أيجينا Aegiua الإلهة «أثانا أفايا» Athànà Aphaia ، ومثلت أرجوس Argos الإلهة هيرا Hera ، ومثلت أفـسس الإلهة أرتيميس Artemis وهلم جرا. وكانت الإلهة الحارسة تمثل القوة الجماعية للمواطنين الذكور فى المـدينة الدولة . ويمكننا القـول ، إذا ما تحـدثنا بلغة علمـاء النفس الغربيـين فى العصر الحـديث ، بأن المواطنين إذ يعـبدونها إنمـا كانوا يعبدون أرواحهم الخـلاقة الجماعية . وكانت روح الكورنثيـين المتجسدة هى أفروديت Aphrodite .

ولقد كـانت المدينة الدولة أحق بالعبـادة من الآلهة الأوليمبـية التى شكلت على صورة البرابرة البشر ، وبئس حال النفس البشرية المتحررة، إن هى لم تهتد إلى موضع حقيق بـالعبادة على نحو أو آخر خارج نطاق ذاتها . كانت المدن الدول جـديرة بأن تنال التكريم والتقديس من جانب مواطنيهـا ، نظراً لأنها قد أمدتهم بظروف اجـتماعية حـفزتهم على إبراز مواهبهم الكامنة . ولكن ، هل كان لمثل هذه الجماعـة السياسية المحلية التى كانت تتـربص بجاراتها ، وتتـربص بها جاراتـها ، أن تحظى بكل ذلك الولاء الذى طالبت به واستحوذت عليه ؟ وهل كانت قادرة فى واقع الأمر على أن تتيح للـفرد المجال لإبراز أسمى قـدراته ، وعلى أن تحفزه على أن يظهر أكرم ما فى نفسه ؟ هاتان همـا المسألتان اللتان كان يتوقف عليهما مسـتقبل الحضارة الهلينية . وعلى خلاف حـال الهلينيين أنفسهم خلال عـصر التـوسع فيمـا وراء البحـار ، فإننا نعلم أى مسـتقبـل كان

ينتظرهم ، وفى إمكاننا ، ونحن نحكم بالبصيرة التى تتأتى للمرء بعد وقوع الحادث المعنى أن نتبين خطأين جسيمين فى النظام الذى أودع فيه الهلينيون كل إمكانياتهم وأولوه عظيم ثقتهم .

كانت نقطة الضعف الجوهرية التى تكمن فى نظام المدن الدول فى العالم الهلينى هى كثرتها وتعددها ، بدلاً من اقتصارها على مدينة واحدة. ولو أن تعداد بنى البشر فى العالم لم يكن يربو على الحد الأقصى الذى سنه أرسطو لعدد المواطنين الذين ينبغى أن تضمهم المدينة الدولة ، لكان من الممكن أن يوجد مثل هذا الشيء المعروف باسم «المدينة الدولة» ولأصبح هذا النظام السياسى أعظم النظم الإنسانية قاطبة . وبطبيعة الحال ، كان المجموع الكلى للسكان فى العالم الهلينى وحده ، دون أن ندخل فى حسابنا سكان البلاد المجاورة الأخرى ، يتجاوز فى واقع الأمر هذه الحدود إلى مدى بعيد ، حتى فى بداية تاريخ هذا العالم . وعلى ذلك فلم يكن هناك قط ذلك الشيء المعروف باسم «المدينة الدولة»، فى واقع الحياة . فقد كانت هذه العبارة فى صيغتها المفردة شيئاً معنوياً خيالياً مجرداً . والواقع أن «المدينة الدولة» ظلت دائماً تحمل صيغة الجمع حتى الفصل الأخير من التاريخ الهلينى ، عندما جعلت روما من نفسها المدينة الدولة للنصف الغربى من عالم هلينى اتسعت رقعته أيما اتساع ، بأن محت بعض شقيقاتها من الوجود وهبطت بالبقية الباقية منها إلى مرتبة المدن الإقليمية . وحتى ذلك التاريخ -

وكانت آنذاك فرصة إنقاذ هذه المنظمـة قد أفلتت كلية - قامت هناك مدن دول ذات سيادة ، احتدمت بـينها حروب لا تنقطع . كانت كل دولة من المدن الدول الناشئة قد ألفت خلال الفصل الأول من التاريخ الهلينى عادة شن الحـروب على سكان الجـبل الذين يكتنفـونها . وبعـد أن تم قهـر سكان الجبل واصلت كل مـدينة دولة تنمية عادة شن الحـروب بالدخول فى معـارك مع غيرها من المـدن الدول الأخرى التى تقع على مـرماها . وهكذا أصبح نظام المدينة الدولة - فى صيـغة الجمع - يحمل بين ثناياه عنصر الحرب ، وذلك حتى اتخذت خطوات فعالة لتوطيد السلام .

والمثلب الثـانى فى نظام المدن الدول هو أن فـئة واحدة من فـئات المجتمع هى التى كانت تتمتع على نحو كامل تام بميزتى مجال الانطلاق والحافز على العمل اللتين أتاحتهما المدن الدول لمواطنيها ، وكان هؤلاء هم فئة المواطنين الذكور الذين كان يتسع وقـتهم لحضور السوق العامة . حيـث كان يتم تصـريف شئـون الدولة ، ثم العمل أيضـاً فى الحـقول والمصانع حـيث تتوافر للمجتـمع أرزاقه . ولم يكن هذا بحكم الواقع لا بحكم القانون ، فى صالح هؤلاء المواطنين القرويين الذين تقع أراضيهم على مسافـة بعيدة من المركـز البلدى للدولة . ولكن الفئتين الـلتين عاد عليهـما قيام المـدينة الدولة بأفدح الضرر كـانتا النساء (من دون طبـقات المجتمع جـميعاً) والعبيـد . كان للنساء والعبيد فى ظل الحـياة البربرية التى سادت عصـر الفوضى اللاحق للحضارة الميناوية والسـابق للحضارة

الهلينية ، كمـا جاء فى الأوديسة مكانهم فى مجتمع ذلـك العصر . وما من شك فى أن أسلوب الحياة داخل المدينة الدولة الهلينية ، خلال القرن الثامن ق.م. وما تلاه ، كان يمثل خطوة حضارية تقدمية واسعة ، إلا أن ركب التقدم هذا خلف وراءه النساء والعبيد .

ولقد أضـفى النظام الاجتماعى للحـياة فى المدينة الدولة على حـياة الرجـال طابعـاً جديـداً من الطرافـة والرونق بحـيث لم تعد الأمـهـات والزوجات والبنات يبلغن فى مستواهن العقلـى مستوى الرجال . ومما له عظيم المغـزى أن اللفظة المهذبة التي كـانت تطلق على العاهرة فى ذلك العصر هى «الرفـيقة» (Hetaira) . وكان يتـحتم أن تكون للعـاهرة فى المدينة الدولة الهلينية ، مـثل شقيقتها فى اليـابان فى العصر الحديث ، مواهب عقلية بالإضافة إلى جمال القوام وفتنته . كما ينبغى أن يكون فى استطاعـتهـا أن تساير عـملاءها من الرجـال فى ميولهم الذهـنية . ومن الجدير بالذكـر أيضاً أن المغامرات العـاطفية المثـالية لم تكن تلك التى تقـوم مع المـرأة بل مع الغلمـان ، إذ أن الرأى العـام الهلـينى لم يكن يستنكر علاقات مضاجعة الجنس . وعندما كانت المرأة تقتحم بين الحين والآخر عالم الرجل ، لا باعتـبارها رفيقة بل عن جدارة واستـحقاق كأن تحرز قصب السبق فى ميدان من الميـادين التى يستأثر بها الرجال – مثل قرض الشعر – فـقد كانت تنزع بدورها إلى علاقات مضـاجعة الجنس ، الأمر الذى يدل علـى أن المرأة العظيمـة المواهب نفـسها لـم تكن تجد

السعادة فى الإشباع الطبيعى لغرائزها الجنسية ، لأنه لم يكن فى استطاعتها أن تصبح زوجة أو حتى عشيقة ، على أساس من المساواة الحقيقية بينها وبين الرجل . ويصور المؤرخ **ثوكديديس** Thucydides **ابن أولوروس** Olorus السياسى الأثينى **بركليس** Pericles ، على أنه أشار فى خطاب التأبين الذى ألقاه فى ذكرى الآثينيين الذين لقوا مصرعهم فى ميدان القتال فى السنة الأولى من الحرب الآثينية البليبونيزية العظمى بين عامى ٤٣١ ، ٤٠٤ ، أشار على النساء الآثينيات فى لهجة جافة مقتضبة بأن واجبهن الأول والأخير هو الانزواء والعمل على إنجاب عدد آخر من الأطفال ليعوضن الخسارة فى الأرواح التى تكبدها المجتمع من جراء هذه الحرب . أما إسبرطة - وكانت إسبرطة دائماً غريبة الأطوار وسابقة لعصرها أيضاً - فقد كانت المدينة الدولة الوحيدة التى استعادت فيها المرأة ، خلال عصر التوسع الهلينى فيما وراء البحار ، بعض ما يشبه ذلك الوضع الاجتماعى الذى كانت تتمتع به فى جميع البلاد إبان عصر البربرية والفوضى السابق على العصر الهلينى . وقد جاء هذا الكسب الذى نالته ، نتيجة لهبوط ذلك الثقل الكبير لنظام «**ليكورجوس**» على كواهل المواطنين الإسبرطيين الذكور. وكانت الفتيات الإسبرطيات يخضعن للتجنيد أيضاً ، غير أن النسوة المسنات كن يعفون من ذلك فى سهولة ويسر . وفى هذا الصدد ، جاء **أرسطو** بتعقيب لاذع حكيم ، إذ قال إن الشعوب النزاعة إلى القتال والحرب من دأبها أن تقع فريسة : «لنظام تجنيد النساء الرهيب» ، (كما أعرب عن ذلك **جون نوكس** John Knox أيضاً) .

وكان من شـأن هذه المثالب التى بدت على المـدن الدول الهلينية ، أن أصبحت هذه المدن عاجزة عن القيام بدور الإطار الذى يحيط بأطراف الحيـاة ، كما أصـبحت غيـر قادرة على أن تستـأثر وحدها بحق العـبادة والتقديس . ويمكن لنا أن نتـصور جسامة هذا العيب إذا ماتـبينا الأهمية الكبرى التى اكـتسبتهـا المنظمات المخالفـة لنظام المدينة الدولة ، والتى كانت قائمة بالفعل أو التى ظهـرت إلى الوجود فى العالم الهلينى خلال القرون الثـلاثة : الثامن والسابع والسادس ق.م. وبالنظر أيضـاً إلى عدد ما اجتلب مـن هذه المنظمات من خارج العالم الهلينى . وبدراسـتنا لهذه المنظمات المكملة ، تتضح لنا حاجـات ثلاث عجزت المدينة الدولة عن الوفاء بها ، أو هى لم توفرها ، على الأقل بالقدر الـمرجو ، فإن طبقات المجتمع التى لم تتمتع بنعم الحياة التى أتاحتها المدينة الدولة ، وبخاصة العبـيد والنسـاء ، كانت فى حاجـة إلى التعويض النـفسى عن ذلك فى مجـال آخر . كما أن كـافة طبقات المـجتمع كانت فى حـاجة إلى إطار للحياة أرحب من إطار دولة هينة الشأن تعيش فى أفق ضيق . لقد كانت فى حاجة لأن تحـيا جانباً من حياتهـا فى عالم أوسع نطاقاً ، وفى إطار اجتماعى له صفـة العمومية البانهلينية لا الإقليمية المـحدودة الضيقة . ثم إن الطبقات جميعها كانت تفـتقر إلى التجربة الدينية وإلى الإشباع الدينى اللذين لم يتـيسرا لهـا ، سواء عن طريق عبـادة المدينة الدولة أو عـبادة مجموعة الآلهة الأوليمبية . واستطاعت معظم هذه المنظمات التى تخالف

نمط المـدن الدول والتى كان لهـا فى ذلك العصـر سلطان على مشـاعر الهلينيـين وأخيـلتهم ، أن تفى بأكـثـر من ضرورة واحـدة من بين هذه الضرورات الثلاث .

ويمكننا الاستـدلال على عظم الحاجـة التى كان يشعـر بها العبـيد والنساء إزاء ذلك التعويض النفسى ، من تمسكهم الشديد بمواصلة إحياء طقوس «عبـادة الطبيعة» تلك العـبادة التى طغت عليها أول الأمـر - كما يدلنا تاريخ الطقوس فى المدن الدول - عبادة مجموعة الآلهة الأوليمبية ، ثم عبـادة الإلهات الحارسـات للمدن الدول . بيد أن عـبادات «الطبيـعة» المستـهجنة هذه لم تشبع النهم بالقدر الكافـى ، وهكذا أدت هذه الحاجة التى ظلت ماثلة ، إلى أزدهار أسرار إليوسس المحلية (نسبة إلى إليوسس Eleusis) وذيوع عـقيـدة دخـيلة ألا وهى عـبادة إلـه الطبيـعـة الطراقى ديونيسوس Dionysus (ويعـرف فى مــواضع أخـرى باسم باخوس Bacchus) . كانت الأسرار التـى تقام طقوسها فى إلـيوسيس Eleusis بأتيكا Attica ، تمثل إحدى عبادات «الطبيـعة» المحلية التى قدر لها أن تصبح الديانة السـائدة فى المنطقة ، وكان يسـمح بالدخول إليهـا للنساء والعبـيد فى حدود ضيـقة ، أما الأجانب فـقد كانوا يقبلون دون قـيد أو شرط . وإن ضآلة مـعلوماتنا عن طقوس إليـوسيس وعن كنهها لتـحملنا على الاعتـقاد بأنه ربما كان مـثل جفاف الحـبة وعودتها إلى الحـياة من جديد حولا بعد حول ، يضرب للداخلين فى هذه العقيدة على أنه ضمان

لوجود حياة أخرى للإنسان ، على خلاف الخلود المعنوى الذى يئوول إلى الأسرة أو إلى الدولة . ولقد استتب الأمر لعبادة **ديونيسوس** فى العالم الهلينى برغم ما لقيه **ديونيسوس** من مقاومة فاشلة حفظت ذكراها تلك الأساطير التى تروى قصة الهزيمة التى لحقت لفترة من الزمن بهذا الإله الغازى على يد خصميه **ليكورجوس Lycurgus** وبنثيوس Penthe-us . ولنا أن نتصور أن مظاهر عبادة **ديونيسوس** التى أثارت نفور بعض النفوس الهلينية، كانت هى ذاتها المظاهر التى اجتذبت نفوساً أخرى ، وقد أفردت هذه العقيدة دوراً كبيراً للمرأة . وكانت مخرجاً للعواطف الجامحة الكامنة فى أغوار النفس اللاواعية .

وتبدو الطقوس والمذاهب التى وضعها **أورفيوس Orpheus** بمقارنتها بالأسس الفلسفية التى وضعها **فيثاغورس Phythagoras** وكأنهما تمثلان المرتبتين الدنيا والعليا لعقيدة واحدة مجتلبة ، كالعقيدة الديونيسية ، من مكان ما خارج العالم الهلينى . وإن المذهبين الأورفى والفيثاغورسى – من حيث تعاليمهما وأهدافهما والشروط التى يفرضانها لبلوغ هذه الأهداف – ليتفقان فى كثير من النقاط مع المعتقدات التى كانت سائدة فى الهند فى العصر ذاته . وليس من المعقول أن هذا التشابه قد جاء محض صدفة واتفاق . والغالب أن سهول الإستبس الأوراسية العظيمة كانت هى المصدر المشترك الذى استمدت منه كل من الهند وهيلاس هاتين الظاهرتين الدينيتين المتماثلتين . ففى القرنين

الثامن والسابع ق.م. أدت إحـدى الانتفاضات المؤقتة لـلبدو الأوراسيين إلى انحدار بعضهم صـوب الجنوب الشرقى إلى حوض نهر هندوس In-dus ، واتجـاه البعض الآخـر إلى الغرب حـتى حوض نهـر الدانوب ، وربما كان هؤلاء من حملة عقيدة مازالت قائمة فى شمالى آسيا حتى يومنا هذا . وخـلاصة تـعاليم هذه الـعقـيـدة هى أن هذا العـالم ليس الوطن الحقيقى للإنسان ، وأن الحياة فى الجـسد ليست هى مصيره الأسمى وأن الهدف الحقيـقى للنفوس البشرية هو التخلص من قـيود الوجود ، بيد أنه دون بلوغ هذا الهدف الأسمى مـشقة بالغة ، لأن الوجود لا يقـتصر على أجل واحد ، بل هو سلـسلة مريرة متـصلة من التجسـدات التى لن تكف عن التلاحق إلى ما لا نهاية حتى يتضح للمرء طريق الخلاص وتتوافر له العـزيمـة أيضـاً على أن يسـلك هذا الطريق . وقـد قـام **فيثاغورس** ، الفيلسـوف والنبى الذى انحدر من سـاموس Samos بتكوين مجتمع فى «هيلاس العظيـمة» عند «أصبع» إيطاليـا ، مهمـته وضع هذه المعتـقدات موضع التنفيذ . وكانت هذه الجماعـة فى طابعها مزاج بين جماعة أخوية دينية بدائيـة ، ومعهد علمى غـربى حديث. وكانت أقـوال «المعلم» هى الصدق بعينه فى نظر تلامـيذه . ويشبه **فيثاغورس كالفن** Calvin ، فى أنه كان يتمتع بالسيادة على حكومة كانت تدبر شئون مدينة دولة ، ولكنه يخالفه فى أنه أثار حركة ارتداد ثورية فى كروتون Croton كسرت شوكة الجماعة الفيثاغورية وقضت على من عاش من أفرادها بالتشريد فى المنفى

. ولو أن فيثاغورس وأتباعه أصابوا من النجاح فى الميدان السياسى ما أصابوه فى الرياضيات ، لكان التاريخ الهلينى قد اتخذ وجهة أخرى تدعو إلى الدهشة غير الوجهة التى اتخذها بالفعل فى مرحلته التالية .

لم يكن أنبياء هيلاس الذين ظهروا فى الربع الثانى من العصر الألفى الأخير ق.م. آباء روحانيين يبلغون مرتبة معاصريهم العظماء الذين تألقوا فى كنعان وإيران ، فقد جمع فيثاغورس وإمبيذوكليس Empedocles على خلاف هؤلاء ، بين دور النبى والفيلسوف والعالم الطبيعى ، ولكنهما اختلفا أيضاً مع أشعياء النبى ولعلهما اختلفا أيضاً مع زرادشت Zarathustra فى أنهما جمعا بين هذه وبين دور الساحر البدائى أيضاً . ولعل النبى الكريتى إبيمينيديس Epimenides لم يكن يزيد على كونه عالماً فقيهاً بالنقوش الدينية القديمة ، ومما أساء إلى سمعة فقهاء المذهب الأورفى ، انحدارهم إلى هذا المستوى البدائى واستغلالهم سذاجة عملائهم فى ابتزاز أموالهم . وهكذا ضلت الحركة الأورفية كما ضلت الحركة الفيثاغورية طريقها إلى مصيرها الواضح فى أن تصبح جماعة دينية بانهلينية ، وقد استطاع وحى دلفى فى وسط اليونان أن يفى بمثل هذه الحاجة التى كان يشعر بها الهلينيون فى ذلك العصر ، وهى قيام منظمة دينية بانهلينية .

وكانت تشترك فى معبد دلفى ، الإلهة التى كانت تشغله فى الأصل وهى الإلهة البدائية «الأرض» بالإضافة إلى إلهين دخيلين تلا أحدهما

الآخر هما «أبولو» الأوليمبى و «ديونيسوس» الطراقى ، وكانت العـرافة تستمد وحـيها من هذا الحلف المحلى الذى قام بين ثلاثة أوجـه للطبيعة الإلهيـة ، وهى ألوهية الطبيعـة الممثلة فى «الأرض» والقوة الإلهـية التى تحكم الكون ممثلة فى أبولو ، والألوهية الشيطانية للنفس الـلاواعية كما تظهر فى ديونيسوس . وكـان يعلن عن الوحى باسم الإله أبولو بوساطة نبية فى حالة غـيبوبة واستغراق ، ثم تقوم هيئـة كهنة دلفى بنظم أقوالها فى أبيات سداسية الوزن قبل إلقائهـا على الجمهور . وهذا الجمهور الذى كان يضم حكومات مدن دول كما كان يضم أفراداً على حد سواء ، يبغى الحصـول على معلومات عن المـستقـبل ، ولم يكن فى وسع الوحى أن يتجاهل بأيـة حال هذه الرغبة الفجـة . وسعى الوحى إلى صون سمـعته خشية عدم ثبوت صحة أقواله ، بأن أصبح أستاذاً لا يبارى فى الغموض، حتى وقع عـشية غـزو الإمبـراطور الفارسى أكسركسيس لليونـان بالقارة الأوروبية ، فى خطأ التنبؤ باحتمـال انتصار الغازى الجبار ، وجلب على نفسه العار بأن نصح سائلى مشورته بعدم المقاومة . وحاولت كهنة دلفى أن تستـعيـد مكانتها المنـهارة بأن تروج لأقصـوصة تقـول بتدخل أبولو العجيب لمحاربة فرقة من فرق الحملة الفارسية التى كانت فى طريقها إلى معبده ، بيد أن هذه الأسطورة لم تنطل على أحـد خاصة فى ذلك العصر الجديد الذى انبلج فيه فجر المذهب العقلى ، وعلى أية حال ، فقد كانت دلفى قد أدت إلى هذا الوقت رسالتها الحقيقية كاملة . ولم تكن هذه هى

الإدلاء بنبوءات غامضة، بل بذل المشورة السديدة. هل ندخل فى حرب؟ متى ينبغى علينا أن نقوم بانقلاب ؟ أين نعثر على مستعمرة فيما وراء البحار ؟ كانت الكهانة الدلفية تجيب عن مثل هذه الأسئلة فى حكمة فى الغالب الأعم . وكانت حكمتها وليدة التجارب الطويلة والمعلومات الصادقة . وقد لعبت دلفى باعتبارها ناصحا بانهلينيا أمينا ، دوراً مجيداً فى تاريخ المجتمع الهلينى فى عصر التوسع فيما وراء البحار .

سبق أن ذكرنا أن دلفى كانت ملتقى واحد من الاحتفالات الدورية البانهلينية الأربعة . والمرجح أن هذه الاجتماعات قد نشأت عن أصل دينى ، شأنها شأن المعابد التى ترتبط بها ، بيد أنها ما لبثت أن تحولت إلى مباريات فى مضمار البطولات الفردية ، سواء فى الفنون الجميلة أو فى الألعاب الرياضية . وكانت جميع هذه الاحتفالات الأربعة مباحة لأى فرد حر بوسعه أن يبرهن على جدارته بلقب « هلينى » وعلى أنه أهل لأن ينتسب إلى الهلينيين . وتحتل هذه الاحتفالات مركز الصدارة بين جميع المنظمات البانهلينية من حيث تعبيرها عن الوعى الجماعى بالاشتراك فى حضارة هلينية واحدة . وكان لدى الهلينيين جميعاً تراث مشترك آخر يتمثل فى الأشعار الهومرية ، وكان لشيوع هذه الأشعار أن ظلت ماثلة الأذهان ذكرى مجتمع سابق لم يكن قد انقسم بعد إلى ذلك العدد الهائل من المدن الدول المتناحرة المتباغضة التى اقتسمت فيما بينها ، من جراء ذلك ، ولاء الهلينيين . وتعد من الخصائص

المميزة للحضارة الهلينية أنها استطاعت الإعراب عن وعيها المشترك بوساطة الشعر والرياضة لا بوساطة السياسة أو الدين .

ظل تاريخ الإلياذة والأوديسة ، بالصورة التى نعرفهما بها اليوم ، وحقيقة مؤلفها موضوع نزاع بين العلماء الغربيين فى العصر الحديث منذ نهاية القرن الثامن عشر ، ولكنه مما لا شك فيه أنه كان وراء هاتين الملحمتين الرائعتين ، تراث شعرى يرجع تاريخه إلى ذلك العصر الموغل فى القدم السابق على الحضارة الهلينية والذى وقعت إبانه الهجرة الجماعية Völkerwanderung ، والذى استمدت أيضاً كلاً من هاتين القصيدتين موضوعهما منه وأخذت عنه أكثر مشاهدها . ولابد أن هذا الشعر الملحمى، كان خلال معظم مرحلة التكوين التى مر بها خلال العصر المظلم من التاريخ الهلينى ، فناً يروى شفاها ، نظراً لأن فن الكتابة الذى كان شائعاً فى منطقة بحر إيجة خلال العصر المينوى ، قد اندثر هناك من جراء حالة الفوضى التى تجمعت عن الهجرة الجماعية ، ولم يسترده الهلينيون حتى القرن الثامن ق.م. ومما يذكر أن عالم بحر إيجة لم يستعر معرفته للقراءة والكتابة فى هذه المرة عن طريق إحيائه للحروف المقطعية الميناوية ، التى كانت مستخدمة فى كتابة اللغة اليونانية - بالإضافة إلى لغات أخرى - فى العصور الموكنية . فقد كانت هذه الحروف قد اندثرت تماماً وطواها النسيان فى جميع البلاد فيما عدا جزيرة قبرص . وفى غير قبرص تعلم الهلينيون القراءة والكتابة

باستعارة حروفهم الأبجدية من جيرانهم الفينيقيين فى كنعان . وبوحى من نظم الكتابة السومرية والمصرية العريقة الراسخة ، اخترعت فى النصف الأخير من العصر الألفى الثانى حروف جديدة على يد الفينيقيين والحيثيين وعلى يد الميناويين أيضاً ولم يضيع الحيثيون أو الفينيقيون قط حروف الكتابة التى ابتدعوها. وقد خفض الفينيقيون عدد الأحرف المستخدمة فى كتابتهم إلى الحد الأدنى بأن استخلصوا منها الحروف الساكنة ، واقتصروا فى الكتابة على هذه الحروف . بيد أن ميزة الإيجاز التى تفوقت بها الحروف الأبجدية الفينيقية على الكتابة المقطعية ما لبثت أن ضاعت إزاء فقدان الكتابة الفينيقية لعنصر الدقة ، نظراً لتعدد أوجه اختيار الأحرف المتحركة لكلمة لا تشتمل إلا على الأحرف الساكنة .
وكان التجديد الذى أدخله الهلينيون ، عندما استعاروا الأبجدية لكتابة اللغات اليونانية والليكية والكارية هو فصلهم للأصوات المتحركة وابتكار حروف لتحل محلها . وتضاءلت الخسارة الطفيفة التى نجمت عن ذلك فيما يتعلق بعنصر الإيجاز أمام ذلك الكسب الكبير الذى تحقق من ناحيتى الدقة والوضوح . وتعتبر هذه الأبجدية الهلينية ذات الحروف المتحركة ، أيسر وأدق نظام للكتابة اخترع حتى هذا التاريخ ، وهى بالصورة التى نقلها بها اللاتين لا تزال تستخدم حتى اليوم فى العالم الغربى الحديث . وجعل اختراعها فن الكتابة فى مقدور أى إنسان ، على خلاف الأثر الذى تركه الاختراع القديم لنظم الكتابة السومرية

والمصرية والصينية ، التى بلغت من التعقيد والصعوبة (وكانت تجمع بين العلاقات الصوتية التى تمثل حروفاً متحركة والعلامات القديمة التى تقوم مقام كلمات بذاتها) حداً لم يكن هناك مفر من أن تصبح معه احتكاراً فى يد حفنة من العلماء المتخصصين المحظوظين . وفى بواكير القرن الخامس ق.م. ، إن لم يكن قبل نهاية القرن السادس ، كانت معرفة القراءة والكتابة قد عمت أتيكا إلى الدرجة التى أصبح من الممكن معها أن يجرى أى استفتاء بأن يطلب من الناخبين كتابة اسم السياسى الذى يودون نفيه من البلاد على شقفة من الفخار .

وأمدت هذه الأبجدية المعدلة الهلينيين بنظام مشترك آخر له أعظم الأثر فى إذكاء الشعور بالتضامن البانهلينى . كما صادفت الأبجدية الهلينية - لميزاتها هذه - هوى فى نفوس جيران الهلينيين . فلم تلبث أن اتخذتها شعوب بلاد الأناضول غربى الصحراء الوسطى وشعوب إيطاليا حتى البندقية Venetia شمالاً ، بما فى ذلك هذه المدينة أيضاً ، وذلك فى كتابة لغاتها المحلية . وكان لتقبلهم طريقة الكتابة الهلينية أن أصبحوا قابلين للتشبع ببقية عناصر الحضارة الهلينية ، وبذلك مهدوا السبيل لتوسيع حدود العالم الهلينى عن طريق الدعوة السلمية بدلاً من الغزو القسرى والاستعمار .

الفصل الخامس

مواجهة خطر المنافسة الفينيقية والإترسكية فى الغرب

توقفت حركة التوسع فيما وراء البحار ، التى كان المجتمع الهلينى يجد فيها حلاً لمشكلة زيادة عدد السكان داخل بلاده الأصلية ، وذلك خلال القرن السادس ، أمام المقاومة الفعالة التى أبداها المتنافسون من أجل الفوز باستعمار شواطئ البحر الأسود وغربى البحر المتوسط ، التى لم يكن فى طاقة سكانها الوطنيين المتخلفين أن يقاوموا مقاومة فعالة عدوان أى من الحضارات الشرقية المتنافسة المطردة الانتشار .

وخلال القرون الأولى من العصر الألفى الأخير ق.م. عندما كانت الحضارة الهلينية بسبيلها إلى الخروج إلى الوجود فى حوض بحر إيجة ، باستغلالها هناك لحالة الفوضى التى نجمت عن انهيار المجتمع الميناوى الموكينى ، كان من حسن حظ هذه الحضارة الناشئة أنها لم تكن معرضة لأى ضغط من جانب أية مجتمعات مجاورة مماثلة لها . وكان انعدام

الضغط هذا ، شأنه شأن حالة الفوضى التى كان على النظام الجديد أن يجلبها ، تراثاً خلفه عصر البربرية السابق للعصر الهلينى . وكانت حركة الهجرة الجماعية Völkerwanderung قد محت الدول الكبرى من «الشرق» ، فى أوائل القرن الثانى عشر ق.م. بصفة مؤقتة . وفضلاً عن تحطيمها لقوة الموكنيين البحرية فى بحر إيجة وسحقها للإمبراطورية البرية الحيثية فى الأناضول ، فقد تركت مصر منهكة القوى بعد الجهد الذى بذلته فى صد هؤلاء البرابرة عن حدودها . وكان لنشأة هذا الفراغ السياسى أن أصبح فى الإمكان توطيد النظام من جديد فى حوض بحر إيجة وسورية وكنعان عن طريق تكوين مجتمعات سياسية جديدة على النطاق المصغر للمدينة الدولية . واستطاع المجتمع الجديد فى سورية وكنعان أن يبنى المجتمع الجديد فى بحر إيجة خلال الفصل الأول من تاريخهما . كان الفينيقيون قد ابتكروا الأبجدية ، وكتبت لهم الحياة بعد الهجرة الجماعية التى وقعت فى القرن الثانى عشر . واكتشفوا المحيط الأطلنطى ، ومازالت الحضارة الهلينية فى صراع مع عناصر الفوضى ، بيد أنه لم يكن أى من المجتمعات الفينيقية أو الفلسطينية أو اليهودية فى كنعان أو المجتمعات الآرامية فى سورية أو مجتمعات اللاجئين الحيثيين فى سورية وعلى جانبى جبال طوروس فى موقف يسمح لها بتهديد المجتمع الهلينى فى بلاده الأصلية ، وكل ما استطاع ممثلو الفينيقيين والحيثيين البحريين ، وهم الإترسكيون (Tyrrhanians) أن يفعلوه هو

التنافس مع الهلينيين فى مضمار السيطرة على البحر الأسود وغربى البحر المتوسط ، وفاز الهلينيون خلال القرنين الأول والثانى تقريباً من فترة التنافس هذه ، بنصيب الأسد من الغنائم التى كان هؤلاء المغامرون الشرقيون المتنافسون يسلبونها من الشعوب الوطنية المتخلفة .

وما إن أشرف النصف الأول من القرن السادس ق.م. على الانتهاء حتى كان الهلينيون قد خرجوا من المنافسة حول البحر الأسود بنصر حاسم . وكانت الآثار الوحيدة التى بقيت شاهداً على نشاط منافسيهم فى هذا القطاع هى عبادة «الآلهة الكبار» (كابيريم) الفينيقية فى جزيرة ساموتراقيا Samothrace الواقعة فى شمال بحر إيجة ، كذلك من كتبت لهم الحياة من سكان المستعمرات الإترسكية الواقعة على جزيرة ليمنوس Lemnos خارج مدخل الدردنيل مباشرة ، الذين لاذوا فى النهاية داخله ، وذلك فى موضعين على الشاطئ الجنوبى لبحر مرمرة . وفى غربى البحر المتوسط لم يتمكن الفينيقيون من الاحتفاظ بثلاثة مواقع رئيسية فى جزيرة صقلية بأقصى طرفها الغربى ، بينما انحصرت مواقع الإترسكيين على الشاطئ الغربى لإيطاليا بين «هيلاس العظمى» الواقعة عند «أصبع» و «ظهر قدم» إيطاليا من جانب وبين سلسلة من المواقع الهلينية المتقدمة ، التى أسستها فوكايا Phocaea وابنتها ماسيليا Massilia (مارسيليا Mar-seilles) ، والتى امتدت من الريفييرا الفرنسية إلى كوستا برافا Costa brava بكاتالونيا Catalonia من جانب آخر . وكان الشاطئ الشرقى

والشاطئ الجنوبى بأكملهما فى صقلية - التى تعد مفتاح السيطرة على الغرب - تشغلهما سلسلة متصلة من المدن الهلينية الاستعمارية .

وكان انتصار الهلينيين على خصومهم الفينيقيين الإترسكيين فى هذه المرحلة الأولى من مراحل المنافسة التى قامت بينهما ، يرجع إلى تمتعهم بميزات ثلاث ، هى التفوق العددى واحتلال قاعدة عملياتهم لموقع أفضل من موقع خصومهم ، وحصانتهم ضد الهجوم من جانب الدولة الكبرى الأولى من سلسلة الدول الكبرى التى قدر لها أن تقوم الواحدة بعد الأخرى فى جنوب غرب آسيا .

أما من ناحية العدد ، فإن المدن الفينيقية الرئيسية الخمس أو الست المعقودة على طول ساحل كنعان وسورية بين جبل الكرمل ومصب نهر العاصى ، لم تكن لتقوى على الوقوف فى وجه مئات المدن الدول الهلينية فى آسيا وجزر بحر إيجة وبلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية، كما أنه لابد أن قاعدة الإترسكيين في وطنهم كانت أصغر من ذلك مساحة نظراً لأن المستوطنين الإترسكيين الذين أقاموا فيما وراء البحار لم يفقدوا صلتهم بها فحسب بل إنهم لم يكونوا يذكرون على وجه التحديد المكان الذى كانت تحتله . وليس أمامنا إلا أن نفترض أن هؤلاء المتحدثين بلغة لا تنتسب إلى اللغات الهندية الأوروبية قد خرجوا من بقعة منعزلة غير معروفة على الشاطئ الجنوبى للأناضول - وربما كانت الشاطئ الصخرى الوعر فى غرب كيليكيا Cilicia - لم يبلغها

سواء الغزاة الذين كانوا يتكلمون اللغة اللوفية Lovian ، وذلك فى بداية الألف الثانى ق.م. أو الغـزاة الذين كانوا يتكلمون اليونانـية وذلك قرب نهاية هذا العصر .

ومما زاد من أثر تفوق الهلينيـين العددى ذلك المـوقع الذى كانت تحتله قاعدة عملياتهم التى كانت تسـد طريق الشعبين المنافسين لهم إلى البحر الأسـود وتهدد جانبهما إذا مـا اتجها إلى غربى البحـر المتوسط . ولعل أعظم الميزات التى تمتعوا بها هى تلك الميزة السلبية التى تتلخص فى وقوعهم خارج مرمى الدولتين العـسكريتين الآشورية والبابلية ، اللتين تعرضت شعوب سـورية وكنعان التعيسة من جانبـهما ، إلى المناوشات المتكررة فى فتـرة تمتد بين القرن التاسع والقـرن السادس ق.م ، بيد أن ثمة تـغييـرات سيـاسيـة وقعت خـلال القرن السـادس فى غربى البـحر المتوسط وجنوب غـربى آسيا أدت إلى انقلاب الأوضـاع . ففى المنطقة الأولى قام الفـينيقيون الذين يعـيشون فيـما وراء البحار فى غرب صـقلية وجنوب إسبانيا وشمال غرب أفـريقية فى القرن السادس ، وتحت ضغط التوسع الهلينى ، بمـثل ما قامت به المـجتمعـات الأم فى سورية ولبنان ذات مرة ولفترة قصيرة عندمـا كتلت قواها عام ٨٥٣ ق.م. ، لعرقلة تقدم الغزاة الآشوريين فى معركة قرقر Qarqar . ففى القرن السادس وضعت المدن الدول الاستعمارية الفينيقية نفسها على الدوام تحت القيادة الموحدة لمدينة من بينهـا، وهى قرطاجة Carthage (المدينة الجـديدة) ، فقامت قرطاجـة بعقد حلف مع الإترسكيـين فيمـا وراء البحار ضـد الهلينيين ،

وهكذا وجد الهلينيون أنفسهم فى مواجهة قوات منافسيهم الموحدة . وفى الناحية الأخرى استعادت المدن الفينيقية الأم الممتدة على طول شاطئ كنعان وسورية مكانتها الأولى نتيجة لحلول الفرس محل الآشوريين وخلفائهم البابليين . فقد أدت هزيمة الإمبراطورية البابلية على يد مؤسس الإمبراطوريات الفارسى كورش عام ٥٣٨ ق.م ، إلى تحرير الفينيقيين واليهود أيضاً . بيد أن مغنم المدن الدول الفينيقية من وراء هذه الثورة السياسية كان أعظم من مغنم المنفيين اليهود . فقد اتخذتها حكومة الإمبراطورية الفارسية شريكة لها وأنعمت على كل منها بإمبراطورية مصغرة خاصة بها . وكان لارتباط الفينيقيين بالإمبراطورية الفارسية على أساس التمتع بميزات خاصة ، أن تدعمت قوة الفينيقيين من النواحى العسكرية والسياسية والاقتصادية . فقد أصبحت الأجزاء الداخلية من القارة تمثل بلاداً صديقة لا بلاداً معادية . وانفتح على مصراعيه ميدان هائل للنشاط الاقتصادى يصل إلى آسيا الوسطى والهند . ولابد أن هذا التحسن المباغت الذى طرأ على مركز المدن الأم الفينيقية قد أدى إلى تعزيز موقف الفينيقيين فيما وراء البحار نظراً لأنهم - على خلاف الإترسكيين فيما وراء البحار - لم يقطعوا صلتهم بوطنهم . وأدى هذان التغيران الشاملان إلى انقلاب ميزان القوى فى غير صالح الهلينيين إلى الحد الذى توقفت معه حركة التوسع الهلينى فيما وراء البحار قبل نهاية القرن السادس . بيد أنه قبل ذلك التاريخ بأكثر من مائة وخمسين سنة ،

كان أثر المقاومة المتزايدة التى كانت تلاقيها حركة التوسع هذه قد بدأ يظهر بالفعل على الحياة الداخلية للمجتمع الهلينى .

كان سكان العالم الهلينى فى زيادة مضطردة (وقد ظلوا على هذه الحال حتى القرن الثانى ق.م) ، وقد أسفر التقدم البطئ لحركة التوسع ثم توقفها فى النهاية ، دون أن تصاحب ذلك أية زيادة فى الإنتاج بالنسبة لنصيب الفرد أو لحصة الفدان ، عن تحول الضغط الناشئ عن الزيادة المضطردة فى عدد السكان ، إلى الداخل . ومما زاد من حدة التوتر الاجتماعى الذى أصاب الحياة الداخلية للمدن الدول نتيجة لذلك ، ظهور بدعة عسكرية جديدة ، تلتها بدعة اقتصادية . فقد أدخل فى العالم الهلينى قرابة عام ٧٣٠ ق.م. نظام تشكيل الفيلق (الصفوف المتراصة) الخاص بجنود المشاة . وقرابة عام ٦٥٠ ق.م اخترعت العجلة فى مكان ما من الشاطئ الآسيوى لبحر إيجة ، وبدأت فى الانتشار فى بقية أنحاء العالم الهلينى منذ عام ٦٢٥ ق.م تقريباً .

وكان القتال فى صورة تشكيلات ، طريقة أكثر فاعلية لقتال الجنود المشاة الثقيلى التسليح من المبارزات الفردية بين بطل وآخر . ولكنه لم يكن هدفاً عملياً ميسور التحقيق مادامت الأسلحة المعدنية باهظة الثمن بحيث لم يكن فى وسع أحد اقتناؤها غير الأثرياء من أفراد المجتمع ، وكان لحركة الاستعاضة فى صناعتها عن البرنز الباهظ الثمن بالحديد الزهيد الثمن ، وهى الحركة التى بدأت فى المنطقة الإيجية قرابة زمن

الهجرة الجماعية وتمت خلال العصر المظلم الذى تلى هذه الحقبة ، أن أصبح فى مقدور الفلاح صاحب الأرض أن يحصل على العتاد الذى كان من قبل وقفاً على قلة من الأرستقراطيين ، كما أن ما نجم عن ذلك من زيادة كبيرة فى عدد المقاتلين الثقيلى التسليح لدى المدينة الدولة ، أتاح الفرصة لأول مرة فى التاريخ الهلينى لإبراز ما للعتاد المعدنى من قيمة كبرى ، وذلك بالاستعاضة عن البطل ذى العربة الحربية ، بفيلق من جنود المشاة الفلاحين ، الذين لا تكمن قوتهم فى القوة البدنية الفردية بل فى مستوى التدريب والنظام والروح المعنوية العالية لدى الجماعة المقاتلة بأسرها .

وكانت أقل القطع صلاحية فى سلاح المقاتل الهلينى هى الدرع الدائرى . فإنه إذا ما احتفظ به فى مقاييسه الضيقة يسهل استعماله فى العربة الحربية إلا أنه لا يكفل أية حماية تذكر للجندى فى ميدان القتال، وإذا ما صنع باتساع يكفى لتغطية البدن من الرقبة إلى الفخذين ، فإنه يبلغ حداً من الثقل يتحتم معه ألا يشغل الذراع واليد فى شئ غير حمله ، وحتى فى هذه الحالة أيضاً يكون بارزاً دون ما داع خارج الكتف الأيسر ، بينما يترك الساقين عاريتين ، ولذلك يتحتم أن يغلف الساقان بدروع معدنية لحمايتهما ، الأمر الذى يزيد من ثقل الجندى أكثر فأكثر . أما فى نظام قتال الفيالق الجديد ، فالهدف من الدرع الدائرى الثقيل ذى القطر الكبير هو رفع الروح المعنوية لدى الجنود ، ففى تشكيلات

الصفوف المتراصة يقوم البروز اليسارى فى درع كل جندى بحماية الجندى الذى يليه ويقف إلى يساره ، وعلى ذلك فإنه عند مواجهة العدو ، يجد الجندى أن من الأسلم له أن يحافظ على وضعه فى التشكيل عن أن يخرج عن الصفوف ، ثم إن الجندى الذى يترك الصفوف بالفعل ، إنما يحرم نفسه من حماية الجندى الواقف إلى جواره من ناحية اليمين ، بالإضافة إلى أنه يعرض جاره الواقف إلى اليسار للخطر . وبالإضافة إلى ذلك ، كان من العسير على المرء الفرار وهذا الثقل المعوق موثوق بذراعه ، ولذلك فقد كان شرف الجندية يقضى بألا يلقى المرء بدرعه . والعبارة التالية من بين العبارات الشهيرة التى تنسب إلى الأمهات الإسبرطيات : «إنى واثقة من أن ابنى سوف يعود إما بدرعه وإما فوق درعه» ، إذ جرت العادة على أن تنقل جثة الجندى الذى يموت ميته مشرفة فى ميدان القتال ، فى موكب إلى بيته محمولة على درعه ، فوق أكتاف زملائه ممن كتبت لهم الحياة . وأصبحت هذه الأداة المهوشة التى باتت رمز الشجاعة والبأس ، تسمى عموماً «بعدة الحرب» (Hoplon) ، كما أصبح المقاتل الثقيل التسليح فى الفيلق يعرف باسم «حامل الدرع» (Hoplites) .

وترتب على إدخال نظام تشكيل الصفوف المتراصة التى ينتظم فيها حملة الدروع من الفلاحين الملاك ، بالإضافة إلى ظهور «روح الجماعة»، أن بطل عمل الصنديد الأرستقراطى . وحاول هذا أن يحتفظ لنفسه

بمركز الصدارة الذى كان يحتله من قبل بأن استعار من البدو (الذين قاموا بثورة من ثوراتهم المضطربة خلال القرنين الثامن والسابع بزحفهم خارج سهول الاستبس الأوراسية) آخر حيلهم فى الفروسية وهى ركوب الخيل بدلاً من قيادتها . غير أن سلاح الفرسان الذى حل محل سلاح العربات الحربية التقليدى فى العالم الهلينى وقت أن أدخل نظام فيلق المشاة ، لم يحتل مكان الصدارة بين الأسلحة الأخرى حتى عهد الإسكندر الأكبر ، أى بعد مضى ما يقرب من أربعة قرون . وكانت أعظم فيالق حاملى الدروع الهلينية قاطبة ، خلال القرون الثلاثة الأولى ونصف القرن من تطبيق نظام الفيلق فى العالم الهلينى هى الفيالق اللاكيدايمونية (ولاكيدايمون Lacedaemon هو الاسم الرسمى للدولة الإسبرطية ، بما فيها المجتمعات التابعة Peroeci) ، وكان الفيلق اللاكيدايمونى يضم ، إلى وقت متأخر يرقى إلى القرن الرابع ، فرقة مميزة تعرف باسم «الفرسان» ، بيد أن هؤلاء لم يكونوا ، خلال القرن الرابع ، يقاتلون بالصورة التى كان يقاتل بها سلاح راكبى العربات الحربية الذى عفا عليه الزمن ، كما لم يقاتلوا فى صفوف سلاح الفرسان الحديث . فكانوا يتخذون مراكزهم بين صفوف المشاة باعتبارهم حرساً خاصاً للملوك الإسبرطيين ، وكانوا يحصلون على هذه المراكز المرموقة بناء على جدارتهم العسكرية ، لا بحق انتسابهم إلى طبقة أرستقراطية .

وبات ينظر فى إسبرطة إلى الفلاح المالك حامل الدرع - ولعل ذلك قد وقع فى زمن مبكر مثل أواسط القرن السابع ق.م - على أنه

يقف على قدم المساواة مع زميله فى السلاح ، الجندى الأرستقراطى المولد . أما فى بقية المدن الهلينية فقد أخذ الجندى الفلاح فى المطالبة بما تحقق لزميله بالفعل فى إسبرطة . ولما كان حامل الدرع هذا قد علا شأنه وأصبح من المجتمع العسكرى بمثابة العمود الفقرى ، فقد شعر بأنه قد أصبح من حقه أن يأخذ بنصيب فى إدارة الشئون العامة للبلاد . وعندما وجد أنه ، بدلاً من أن تتحقق له رغباته السياسية ، أصبح يواجه متاعب اقتصادية ، لم يلبث أن عقد العزم على أن يعدل الميزان الاقتصادى لصالحه عن طريق حصوله على الحقوق السياسية التى بدا أن مكانته العسكرية الجديدة تؤهله لها .

كان الفلاحون الملاك والعمال الزراعيون مجبرين ، خلال عصر أدى فيه نقص الأراضى الزراعية المطرد إلى عجزهم عن الموازنة بين دخلهم ومنصرفهم ، إلى الاقتراض بفائدة ، من ملاك الأراضى الأرستقراطيين الذين كان ما يزال بأيديهم فائضاً يقرضونه ، كما يسر اختراع النقود من عملية الاستدانة هذه ، وقطعة النقود إن هى إلا قطعة معدنية تصدرها الدولة ، كوساطة للتعامل ، وتحمل صورة الدولة وصفتها ، وتضمن تمغة الدولة أن قطعة النقود لها من القيمة ماهو مبين على وجهها . ومقابل منح الجمهور هذا الضمان ، تحتكر الدولة المصدرة للعملة حق سك العملة داخل أراضيها . وكان الجديد فى هذا الاختراع الهلينى هو تدخل الدولة فى الأمر . لقد كان الأفراد يستخدمون

أوزاناً ثابتة معـروفة من المعادن كوسـيلة للتقايض منذ فجـر الحضارة فى الحـوض الأدنى من نهرى دجلة والفـرات . بيد أن التطور الجـديد الذى طرأ على الاخـتراع القـديم قد يسـر بالفعل من المـعامـلات المالـية ، وبخاصة عـملية الاقتراض والإقـراض . وعندما كان ينؤ كاهل المـستدين تحت عبء التزامات لم يكن فى مقدوره الوفاء بها ، كان يجره ذلك إلى الوقوع هو وأسرته وممتلكاته تحت سلطان الدائن . كان فى وسع الفلاح صاحب الأرض أن يرهن أرضـه وفى وسع العامل الزراعى الذى لا يملك أرضاً أن يقتـرض بضمان حريته الشخـصية وحرية أبنائه ، فإذا مـا عجز هؤلاء وهؤلاء عن الوفاء بديـونهم ، فإن الفلاح يفـقد أرضه ، ويتـحول العامل إلى عبد من حق دائنه أن يبيعـه فيما وراء البحار . وكان الدائنون يستـغلون هذا الموقف أبـشع استغـلال ، ولكن ضحـاياهم ما لبـثوا أن تحولوا إلى وحوش ضارية ، فلم يقتصروا على المطالبة باستعادة حريتهم واسترداد أراضيهم ، بل نادوا بضرورة مصادرة ضـياع الملاك وتقسيمها ، وكان لهم فى ذلك هدف مزدوج يرمى إلى كسـر شوكة الملاك الكبار من الناحية الاقتصاديـة والتخفيف أيضاً من أثر ندرة الأراضى الناجم عن بطء حركة توسع العالم الهلينى فيما وراء البحار .

وأخذت خلـول هذه الأزمات صورة تغـير كلى وجـزئى ، طرأ على المجتمع خلال فترة امتدت مائة وخمسين سنة . وما إن حل الوقت الذى توقفت فيه حركة التوسع فيما وراء البحار كلية ، قبل انتهاء القرن السادس ق.م بوقت قصـير ، حتى كـانت الطبقة الأرستـقراطية فى مـعظم المدن

الدول الهلينية الكبرى قد حرمت من امتيازاتها تماماً ، واستعيض عن حق المولد بالمؤهلات العقارية لتكون أساساً للحقوق السياسية ، كما أنه جرى فى معظم الأحيان تقسيم الملكيات الضخمة . كما أدخل على النظم الاقتصادية فى العالم الهلينى انقلاب كلى . وكان هذا التعديل هو أعظم التعديلات قاطبة ، لأنه أوجد حلاً للمشكلة الاقتصادية التى نجمت عن إبطاء حركة توسع العالم الهلينى ثم توقفها تماماً فى نهاية الأمر .

وتمت هذه التعديلات فى معظم المجتمعات التى وقعت فيها ، قسراً، على يد حكام دكتاتوريين أو طغاة . وقد تفشت هذه الدكتاتوريات كما لو كانت وباء بدأ دورته بدول خليج كورنثوس (كورنثة وسيكايون Sicyon وميجارا Megara) ثم امتد أولاً إلى الدول الآسيوية (ميليتوس Miletus وميتيلينى Mytilene) وبلغ أثينا فى النهاية . بيد أنه لم يقدر لأى من هذه الدكتاتوريات أن تعيش طويلاً إذ كان يطاح بها فى الجيل الثالث على أكثر تقدير . وكانت إسبرطة هى المدينة الوحيدة التى استطاعت أن تواصل الحياة دون أن تقع فريسة لنظم الحكم الدكتاتورى ودون أن تقوم بثورة اقتصادية على النحو السالف الذكر . إذ كان الأفراد من عامة الشعب فى إسبرطة - كما أسلفنا - يمنحون الإقطاعيات من الأرض ، لا على حساب الطبقة الأرستقراطية الإسبرطية ، بل على حساب جيران إسبرطة المقهورين من سكان مسينيا Messenia ، كما كان النصاب العقارى الذى يؤهل الفرد لبلوغ مرتبة «النظير» الإسبرطى

هينا للغاية ، إذ لم يكن يتعدى ما يسهم به حامل الدرع من نصيب عينى فى مؤن مائدة الطعام المشتركـة التى تتبع فرقته ، ويحصل على ذلك من إقطاعية الأرض المسينية التى تخصص له . وهكذا تلافت إسبرطة أسباب النزاع الذى قد ينشـأ بين صفوف مواطنيـها ، لكى تثير نزاعاً آخـر بينها وبين رقيق الأرض ، كمـا استطاعت أن تقيم دعائم جيشـها المؤلف من حملة الدروع باسـتغلال أراضـى هؤلاء العبيـد واستغـلال كدهم دون أن تتخلى عن النظام الاقتـصادى القديم الذى يقوم على أساس من الاكـتفاء الذاتى ، اعتماداً على الزراعة .

ورأت الحكومة اللاكيدايمونية أن قـيام حكومات ثورية دكتاتورية فى الدول المجاورة يشكل خطراً يتـهدد النظم الغريبة التى أوجدتهـا إسبرطة لتكون حلاً للمشكلات الاجتماعية المشتركة . وعلى ذلك فقد استخدمت السلطات الإسـبـرطيـة قواتهـا العـسكرية البـرية للإطاحـة بالحكومـات الدكتاتورية ببلاد اليونان التابعة للقارة الأوروبية ، داخل دائرة مست حدود أثينا نفـسها . ولم تكـن هذه بمهمـة شاقـة أو عسيـرة ، نظراً لأن هذه الحكومات كانت بالفعل قد حققت رسالتـها واستنفدت أغراضها قبل أن تجرد إسبرطة حملاتها عليـها . ومن ثم استقرت الأحوال فى دول خليج كورنثوس ، فى ظل حكومات محـافظة قامت على أساس من اتفاق ودى بين الفلاحين الزراع من حملة الدروع ورجال الأعمال الذين قاموا بمساندة الدكتاتوريات من قـبل لتكون أداة للإطاحة بالطبقة الأرستقـراطية الوراثية البائدة . وقد دخلت هذه الحكومات الجديدة فى أحلاف دائمة مع إسبرطة

الأمر الذى أتاح لها أن تحتل مركز الصدارة فى النواحى التى تختص برسم السياسة الخارجية المشتركة لحلفائها . بيد أن النتيجة التى ترتبت على خلع الحكومة الدكتاتورية فى أثينا عام ٥١٠ ق.م جاءت مخالفة لذلك ، وعلى النقيض مما كان يتوقع . فعندما تدخلت إسبرطة فى أثينا للمرة الثانية ، ولم يمض على تدخلها فى المرة الأولى سوى عامين فقط، وذلك استجابة لطلب المحافظين الآثينيين وتلبية لندائهم ، اضطرت قوات الحملة التى جردتها لهذا الغرض إلى التسليم والانسحاب أمام التحالف الذى تم بين الفلاحين الآثينيين الملاك الذين يمثلون الجنود حملة الدروع والغالبية العظمى من أفراد الشعب الذين لا يملكون أرضاً . وقامت الحكومة الجديدة على أساس من هذا الائتلاف . ولم تدخل هذه الحكومة فى حلف مع إسبرطة ، كما لم تقبل الزعامة الإسبرطية . ومضت فى طريقها فى جرأة ، ودام حكمها مائة سنة ، سطرت لنفسها خلالها تاريخاً مجيداً .

وكانت أثينا قد اختطت لنفسها طريقاً سارت على هديه منذ بداية مرحلة الانقلابات الاجتماعية التى تعرض لها العالم الهلينى طيلة المائة والخمسين السنة الماضية . أما المحاولة الأولى لإقامة حكومة دكتاتورية فى أثينا فقد باءت بالفشل . ومن ثم حاول الطرفان المتنازعان الوصول إلى حل يرضى كلا منهما وذلك بالاتفاق ، فيما يتعلق بالسنة الحكومية ٥٩٤ ق.م ، على أن يخولا للحاكم السنوى الرئيسى سلطات خاصة ،

وأن يراعيا فيمن يتـولى هذا المنصب أن يكون محل ثقة من الطرفين من حيث أمانتـه وعدالته . وكان سولون Solon هو الرجل الذى وقع عليـه اختيار الطرفين ، وقد تحقق لهما فيه كل ما كانا يصبوان إليه . إذ سارع سولون إلى استئصال شأفـة ثورة وشيكة بأن ألغى عقـود ارتهان أراضى المـدنيين ، وصكوك عـبـوديتهم الشـخصيـة ، وسن قانوناً يحـرم فى المستقبل منح القروض أو الحصول عليها على أساس من هذين الضمانين . ووضع أيضاً دسـتوراً سيـاسياً جـديداً ، يقوم على أساس من تقـسيم المؤهلات العقارية إلى مراتب معينة ، وكان هذا الدستور يتمتع فى الواقع بقسط كبير من روح التحرر لم يتـيسر للدساتير التى وضعت لدول خليج كورنثوس بعـد مضى ربع قرن على هذا التاريخ . كـما لم يوافق سولون من ناحية أخرى على مـبدأ تقسيم الضياع الكبيـرة ، وبذلك أضاع عامداً الفرصة فى أن يـقيم من نفسه دكتـاتوراً ، حفاظاً على العهـد الذى قطعه على نفســه . ولكنه عجز عن أن يجنـب أثينا مصيـر الوقوع تحت طائلة أحد الطغـاة فى الجيل التالى . وكـان الثوار ما يزالـون على سخطهم ، وسرعان ما تقدم بيزستراتوس Peisistratus الذى لم يكن شديد التمسك بالقيم ، على النقـيض من سولون ، ليقوم بدور الدكـتاتور ، وتم له ما أراد في محاولته الـثانية . بيد أن بيزستراتوس كان يبدو عظـيم الاعتدال مع ذلك إذ مـا قورن بغـيره من الطغـاة . إذ سـعى إلى أن يحكم أتيكا Attica - كما قدر لأوغسطس أن يحكم العالم الهلينى بأسـره فى مرحلة متأخرة من تاريخه - بالتحايل فى تطبيق نصوص الدستور القائم بدلاً من

تقويضـه علانية . وكـانت سياسته الاقتـصادية ، شأنهـا شأن سيـاسة سولون، على جانب عظيم من الأهمـية . ومن البديهى أنه قـد أقدم على الخطوة الثـورية التى أحـجم عنهـا سولون ، ألا وهى تقـسيـم الضيـاع الواسعـة، بيد أنه قد مضى قـدماً فى الثورة الاقتـصادية البناءة التى بدأها سولون ، وإلى ذلك يرجع الفضل فى أن أثينا لم تجـابه ، بعد أن طرد هيبارخوس Hipparchus ابن بيزستراتوس فى عام ٥١٠ ق.م مـنها ، المصير ذاته الذى جابهته كل من سيكايون وكورنثة وميجارا .

واتخذت الثورة الاقتصادية صـورة تحول عن نظام اقتصادى يقوم على الزراعة بقصد الاكتفاء الذاتى ، إلى نظام اقـتصادى أساسه التخصص فى نوع الانتاج سواء الإنتـاج الصناعى أو الإنتاج الزراعى ، بقصـد الحصول على واردات من المواد الغـذائية والمواد الخـام مقابل السلع المـصدرة من هذا الإنتاج . فـمن الممكن أن يوفر الفدان من الأراضى الآتيكـية أقوات عدد أكبر من الأثينيـين إذ أنه ، بدلاً من زراعته حبوباً بقصـد الاستهلاك المحلى، غرس بالكروم وأشجار الزيتون التى تنتج النبيذ وزيت الزيتون ، وهما سلعتان يمكن المقايضة عليهـما بغلال صقلية ومصر وأكرانيا . ولا جدال فى أن صافى الربـح الذى يعود على الاقتصاد الأثيـنى سيزداد زيادة كبيرة إذا ما نقل إنتاج التربة الآتيكية من السوائل ، إلى المستهلك ، فى أوعية فخارية مـبرقشة مزخرفة على نحو جذاب مـحبب . وبهذه الطريقة

يمكن إلحاق حقول القمح التى تتبع أوكرانيا ومصر وصقلية وكذلك مراعى الأغنام فى هضبة الأناضول ومناجم أتروريا Etruria بل والأراضى البعيدة عن الشواطئ التى تحرص عليها قرطاجة أشد الحرص والتى تقع فى شمال غرب أفريقية وجنوب غرب إسبانيا ، يمكن إلحاقها جميعاً باقتصاد العالم الهلينى ، وبخاصة عندما دعته الضرورة من جراء المقاومة القرطاجية والإترسكية إلى وقف حركة التوسع فى المنطقة التى يستعمرها المستوطنون الهلينيون ويفلحونها بأيديهم . وما كان لسولون أن يدرك هذه الحقيقة لو أنه لم يكن من رجال الأعمال . ولقد كانت الخدمة الجليلة الخالدة التى أسداها إلى أثينا هى حثه على تصدير النبيذ والزيت الذى تنتجه أتيكا ، ثم تشجيعه لهجرة الخزافين الأجانب وغيرهم من الصناع المهرة إلى البلاد .

هل قام سولون بهذا العمل الذى يعد الأول من نوعه من أجل بلاده وحدها أو من أجل العالم الهلينى جميعه ؟ لسنا فى مأمن من أن نهول فى تقدير الدور الذى قامت به أثينا فى هيلاس خلال القرون الثلاثة السادس والخامس والرابع ق.م ، لأن الجانب الأعظم من تاريخها بالصورة التى آل بها فى الوقت الحاضر ، جاء – بطريق مباشر أو غير مباشر– عن مصادر آثينية. فقد كانت أتيكا إلى عهد سولون بلداً متخلفاً. ولم تقم بأي دور فى حركة توسع العالم الهلينى بطريق الاستعمار فيما وراء البحار . كما أن رجال الأعمال فى أثينا كانوا يبلغون فى مستهل

القرن السادس ق.م حداً بعيداً من الندرة ، ولقد كان من بين الأسباب التى أدت إلى اختيار المواطنين الآثينيين لأخيهم المواطن **سولون** ، للقيام بدور الوسيط ، أن رجل الأعمال النادر الوجود كان يعتبر شخصاً محايداً فى مجتمع مازال يعتمد أساساً على الزراعة . ومن المرجح أنه قد كان هناك فى ميليتوس Miletus وكورنثة المعاصرتين مجتمع كبير من رجال الأعمال ، وذلك لأنه لم يكن لدى هاتين الدولتين - على خلاف أثينا التى كانت أراضيها الأصلية عادة عظيمة الاتساع - سوى المساحة العادية من الأراضى الصالحة للزراعة ، ولذا فقد اضطرتا إلى الاتجاه أولاً إلى الاستعمار ثم إلى التجارة والصناعة . وعرفت ميليتوس السبيل إلى توفير أرزاق بنيها عن طريق الإتجار فى السلع الكمالية فى مقابل غلال أوكرانيا ، والاشتغال أيضاً بصناعة غزل ونسج الصوف الذى يرد من فريجيا ، وظهر الفخار المصنوع والمزخرف فى كورنثة على الطريقة «الكورنثية الأصلية» فى الأسواق الدولية قبل ظهور الأوانى الفخارية الآتيكية ذات الزخارف السوداء بنحو مائة عام ، ولم تخرج المصنوعات الآتيكية إلى الأسواق الدولية إلا بعد انقضاء ما يقرب من عشرين سنة على حملة **سولون** التى كان يرمى من ورائها تشجيع الفخارين الآثينيين وحثهم على العمل . ولكن الأوانى الفخارية الآتيكية كانت قد استأثرت بالأسواق قبل أن ينتهى القرن السادس ق.م ، كما تحول فن زخرفتها إلى طريقة الأشكال الحمراء ، وهى طريقة تتميز بصعوبتها . ويعد قرار منح الحقوق

السياسية لغير أصحاب الأراضى من بين سكان أثينا بعد الإطاحة بالحكومة الدكتاتورية التى كانت قائمة هناك ، دليلاً آخر على أن حركة التصنيع كانت قد قطعت فى أثينا بالفعل شوطاً أبعد مما قطعته فى دول خليج كورنثوس ، حيث كان لرجال الأعمال والفلاحين من أصحاب الأراضى متضامنين ، القدرة حتى ذلك الحين على الحيلولة دون اكتساب العمال الصناعيين لأى قسط من القوة أو النفوذ والحقيقة أننا إذا ما قارنا النظامين الآثينى والكورنثى بنظام الحكم الأرستقراطى الذى كان سائداً قبل الثورة ، لا يلبث أن يتضح لنا أن «الديمقراطية» الآثينية فيما بعد الثورة ، و «الأوليجاركية» أو نظام حكم الأقلية الذى كان سائداً فى دول خليج كورنثوس لم يكوّنا سوى وجهين مختلفين لنظام دستورى واحد ، فقد كان نظام الحكم الديمقراطى الذى اصطنعه كلايستينيز Cleisthenes فى أثينا عام ٥٠٧ ق.م نظاماً يقوم على أساس الأنصبة العقارية التى أصبحت تقريباً نظراً لضآلتها فى حكم الملغاة . وعلى هذا النحو أيضاً قضت نظم الحكم الأوليجاركية فى دول خليج كورنثة بمنح جانب كبير من السكان الذكور الذين بلغوا سن الرشد الحقوق السياسية إلى الحد الذى دعت فيه الحاجة فى هذه البلاد أيضاً ، كما فى أتيكا الديمقراطية ، لتصريف الشئون العامة للبلاد عن طريق عرض الأمر أولاً على لجنة كبيرة تمثل نخبة لا بأس بها من الناخبين ، قبل أن يقدم إلى اجتماع عام، وذلك لكى يأخذ صورة تسمح بعرضه على بساط البحث بين أعضاء

هذا الاجتماع الكبير الذى لا يسلس قياده . بيد أنه على الرغم من ذلك التشابه الكبير الذى كان قائماً بين هذين النوعين من الدساتير التى وضعت فيما بعد الثورة ، إلا أن الفوارق بين ما كان يخوله كل منهما من الحقوق السياسية تعد فى غاية الأهمية . ففى العالم الهلينى الذى أخذ بسياسة التصنيع قرابة نهاية القرن السادس ق.م ، ظفر البحارة المجدفون والصناع المهرة بذلك المركز الاجتماعى المرموق الذى كان قد ناله الفلاحون أصحاب الأراضى الذين كانوا يمثلون الجنود حملة الدروع قبل مائتى عام . وترجمت هذه الحقيقة العسكرية الاقتصادية الجديدة إلى لغة السياسة لأول مرة فى الدستور الآثينى الذى صدر عام ٥٠٧ ق.م ، وهكذا أصبحت الديمقراطية الآثينية «حركة المستقبل» .

وعلى ذلك فقد أطاحت النتائج السياسية التى ترتبت على الثورة الاقتصادية ، فى القرن السادس ق.م بالأرستقراطية الوراثية فى معظم الدول الهلينية . بيد أن الطبقة الأرستقراطية ظلت محتفظة بهيبتها بعد زوال امتيازاتها ، وذلك زهاء مائة عام . ففى ظل الديمقراطية الآثينية ذاتها، وجد المصلح السياسى بركليس Pericles الذى تولى الحكم فى الفترة بين سنة ٤٦٢ ق.م. وسنة ٤٣٠ ق.م. أن من مميزاته السياسية البارزة انتسابه إلى أسرة الكمايونيداى Alcmaeonidae من ناحية أمه ، وكان الطاغية الصقلى أو رجل الأعمال الإيجينى فى القرن الخامس يكلفان نفسيهما عنتًا فى سبيل الظهور بمظهر الأرستقراطيين ، بأن يحاولا

إحراز قصب السبق فى أحد الاحتفالات البانهلينية الأربعة ، ثم يكلفا الشاعر الطيبى بندار Pindar بنظم قصيدة فى الإشارة بهذا النصر .

ولاشك فى أن بذور الثورة الاقتصادية التى حققت أهدافها كاملة فى أثينا ، قد بثت منذ زمن بعيد يرقى إلى مستهل حركة التوسع الإقليمى للعالم الهلينى فيما وراء البحار . ويتطلب الاستعمار بطبيعة الحال إتقان فنون الملاحة ، ولاشك فى أن الملاحين الذين فتحوا الطريق أمام الزراع المستعمرين كانوا ينضوون تحت كل من فئتى التجار والقراصنة فى الوقت ذاته . وإلى جانب التجارة والقرصنة ، كانت ثمة اعتبارات اقتصادية تتحكم فى اختبار بعض المستعمرات الهلينية . فتبدو كوماى Cumae - وكانت أقدم مستعمرة هلينية فى الغرب ، كما كانت تعد أقصى المستعمرات فى هذه الناحية على الإطلاق حتى تأسيس ماسيليا Massilia - كما لو كانت أثراً باقياً لمحاولة فاشلة للاستيلاء على الموارد المعدنية فى جزيرة إلبا وعلى الأراضى الإيطالية الأصلية المجاورة التى احتلها الإترسكيون . ومن ناحية أخرى فإن إنشاء مدينة بوسيديوم Paseideium ، والتى تقع عند مصب نهر العاصى فى سورية ، كان فيما يبدو بمثابة محاولة كتب لها النجاح إلى حد ما ، للقضاء على احتكار الفينيقيين للنشاط التجارى بين البحر المتوسط وحوض نهرى دجلة والفرات . بيد أن الهدف الأساسى للاستعمار الهلينى ظل ، حتى نهاية القرن السادس ق.م ، قائماً على الحصول على أراض زراعية جيدة .

وعلى سبيل المثال ، فإنه عندما استعمر الميجاريون الشواطئ الجنوبية المتطرفة لخليج البوسفور ، وقع اختيارهم لمستعمرتهم الأولى على خلكيدونية Calchedon التى كانت تطل على الريفييرا البيثينية الممتدة على طول الشاطئ الشمالى لخليج إزميت Ismid ، ولم يقع على بيزنطة التى لم يكن من خلفها داخل القارة غير صحراوات جرداء . وقد أسست خلكيدونية عام ٦٨٥ ق.م. ، أما بيزنطة فلم تتأسس حتى عام ٦٦٧ ق.م ويروى هيرودوتس Herodotus الذى كان يكتب بعد مضى ما يزيد على مائتى عام على هذا التاريخ ، أن السياسى الفارسى ميجابازوس Megabazus ، أطلق على خلكيدونية ، عندما علم أنها قد أنشئت قبل تأسيس بيزنطة بثمانية عشر عاماً ، وكان ماراً بخلكيدونية فى عام ٥١٣ ق.م أو بعد هذا التاريخ ، اسم «مدينة العميان» . فكيف سمح مؤسسوها لأنفسهم بأن يدعوا الفرصة لاحتلال موقع بيزنطة الذى كان شاغراً إذ ذاك ، تفلت من أيديهم ، مع ما له من مرفأ ليس له من نظير، يتحكم به فى حركة الملاحة بالمضايق ؟ وكان الجواب بالطبع ، هو أن ميجاريى القرن السابع لم يكونوا يسعون لتحقيق أغراض تجارية . بل كانوا يبحثون عن المزارع والحقول ، وكانوا بالفعل حقيقين بأن يوصموا بالعمى لو أنهم احتلوا أرض بيزنطة القاحلة وفضلوا إياها عن الريفييرا البيثينية الخصيبة. وسواء كانت هذه الملحة التى تنسب إلى ميجابازوس قد صدرت عنه حقيقة أم كانت من ابتداع أحد الهلينيين فى

القرن الخامس ، فهى تقدم الدليل على أنه فى الوقت الذى ظهرت فيه إلى الوجود ، كان الهدف الأصلى من استيطان الهلينيين فيما وراء البحار قد أصبح نسياً منسياً . إذ أن هذه الملحة تأخذ الأمر قضية مسلماً بها ، فى أن التجارة لا الزراعة ، كانت المصدر الرئيسى للرزق فى المدينة الدولة الهلينية . والحقيقة أن ذلك قد بات هو الحال قبل نهاية القرن السادس ق.م. نتيجة لثورة العالم الهلينى الاقتصادية التى شهدها هذا القرن . ولكنه وإن كان الهلينيون قد سلموا بالنتائج التى أسفرت عنها الثورة الاقتصادية ، إلا أنهم لم يقنعوا بنتائجها السياسية .

وما إن قارب القرن السادس ق.م على الانتهاء حتى كان الهلينيون قد أوجدوا حلا لمشكلة توفير أقوات السكان الذين كانوا فى زيادة مطردة داخل حدود زراعية غير قابلة للزيادة ، وذلك بأن حولوا البناء الاقتصادى للعالم الذى يعيشون فيه ، من مجرد كونه مجموعة من الجزيئات الصغيرة المنعزلة ، التى يمثل كل جزئ منها الأراضى التابعة لكل مدينة دولة على حدة ، إلى شركة اقتصادية ، لا تضم العالم الهلينى فحسب ، بل تشمل أيضاً معظم الأقطار الأخرى المتاخمة لشواطئ البحر المتوسط والبحر الأسود ، وهى الأقطار التى قدر لها أن تدخل ، بعد مضى ٥٠٠ سنة على هذا التاريخ ، ضمن الحدود السياسية للإمبراطورية الرومانية . وقد مكنت هذه الثورة الاقتصادية المدن الدول الهلينية من تخفيف حدة التوتر الداخلى الذى كان يولد الحروب الأهلية والثورات السياسية

والحكومات الدكتاتورية ، داخل حدود كل منها . كما استطاعت هذه المدن أن تستعيد أيضاً استقرارها الداخلى فى ظل حكومات جديدة ، وسواء عرفت هذه الحكومات بحكومات الأقلية أو أطلق عليها اسم الحكومات الديمقراطية ، فهى قد أباحت حقوق المواطنة لجمهور كبير من سكان البلاد الذكور البالغين ، وذلك على خلاف الحكومات الأرستقراطية . بيد أن هذه الحلول التى وضعت لمشكلات العالم الهلينى الاقتصادية وللمشكلة السياسية التى كانت تعانيها على الصعيد الداخلى كل من المدن الدول التى تدخل فى نطاق هذا العالم ، لم تكن بكافية فى حد ذاتها لتحقيق الاستقرار الذى ينشده المجتمع الهلينى بأسره.

لقد كان من شأن الثورة الاقتصادية أن حققت التكافل الاقتصادى بين المدن الدول ، على حين أنها تركت لكل منها السيادة السياسية على حظيرتها الصغيرة ، وكان فى ذلك تناقض خليق بأن يقوض أركان البناء كله . وهكذا أصبح على المدن الدول أن تختار أحد سبيلين ، إما أن تعود إلى حالة العزلة الاقتصادية والعزلة السياسية أيضاً ، مع ما ينطوى عليه ذلك من خطر هبوط مستوى المعيشة فيها الأمر الذى سيعود بها القهقرى أيضاً إلى المجاعات والحروب الأهلية ، وإما أن تتنازل عن قسط كبير من سيادتها يكفل قيام كيان سياسى بانهلينى على نحو أو آخر، يضارع النظام الاقتصادى البانهلينى الذى قدر له النجاح .

واعترضت طريق هذا الهدف السياسى الذى أصبح آنذاك هدفاً واجب التحقيق ، عقبة دينية ، فلقد ذهب الأمر بالمدن الدول الهلينية ، كما أسلفنا إلى أن أصبحت آلهات يتعبد لها مواطنوها . فهل كان فى وسع عبدة المدينة الدولة أن يقنعوا أنفسهم بالتحول بولائهم السياسى عن مدنهم المؤلهة إلى دولة بانهلينية ؟ لقد كان الأمر يتطلب قيام ثورة روحية، فهل كان بوسعهم أيضاً القيام بمثل هذه الثورة ، على أن يعجلوا بها لكى يجنبوا أنفسهم مغبة الوقوع فى كارثة محققة ؟ وفى مثل هذه اللحظة الدقيقة ، أتاح الفرس للهلينيين فرصة ذهبية لكى يحلوا مشكلتهم السياسية التى تولدت عن الحلول التى أوجدوها هم أنفسهم لمشكلتهم الاقتصادية . فقد دفع الفرس الهلينيين إلى التكتل فى سبيل الدفاع عن أنفسهم بأن شرعوا فى تحقيق غرضهم فى ضم العالم الهلينى جميعه إلى إمبراطوريتهم .

الفصل السادس

مواجهة خطر العدوان الفارسى من الشرق

اصطدم الفرس على حين بغتة بالعالم الهلينى ، عندما غزا إمبراطورهم الأول ، كورش Cyrus ملك أنشان Anshan ، أراضى ليديا Lydia الواقعة فيما وراء الساحل مباشرة فى بلاد هيلاس الآسيوية ، وذلك فى عام ٥٤٧ ق.م وكان الليديون قد فرضوا وصايتهم ، فى النصف الأول من القرن السادس ، على جميع المدن الهلينية فى القارة الآسيوية فيما عدا ميليتوس . ومن ثم أجبر الفرس الذين خلفوا الليديين فى الحكم ، الهلينيين الآسيويين الذين كانوا من قبل من رعايا الليديين ، على الخضوع لهم بالتالى ، وتمكنوا أيضاً من فرض سيادتهم على ميليتوس . وفى عام ٥٢٥ ق.م. غزا مصر الإمبراطور الفارسى الثانى ، قمبيز ، وقرابة عام ٥١٣ عبر الإمبراطور الفارسى الثالث ، **داريوس** الأول ، خليج البوسفور وتمكن من ضم الجزء الجنوبى الشرقى من أوروبا حتى الضفة الجنوبية لنهر الدانوب الأدنى . وكان من جراء هذين

الانتصارين الأخيرين أن وقعت الحياة الاقتصادية للعالم الهلينى جميعه تحت رحمة الفرس ، نظراً لأن مصر وأوكرانيا (والقطر الأخير لم يكن فى استطاعة الهلينيين أن يبلغوه إلا عن طريق المضايق) كانتا قد تحولتا إلى مخازن للغلال التى تحتاج إليها هيلاس ، بعد ثورتها الاقتصادية التى قامت فى القرن السادس .

وجنى الهلينيون الآسيويون باندماجهم فى الإمبراطورية الفارسية مثل: ماجنى الفينيقيون من منافع ، فقد فتح ذلك أمامهم الأسواق التجارية الرائجة فى قلب القارة . فقد كان الهلينيون الآسيويون ، قد اكتووا كما اكتوى الفينيقيون من قبلهم -على خلاف الهلينيين الأوروبيين - بويلات عظيمة علمتهم كيف يقدرون فضل السلام الفارسى . فعلى الرغم من أن بلادهم كانت تقع خارج مرمى الحكومة العسكرية الآشورية مباشرة، فقد تلقوا صدمة تدفق البدو الإترسكيين إلى جنوب غربى آسيا خلال القرن السابع ق.م ثم ما لبثوا أن فقدوا فى القرن السادس استقلالهم تماماً بعد غزو الليديين لبلادهم . وعلى أية حال فقد كان الليديون جيراناً فى دور التشرب بالحضارة الهلينية ، على حين كان الفرس من أنصاف البرابرة الغرباء الذين ينحدرون من هضاب جنوب إيران البعيذة القصية ، وقد أضفى هؤلاء على سيادتهم طابعاً بغيضاً ، بأن مارسوها بوساطة الطغاة المحليين ، فى الوقت الذى كانت فيه الحكومات الدكتاتورية قد أخذت فى الانهيار فى بلاد اليونان الواقعة فى

القارة الأوروبية . وفى سنة ٤٩٩ ق.م. خلع الهلينيون الآسيويون حكامهم الدكتاتوريين ، كما رفعوا راية العصيان على سادتهم الفرس . وامتد لهيب الثورة إلى المدن الدول الواقعة على طول شواطئ المضايق شمالاً ، ثم امتد صوب الجنوب الشرقى إلى قبرص أولاً ، وبلغ كاريا Caria فى نهاية الأمر . ولم تسحق بذور هذه الثورة حتى عام ٤٩٤ ق.م الذى لقى فيه أسطول الثوار الهزيمة أمام الأسطول الفينيقى ، واستعادت فيه القوات البرية الفارسية احتلالها لميليتوس المتزعمة للثورة ، ثم كسرت شوكتها بأن نفت سكانها إلى داخل القارة . وكان الثوار خلال المرحلة الأولى من الحرب يلقون العون من جانب مدينتين يونانيتين من مدن القارة الأوروبية ، هما أثينا وإرتريا Eretria . ورأى **داريوس** ألا ضمان لاستباب الأمر له بعد سيطرته من جديد على رعاياه الهلينيين الآسيويين المتمردين ، حتى تدين بقية أجزاء العالم الهلينى لحكم الفرس . وكان **داريوس** قد أرسل بالفعل قبل نشوب ثورة الهلينيين الآسيويين حملة استطلاعية اتجهت شرقاً حتى بلغت «أصبع» إيطاليا بإرشاد طبيب بلاطه الخاص **ديموكيديس** Dèmocèdes الذى اتفق أن كان مواطناً لكروتون Croton المدينة الدولة الهلينية فى إيطاليا . وعلى ذلك فإنه ما إن تمكن من قمع الثورة الآسيوية حتى أكد من جديد سلطانه على ممتلكاته عام ٤٩٠ ق.م كان **داريوس** قد أخذ أهبته للانتقام من إرتريا وأثينا .

ولاشك أنه قد تبين لداريوس أن المسرح السياسى المعاصر فى هيلاس الأوروبية يهيئ له فرصاً سانحة للانقضاض على ضحاياه المنتظرين من المدن الدول الواحدة تلو الأخرى ، لأن هيلاس كانت إلى ذلك الحين أشبه فى حياتها السياسية ببيت منقسم على ذاته . فإن أقوى دولتين بها وهما إسبرطة وأثينا لم تكونا على وفاق مع بعضهما البعض. إذ كانت إسبرطة ماتزال تشعر بالاستياء إزاء ما أبدته أثينا مؤخراً من روح العصيان والتمرد ، على حين لم تتبدد شكوك أثينا بعد فى نوايا إسبرطة بالنظر إلى رغبة إسبرطة فى إثبات حقها فى الزعامة . كما أن كلا منهما أثارت عداء أقرب جاراتها . فكان بين إسبرطة وأرجوس Argos ما صنع الحداد كما كان هذا هو الحال بين أثينا وبين كل من أيجينا Aegina وطيبة وخالكس Chalcis . ففى نحو عام ٦٦٩ ق.م ، وفى بداية عهد تطبيق نظام القتال فى صورة فيالق ، أنزلت أرجوس بإسبرطة هزيمة منكرة ، أتاحت فيما يبدو الفرصة للمسينيين للقيام بأول ثورة من سلسلة ثوراتهم الكبيرة . وبعد أن تمكنت إسبرطة من إخضاع مسينا من جديد بأن أحالت نفسها إلى معسكر مسلح ، انقلب الميزان العسكرى بينها وبين أرجوس فى صالحها . وفى القرن السادس اقتطعت إسبرطة من أرجوس مدينة كاينوريا Cynuria الواقعة على الحدود ، فى نقطة من الساحل الشرقى تشبه جزيرة البيليبونيز ، ثم عالجها كليومينيز الأول Cleomenes ملك إسبرطة فى عام ٤٩٤ ق.م. (؟) بضربة قاصمة، شلت حركتها إلى حين وإن لم تمح مشاعر السخط والعداء بين أهلها .

وكـان شعب أرجـوس يؤثر أن يرسف فى أغـلال العبـودية تحت حكم الفرس على أن يدافع عن استقلاله بالـقتال جنباً إلى جنب مع ألد أعدائه ألا وهم الإسبـرطيون . أما عن خـالكس وطيبة فـقد لقنتـهم أثينا درساً قاسيـاً لاشتراكهمـا فى مهاجمـتها وقت أن شرعت فى تطبـيق دستورها الديمقراطى . إذ انتـزعت من خالكس بعد أن أوقعت الهزيمة بقـواتهما المشتركة ، سهل ليلانتين Lelantine الذى كان فى وقت ما موضع نزاع بين خـالكس وإرتريا ، وفرضت حـمايتهـا على تلك المـدينة المتـمردة الساخطة التى كانت تتـبع طيبة فيمـا سبق ، وهى مدينة بلاتايا Plataea الصغيـرة فى بيوتيا Baeotia ، وكانت هذه الـمدينة تتحكـم فى أقصى الممـرات الغربية المـفضية من بيـوتيا إلى أتيكا . أمـا النزاع بين إيجينا وأثينا فقد نشأ لأسـباب تجارية . فقد بدأت إيجينا نهضـتها مثل أثينا فى وقت متأخر بيـد أنها لم تلبث أن حققت تقدماً مـذهلاً . وكان لنشاطها التجارى مع مصر أثر كبيـر فى دعم نشاطها وأزدهار اقتصادها . وعلة ما كانت تكنه هاتان الدولتان حديثتـا الثراء الواحدة للأخرى من كراهية هى أنهما كانتا تشعران بأن العالم الهلينى لم يعد يتسع لكليهما معاً .

ولم تكن عـدوى هذه المنازعات التـى نشبت بين المـدن اليونانيـة التابعة للقارة الأوروبية قد سرت بعد إلى المجـتمعات الهلينية الغربية فيما وراء البحـار ، ففى ذلك المجتـمع الاستعمـارى الحديث الذى لم يمض عليه من الوقت مـا يسمح للميـول المحلية فـيه بأن تتبلور ، كـان العمل

يجرى من أجل إقامة إمارتين تضم كل منهما عدداً من المدن الدول تحت زعامة كل من سرقوسة وأكراجاس . وكانت العلاقات بين الأسرتين المالكتين الاستبداديتين اللتين كانتا تقومان بهذا العمل الإنشائى علاقات طيبة بوجه عام . وكان من الممكن أن يؤلفا بتضافرهما قوة يخشى بأسها. ولكن داريوس كان يضع فى حسابه أن يشل حركتهما بالتهديد بشن هجوم من جانب قرطاجة على وطنهما الأصلى .

بيد أن داريوس وخليفته **أكسركسيس** ، قد وقعا عند وضعهما لخطة غزو ذلك الجزء من العالم الهلينى الذى ظل إلى ذلك الوقت محتفظاً باستقلاله ، فى الخطأين الحربيين الجسيمين اللذين جرا إلى الكارثة المروعة التى حاقت بالبريطانيين عندما شرعوا فى غزو أفغانستان سنة ١٨٣٩ ، إذ استهان الفرس بالقوة المعنوية التى كانت لدى خصومهم الجدد ، وأساءوا تقدير مدى استعداد هؤلاء لأن يتغاضوا عن خلافاتهم الأسرية فى سبيل توحيد الصفوف ضد الدخيل المعتدى .

وحتى هذه اللحظة كان العمل فى بناء الإمبراطورية الفارسية فى جنوب غرب آسيا ومصر يجرى ، كما كان الحال فى الإمبراطورية البريطانية فى الهند ، وفى سرعة ويسر ، ذلك لأن بناة الإمبراطورية الفارسية كانوا إلى ذلك الحين يواجهون شعوباً تحطمت روحها المعنوية من جراء التجارب المريرة التى مرت بها ، وقد كان الفرس حتى هذا الحين يقتفون أثر الآشوريين والبدو الإترسكيين ، كما كان ضحايا هذه

الويلات على استعداد لتقبل دواء السكينة والراحة الذى قدمه لهم نظام الحكم الفارسى غير الصارم . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان بناء هذه الإمبراطورية الحديثة العهد أن يتحطم وينهار خلال الفترة التى خلا فيها العرش ، بموت قمبيز فى ظروف غامضة ، كما أنه لم يزايل المصريين والبابليين قط طوال عهد الإمبراطورية الفارسية الشعور بأمجادهم الغابرة ، حتى إنهم لم يكونوا يملكون مقاومة الدافع إلى الثورة ضد الفرس كلما سنحت لهم الفرصة لذلك ، وكان الفرس فى مهاجمتهم للهلينيين الأوروبيين يتحدون شعباً لم يقع تحت نير الاحتلال الآشورى أو الأسكيثى ولم يعان ويلاتهما . ولذا فقد كانت خطتهم عرضة لأخطار لم يشهدوا مثيلها فى فتوحاتهم الماضية التى كانت تعد هينة سهلة بالقياس إلى هذه . ولكنهم عجزوا عن تبين الخطر الكامن قبل وقوعه ، ولذا فقد ساروا إلى كارثة محققة معصوبى الأعين .

وعند التعرض لقصة مشهورة ينبغى علينا أن نتوخى الإيجاز فى سردها . ففى سنة ٤٩٠ ق.م. جرد داريوس Darius حملة بحرية احتلت إرتريا ونفت شعبها إلى داخل القارة ولكنها لم تلبث أن ارتدت مخذولة يجللها العار عند نقطة بعيدة عن شواطئ أتيكا على ساحل الماراثون Marathon بعد أن منيت بالهزيمة ، أمام حملة الدروع الأثينيين تحت قيادة ميلتياديس Militiades الدكتاتور السابق لشبه جزيرة غاليبولى Gallipoli (أو خرسونيس Chersonese الطراقية) الذى كان قد

انضم من قبل إلى الثورة الآسيوية ومن ثم كان عليه أن يفر إلى وطنه أثينا . وقد أحرز الفيلق الأثينى هذا النصر دون أى عون خارجى إلا من جانب سكان بلاتايا ، غير أنه من الجدير بالذكر أن إسبرطة أرسلت قوات للمساعدة ، ولكن هذه القوات وصلت بعد فوات الأوان وانتهاء المعركة . ثم أرجأ قيام ثورة مصرية أعقبتها ثورة بابلية موعد المحاولة الفارسية التالية لمهاجمة هيلاس الأوروبية مدة عشرة أعوام أخرى ، وعندما خرج أكسركسيس Xerxes للقتال فى عام ٤٨٠ ق.م. زحف بكامل قوته ، وتقدم بطريق البر ، وعبر الدردنيل وسار حول الشاطئ الشمالى لبحر إيجة ، يصاحبه أسطوله فى كل تحركاته هذه . واتسمت الاستعدادات الفارسية فى هذه المرة بالإحكام ، بيد أن تأخر الحملة على هذا النحو كان وخيم العاقبة ، وذلك لأن عرقاً جديداً من الفضة كان قد اكتشف فى المناجم الأتيكية فى لاوريوم Laurium ، كما استطاع السياسى الأثينى ثيمستوكليس Themistocles أن يقنع مواطنيه عام ٤٨٢ ق.م بأن ينفقوا هذه الثروة التى هبطت عليهم من السماء فى بناء أسطول من السفن الحديثة ذات الطبقات الثلاث من المجاديف ، بدلاً من تفتيتها على صورة مكافآت توزع على المواطنين . وكان هذا الأسطول لحظة أن لاحت لأكسركسيس قمة جبل أوليمبوس ، قد أخذ أهبته للمعركة ، وقد ثبت أيضاً أنه كان العامل الحاسم فى تقرير نتيجة الحرب .

ولم تحاول القوات الهلينية البرية التى كانت تخضع للقيادة الإسبرطية أن توقف الغزاة عند ممر تيمبى Tempe كما عجزت عن

صدهم عند ممر ثرموبولاى Thermopylae ، إذ كانوا قد اختـرقوا هذا الممر الآخر بالفعل، قبل أن يضحى الملك الإسبرطى ليونيداس -Leoni das وقواته التى كانت تتألف من ثلاثمائة جندى ، بأنفسهم فى المعركة. وهكذا دانت للفـرس من بلاد اليونان الأوروبيـة رقعـة تمتـد إلى بيوتـيا وتشملها . ورحب سكان طيبة بأكسركسيس انتقاماً من أثينا . أما سكان أرجوس الذين استنفدت معركتهم الأخيرة مع الإسبرطيين ، قواهم تماماً، والذين كانت تحـاصرهم أيضـاً قوات إسبـرطة وحلفائهـا ، فلم يأخذوا أهبتهم للقتال ، فى انتظار أن يرحبوا بدورهم أيضاً بمقدم أكسركسيس ، وذلك انتقاماً من إسبرطة . وهكذا خرج ما لا يكاد يبلغ النصف فقط من قوات بلاد اليـونان التابعة للقـارة الأوروبية ، سواء البرية أو البـحرية ، للقاء العدو المشترك . بيـد أن هذا النفر القليل استطاع التذرع بقسط وافر من التصميم والصبر والتضامن أتاح له إيقاع الهزيمة بالعدو .

ولم تحاول القـوات البرية التـابعة للحلفـاء الهلينيين ، تحت قـيادة إسبـرطة أن تدافع عن أتيكا بل تقهـقرت إلى خليج كورنثـوس ، بيد أن تعرض أتيـكا للغزو على هذا النحـو لم يدفع الأثينيين إلى التـسليم . إذ قـاموا بإجـلاء جمـيع سكان أراضـيهم الأصليـة إلى جـزيرة سلامـيس Salamis ، ولم يرتاعوا لـرؤية الدمار الذى حل بريف أتيكا ، كـما لم يجزعوا عندما شاهدوا أثينا وقد اسـتبيحت للسلب والنهب . (وبقد أشعل

الفرس أيضاً النار فى المعابد المقامة على الأكروبول Acropolis) .
واستطاع الأسطول الآثينى أن يحمى سلاميس بأن اتخذ مواقعه فى الممرات المائية الضيقة بين الجزيرة وأراضى القارة المواجهة لها ، واشتدت وطأة القتال وبلغت المعركة ذروتها عندما أشار قائد الأسطول الكورنثى ، بضرورة انسحاب الأسطول إلى خليج كورنثوس . وكان معنى ذلك إجبار الآثينيين على التسليم أمام أكسركسيس ، ولما كان الأسطول الآثينى هو عصب أساطيل الحلفاء ، فإنه كان مقدراً للفرس أن يحرزوا من وراء ذلك تفوقاً بحرياً حاسماً على سكان البليبونيز ، وأن يطوقوا جناح العدو فى خليج كورنثوس بحراً ، كما طوقوه براً عند ممر ثوموبولاى . وكان بوسعهم أن ينزلوا قواتهم على شاطئ أرجوس Argos . ويهاجموا خليج كورنثوس من الخلف . وقد تبين ثيمستوكليس الخطر المحدق ، كما تمكن من أن يحول دون وقوعه . فعمد إلى حيلة إرسال معلومات إلى أكسركسيس تزعم أن الأسطول الهلينى فى مأزق ، وتزين له سد المضايق عليه وخوض المعركة بها حيث لا قيمة للتفوق العددى . وانطلت هذه الحيلة على أكسركسيس ، فأحرز الحلفاء نصراً بحرياً ساحقاً ، وتأتت لهم السيادة على البحر . وباتت خطوط مواصلات الجيش الفارسى عبر الدردنيل فى خطر من أن تقطع وشيكا ، فانسحب أكسركسيس إلى الجانب الآسيوى ، تاركاً بعض قوات جيشه لتقضى الشتاء فى شمال اليونان رغبة منه فى القيام بهجوم آخر فى العام التالى . وفى هذه الأثناء شن القرطاجيون هجوماً

على الهلينيين الصقليين، ومنوا أيضاً بهزيمة نكراء فى معركة بحرية دارت على نهر هيميرا Himera ، كالتى منى بها الفرس فى المـعركة البحرية التى دارت رحاها أمام شواطئ جزيرة سلاميس .

وكانت معركة هيميرا من المـعارك الحاسمة . فقد أنهت الحرب فى الغرب فى صالح الهلينيـين . وبلغ عدد الأسرى القرطاجنيين حـداً كبيراً من الضخـامة بحيث اسـتطاع أهل أكراجاس أن يحـولوا نظام الزراعة فى ريفهم الرحب مـن نظام الزراعة القائم على الاكـتفـاء الذاتى إلى الإنتاج الزراعى على نطاق واسع بأن جعلوا من أسراهم رقيـقاً زراعيين ، وبذلك مهدوا السبيل في الغرب لقيـام ثورة اقتصادية وبيلة أخرى قدر لها أن تبلغ عنفـوانها بعـد مضى مـا يقرب من ثلاثمـائة أو أربعمـائة سنة على هذا التاريخ. وقد جـردت حملة أخرى على بحر إيجـة عام ٤٧٩ ق.م. ففى ربيع عام ٤٧٩ ق.م. عرض قائد الجـيش الفارسى الذى تخلف فى شمال اليـونان ، ويدعى ماردونيوس Mardonius ، شـروطاً مغـرية على الآثينيـين كى ينضـموا إليـه . ورفض الآثينيـون هذه العروض وناشـدوا البليبـونيزيين العون بقـواتهم البرية ، للحيـلولة دون وقوع أراضى أتيكا الأصلية فريسة للاحـتلال للمرة الثانية . بيد أن البليبـونيزيين لم يحركوا ساكناً ، وتمكن الجيش الفارسى من احـتلال أتيكا من جديد . وقيل إن الآثينيين اضطروا إلى التهـديد بالتسليم مالم يشترك حلفـاؤهم معهم فى القـتال . وما إن تـقدمت قـوات الحلفاء البـرية المؤتلفـة حتى انسـحب

ماردونيوس إلى بيوتيا ، ووقعت المعركة البرية الحاسمة فى هذه الحرب على أراضى بلاتايا ، وانتهت باندحار جيش مردونيوس غير أنه فى اليوم ذاته حطم أسطول الحلفاء الأسطول الفارسى أيضاً عند كيب ميكالى Cape Mycalè على ساحل هيلاس التابعة للقارة الآسيوية . وسرعان ما هب الهلينيون الآسيويون للثورة ، وقضت قوات الهلينيين البرية والبحرية بقية موسم هذه الحملة فى طرد الفرس من شواطئ خليج كورنثوس . وبانصرام عام ٤٧٩ ق.م كان الفرس قد فقدوا كل ممتلكاتهم الأوروبية فيما عدا بيزنطة وقلعة دوروسكوس Doriscus على شاطئ تراقيا الغربى، كما فقدوا سيادتهم على الدردنيل ودالت دولتهم فى هيلاس الآسيوية . وعادت حدودهم الشمالية الغربية إلى ما كانت عليه قبل أن يجبر كورش الهلينيين الآسيويين على التسليم له فى عام ٥٤٧ ق.م وما تلاه .

ولم يثبت الفرس عجزهم عن غزو العالم الهلينى فحسب ، بل إنهم أصبحوا الآن معرضين لخطر وقوع الإمبراطورية الفارسية فى قبضة الهلينيين . ولم يكن فقدان الفرس لسيادتهم البحرية على شرقى البحر المتوسط نتيجة لمعركتى سلاميس وميكالى ، يبلغ من الخطر فى نظرهم، ما للحقيقة التى أثبتتها معركتا الماراثون وثرموبولاى ، وهى تفوق الجندى الهلينى حامل الدرع على رامى السهام الفارسى . وكان من المفروض أن يكون هذا القواس ، الذى كان يطلق سيلاً من السهام من خلف درع مستطيل خفيف الوزن مصنوع من الأغصان المجدولة يستر بدنه

وساقيه فى آن واحد عند تثبيته على الأرض ، أكثر من ند للجندى حامل الترس الدائرى الثقيل ، وسيف الطعن القصير ذى الحد الواحد . وكانت مرونة حامل الترس البدنية هى التى مكنته من النصر بأن جعلت فى وسعه ، رغم الحمل الثقيل المعوق المتعلق بذراعه الأيسر ، أن يقطع الأرض الحرام بأقصى سرعة وأن يشتبك مع رامى السهام فى قتال متلاحم قبل أن يتاح للأول الوقت الكافى لإطلاق عدد كبير من نباله القاتلة . والحقيقة أنه فى خلال ما لا يزيد عن مائة وخمسين سنة من تاريخ معركة بلاتايا ، أطاحت بالفعل ، حملة تتألف من قوات هلينية ، بالإمبراطورية الفارسية، وعلى الرغم من أنه من الواضح كل الوضوح أن حملتى ٤٨٠ ، ٤٧٩ ق.م كانتا بمثابة تجربة فاشلة بالنسبة للفرس ، إلا أنه لا يمكننا أن نقطع بأنهما لم يكونا كذلك أيضاً بالنسبة للهلينيين . ففى الوقت الذى منى فيه الفرس بهزيمة نكراء وتكبدوا خسارة فادحة فى الأراضى الواقعة على حدودهم ، فقد عجز الهلينيون عن الإفادة من هذه الحرب باهتبال الفرصة لتحقيق الوحدة السياسية التى كانت ضرورة لازمة مكملة للوحدة الاقتصادية التى كانت قد تحققت بالفعل للعالم الهلينى . وبوجه عام كان تعاونهم المؤقت هذا تعاونا مشهوداً . فقد وافق الأثينيون على أن تكون القيادة العليا للكورنثيين فى البحر ، والقيادة العليا للإسبرطيين فى البر . واشترك حملة التروس الأثينيون والإسبرطيون كما اشترك البحارة المجدفون الإيجينيون فى القتال جنباً إلى جنب . بيد أن هذه الأخوة فى

السلاح خلقت ظروفاً كان من شأنها أن تثير ارتياب كل طرف فى نوايا الطرف الآخر وتبعث على نفوره منه ، ولم تمض خمسون سنة حتى أدى هذا الشقاق إلى نشوب حرب آثينية بليبونيزية قوضت أركان الحضارة الهلينية . وكان من دواعى سرور الفرس أن يشهدوا كيف جلب الهلينيون على أنفسهم الخراب والدمار وذلك قبل مائة سنة من التاريخ الذى لقى فيه الفرس حتفهم على أيدى الهلينيين أنفسهم .

وفى هذه الأثناء ، كانت فترة نصف القرن (٤٧٨ - ٤٣٢ ق.م) التى شهدت تردى العالم الهلينى فى مهوى الانقسام الداخلى الذى انتهى به إلى الدمار والخراب ، هى ذاتها الفترة التى شهدت ازدهار الفنون فى هيلاس . وقد كانت هذه الفنون فى طور النماء منذ العصر المظلم الذى حل ببحر إيجة بعد أن انقشعت غمة حركة الهجرة الجماعية Völker wanderung بانبلاج عصر التوسع . بيد أن هذه الفنون ما لبثت أن تفتحت أكمامها على حين بغتة ، نتيجة لموجة الابتهاج التى أعقبت ذلك الانتصار الذى بدا عجيباً مشهوداً والذى انتشل الهلينيين من براثن أفدح الأخطار التى كانوا قد شهدوها حتى ذلك التاريخ . ولكن أجل هذا التفجر المباغت للعبقرية الخلاقة ، كان قصيراً قصر حياة نبات «النجوم» الذى ينمو فى حوض البحر المتوسط فى موسم الربيع ، بيد أن ثماره باتت تراثاً خالداً للهلينيين أنفسهم وللبشرية أيضاً من بعدهم .

وقد انبعث هذا الحافز على الخلق والإبداع فى جميع الشعوب الهلينية التى اشتركت فى الدفاع عن حياتها ضد الفرس . وكان لاصطدام

هيلاس الآسيوية التى كانت قد حصلت على استقلالها لفترة من الزمن ، بالإمبراطورية الفارسية المترامية الأطراف وبقبائل البدو المنتشرة فى آسيا الوسطى فيما وراء الإمبراطورية الفارسية ، أن اتسع أفقها الجغرافى ومن ثم قوى بهذا القدر أيضاً الحافز فى نفوس بنيها على الإبداع والخلق . وقد قام المؤرخ الكارى هيرودوتس الذى ولد رعية فارسية وعاش ليكتب تاريخاً عن بوادر ونتائج الحرب الفارسية الهلينية فى عامى ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م. بزيارة الجانب الأعظم من العالم القديم ، مبتدئاً بمضايق جبل طارق ومنابع النيل ومنتهياً بالصين - التى أطلق أحد المستكشفين الهلينيين ، وكان قد بلغ نهاية رحلته فى أقصى الشرق ، إلا أنه ضل علامات الطريق عند عودته - أطلق على سكانها المتحضرين اسم «الشماليين فى الجانب الآخر» . وشهدت فترة ما بعد الحرب نفسها نشأة مدرسة تجريبية للطب فى جزيرة كوس Cos تقترن باسم أبقراط Eippo-crates . أما فى بلاد اليونان الأوروبية المعاصرة فلم تكن المآثر التى استوحيت من هذا الحافز المشترك ، تخص الميدان العلمى ، بل تدخل فى مجال الأعمال الفنية الجمالية . وقد أحيا البليبونيزيون ذكرى موجة الابتهاج البانهلينى التى عمت الجميع ، بنحت مجموعة التماثيل التى أقيمت فى معبد الإله زيوس Zeus بأوليمبيا Olympia . ولكن الأثينيين بزوا البليبونيزيين وتفوقوا عليهم ، إذ كان الأثينيون هم الذين قدموا أعظم التضحيات فى سبيل القضية المشتركة كما أسهموا بالنصيب الأوفر فى

تحقيق النصر المشترك . وبلغت فنون الدراما والمعمار والنحت جميعها فى أتيكا غاية ازدهارها فترة السبعة والأربعين عاماً هذه .

وكانت الدراما (ومعناها الفعل الخاص بالطقوس الدينية) التى ظهرت فى أتيكا فى القرن الخامس بمثابة تغيير من حيث الشكل للأناشيد والرقصات الدينية التقليدية التى كانت ترتبط بعبادة الإله ديونيسوس Dionysus الطراقى الأصل الذى استوطن البلاد ، ولم يكن الهدف منها تثقيف النظارة أو تسليتهم . بل استدرار خصب الطبيعة بطريق السحر والإيحاء . وكان الموضوع الأصلى «للكوميديا» (التمثيل التنكرى) هو زواج الإله . أما موضوع «التراجيديا» (تمثيل الماعز) فهو موته . وكانت هذه عبارة عن استعراضات جماعية تقوم بها فرق راقصة من الممثلين الذين يلبسون الأقنعة كما فى مسرحيات «النو» اليابانية ، يتنكرون فى صورة حيوانات شهوانية بغية استثارة القوى التناسلية فى الطبيعة . ومثل هذا الفحش الذى كان يحاط بالتقديس كان كذلك من السمات الشائعة المعروفة للكوميديا وللمسرحية الرابعة (التى يطلق عليها اسم المسرحية الساتورية Satyros) فى مجموعة من أربع تراجيديات .

ولم تقطع الدراما الآتيكية صلتها قط بأصولها الدينية . فكانت تعرض دائماً فى مسرح ديونيسوس فى أثينا تحت رعاية الكاهن الآثينى التابع لهذا الإلة ، بيد أنها قد تغيرت وتبدلت خلال ثلاثة أجيال ، بفعل عبقرية شعراء مبدعين ، كان فى طليعتهم أيسخيلوس Aeschylus

(٥٢٥ - ٤٥٦ ق.م) ، وسوفوكليس Sophocles (٤٩٥ - ٤٠٦ ق.م). وقد قام هذان المبدعان الملهمان فى أول الأمر بفصل ممثل واحد ثم اثنين أو ثلاثة فى النهـاية من بين أفراد الجـوقة ، وبثـا بذلك ، فى خلال رقصـات الجوقة ، الحوار الدرامى ، كمـا لم يتقيدا بالمـوضوعين التقليديين المتعلقين بالإله ديونيسوس . فقد كانا يستمـدان موضوعاتهما من كافة الأساطير الهلينية ، ولم يقدما للمسرح أبطال الملاحم فحسب ، بل قدمـا بطلاته أيضاً . وهكذا فإنه إبان العصـر الذى قام فيه السـياسى الآثينى بركليس Pericles بمناشدة النسوة الأحياء فى أتيكا ألا يظهرن فى المجتمعات ، كانت النسـوة الأسطوريات اللائى ينتسبن إلى عصر الهجرة الجمـاعية - وكـان يقوم بأدوارهن مـمثلون من الرجال - يـسيطرن على المسرح الآتيكى . وهكذا حول الكتاب المسـرحيون أحد الطقوس الدينية القديمـة إلى فن دنيوى جديد . وبلغت أعـمالهم ذروة الازدهار فى أثناء هذا التغير والتحول .

أما المـثالون الآتيكيـون فقد وجـدوا فى القرن الخـامس فرصـتهم المواتية فى مشروع إعادة بناء المعابد وتماثيل الآلهة على معبد الأكروبول بأثينا الذى دمـره الفـرس عـام ٤٨٠ ق.م، ولا زالت الآثار البـاقـيـة ؛ البروبيلايا Propylaea (البوابة الأمـامية) ، ومـعبـد إلهة النصر غـير المجنحـة (وقد مزق عنهـا جناحيها حـتى لا تستطيع قط أن تطير بعـيداً عنهم) ، والإرخثـيوم Erechtheum (معبـد الزلزال) والبانثيون (مـعبد

العذراء) تقوم شاهداً على عبقـرية المهندس المعمارى إكتينوس Ictinus وزملائه ، التى ظهرت فى نقلهم فن صناعـة الخشب إلى هندسة البناء . ولنا أن نسلم بعبقرية المثال فيدياس Pheidias ، لأنه ليس لدينا سوى نسخ رخامية رديئة مـهوشة لتمثال أثينا Athènè الذى صنعـة من الذهب المطعم بالعاج والذى أقيم فى القدس الداخلى لمعبد البارثينون ، كما أنه يتحتم علينا أيضـاً أن نستند إلى قرائن أقل قوة من القرائن السـابقة إذا ما حاولنا أن نرسم فى أذهاننا صورة التمثـال الهائل الذى نحته للإلهة أثينا بروماخوس Athènè Promachos (سيـدتنا المقـاتلة فى الصـفوف الأولى). ويرجح أن نحت الإفريز والمـياطيب البديعة التى كانت بمـعبد البارثينـون (وتشاهد فى الوقت الحاضـر بالمتـحف البريطانى) قـد جرى تحت إشراف فيدياس أيضاً .

بيد أن أروع رمز علـى أثينا كما بدت خلال فتـرة «نصف القرن» لم يكن تمثالاً أو مبنـى أومسرحية بل كان نفسـاً إنسانية . كان سقراط بناء عملاقاً ينـتسب إلى فئة الدخل الخاصة بالجنود حـملة التروس ، له وجه يشبه قناع الممثل المسرحي كما يبدو فى المسرحيات الساتورية ، ولكنك إن التـقيت به فلـن تلاحظ قسـمـات وجهـه ولن تفكر فى المـهنة التى يحترفها . فستأسرك الشخصية التى تختفى وراء هذا الوجه وستجد نفسك مضطراً إلى أن تطيل النظر والتأمل فى الأفكار التى استخلصها من ذهنك بأن حملك على الـدخول فى حوار مـعه ، خاصة وإن ركـز عليك نظرته الشهيرة التى تشبه «تحديق الثـور» . وكان له أصدقاء من جميع الطبقات

فى أثينا وفى كثير من الدول الأخرى أيضاً . بما فى ذلك طيبة «على سبيل المثال» التى كانت فى المجال الدولى على علاقات غير طيبة مع أثينا خلال الفترة التى عاشها سقراط . بيد أن سقراط كان يتجاهل الخصومات الدولية عندما كان يختار أصدقاءه الشخصيين ، رغم أنه كان يحرص أشد الحرص على أداء الواجبات العسكرية وغيرها من الواجبات التى تفرضها عليه حقوق المواطنة الأثينية ، فى ظل القانون الآتيكى . بيد أنه كان يشوب مشاعر الود والإعجاب التى كان يبعثها فى الأشخاص الذين يعرفونه عن كثب ، شعور آخر بالرهبة والخوف . لأن الروح التى كانت تعمل فى هذه الشخصية الغريبة لم تكن بروح إنسان عادى . أعلن وحى دلفى ذات مرة أنه أحكم بنى البشر جميعاً ، وكان سقراط يعمل بوحى نداء داخلى يصدر من أعماقه اعتاد أن يسميه «روحه الأليفة» . ودائماً ما كان هذا الإلهام يأخذ أسلوباً سلبياً فى الإشارة عليه مثلاً بألا يفعل كذا . ولم يكن سقراط يعصى هذا الإلهام قط . وما إن حل عام ٤٢٣ ق.م. حتى كان صيته قد أصاب ذيوعاً كبيراً مما حدا بالكاتب المسرحى أرستوفانيس Aristophanes أن يتخذه بطلاً هزلياً لإحدى مسرحياته الكوميدية . فصور سقراط فى مسرحية «السحاب» على أنه أستاذ لعلم الظواهر الجوية والسفسطة (وهو فن التلاعب بالألفاظ الذى ابتدع فى صقلية فى أواخر فترة «نصف القرن») . بيد أن هذه الصورة الهزلية كانت تقف على النقيض تماماً من الأصل الذى نقلت عنه . وكان سقراط ، فى مرحلة مبكرة من تاريخ تطوره الذهنى ، قد تحول عن دراسة

العلوم الطبيعية التى استحدثها الفلاسفة الهلينيون الآسيويون فى القرن السادس ق.م والتى كانت تمثلها أصدق تمثيل ، خلال حياة سقراط ، مدرسة أبقراط التجريبية فى الطب التى تقع فى جزيرة كوس الآسيوية . وكان سقراط قد أذهلته الاكتشافات التى توصل إليها أحد الفلاسفة الآسيويين المعاصرين ، ألا وهو أنا كساجوراس من كلازومينا Anaxagoras of Clazomenae ، العالم الطبيعى الشهير الذى انتهى إلى الرأى القائل بأن الحقيقة المطلقة ليست هى المادة بل هى العقل . فوجه سقراط اهتمامه منذ ذلك التاريخ إلى دراسة عقول البشر وتأمل سلوكهم ، واستخدم فى ذلك فن الجدل ، لا لكى يتغلب على غيره من الناس بل كى يجعل منهم شركاء له فى البحث عن الحقيقة .

وكان من بين افتراضات سقراط أن ارتكاب الجرم لا يرجع إلى روح الشر بل إلى الجهل . فلو أن مرتكب الجرم كان يدرك أنه يرتكب جرماً، لما أقدم عليه ، فالمرء يحاول دائماً أن يفعل الخير كما يبدو لناظريه . وهذه النظرة التى تعد صفة مميزة لسقراط كانت أيضاً صفة مميزة للخلق الهلينى ، ذلك لأنه كان من نقاط الضعف الثابتة لدى الهلينيين ، نزوعهم إلى ترجمة المسائل المعنوية الأدبية إلى عبارات غير أدبية . فقد اتسع استعمال لفظة «كالوس» Kalos بمعنى «جميل» ، فى مصطلحات اللغة اليونانية السائدة فى عصر سقراط ، بحيث أصبحت تعنى أيضاً «طيب» بمعناها الأدبى الخلقى ومعناها الجمالى . بيد أن هذه

المحاولة الرامية إلى الحط من المسائل الأدبية الخلقية بالقول بأنها مسائل تتعلق بالإحساس والذوق أو بالمعرفة ، ما لبثت أن عصفت بها الأدلة والقرائن. فلم تنكرها حقائق الحياة التى تمس معيشة الفرد فحسب ، بل دحضتها أيضاً بعض الأحداث العامة الشهيرة التى وقعت خلال ذلك العصر . وعلى سبيل المثال ، فإنه وإن كان من الواضح الجلى أن أعمال فيدياس وإكتينوس الفنية بقلعة أثينا كانت غاية فى الجمال ، إلا أنه كان من الواضح الجلى كذلك أن الإجراء الذى جعل بالوسع تحقيق هذه الروائع كان إجراء غير طيب من الناحية الأدبية ، فضلاً عن أن مثل هذا الإجراء الأثيم لم يتخذ عن جهل بحقيقته . ففى سنة ٤٤٣ ق.م ، وعندما كان سقراط فى نحو السابعة والعشرين من عمره ، أدلى الشعب الأثينى ، بإيعاز من بركليس بأصواته مؤيداً مشروعاً يقضى بتمويل عملية استبدال المعابد والتماثيل التى دمرها الفرس فى أثينا عام ٤٨٠ ق.م بغيرها ، من الاعتماد الذى كانت قد جمعت حصيلته من حلفاء أثينا .

وكان هذا العمل أبعد ما يكون عن الأمانة والشرف ، لأن الغرض الذى من أجله وافق الحلفاء فى الأصل على المساهمة بالمال ، كان يختلف عن ذلك كل الاختلاف . فقد كان الهدف هو تدبير الأموال اللازمة لتهيئة أسباب الدفاع المشترك ضد الإمبراطورية الفارسية . ولم يكن الشعب الآثينى فى إجرائه أيضاً يتوخى جانب العدل ، لأنه كان من قبل ، يحصل الأنصبة قسراً من الحلفاء ، وإذا به الآن يوجهها وجهة غير

صحيحة دون إذن منهم . وفى الوقت ذاته ، أحيط الأثينيون علماً بحقيقة القضايا الخلقية المشينة التى ينطوى عليها هذا العمل ، لأن المشروع الذى أقروه بإيعاز من بركليس لقى اعتراضاً من جانب خصم بركليس السياسى ألا وهو ثوكيديديس Thucydides بن ميليسياس Melesias . فقد أهاب ثوكيديديس بإخوانه المواطنين أن يستجيبوا لنداء الأمانة والشرف فى نفوسهم ، ولكنهم أيدوا رغم ذلك مشروع بركليس ، لأن الموافقة عليه كان فيها الضمان لأن ينفق هذا الاعتماد المخصص للدفاع على صورة أجور تؤول إلى المواطنين الآثينيين ، إذا ما اشتغلوا عمالاً فى قطع الأحجار وسائقين لعربات النقل وبنائين ، لاسيما وأن إبرام الصلح مع الفرس قد أنهى عملهم السابق كبحارة مجدفين فى الأسطول . وحسبنا هذا الإجراء الشائن ، دليلاً قاطعاً على أن سقراط كان ممعناً فى التفاؤل إذ تصدى لتحليل الطبيعة البشرية على هذا النحو .

الفصل السابع

فشل إسبرطة وأثينا في تحقيق الوفاق السياسى

اختتمت فترة نصف القرن التى أزدهرت فيها الحضارة الهلينية إثر الانتصار المشترك الذى أحرز على الفرس فى ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م ، وذلك بنشوب حرب شعواء مدمرة بين الآثينيين والبليبونيزيين فى سنة ٤٣١ ق.م وقد اضطرت بقية أجزاء العالم الهلينى إلى الدخول فى هذا الصراع ، كما لم يقدر للحضارة الهلينية أن تشفى من هذه الإصابة التى جلبتها على نفسها إلا بمقدار محدود ، وإلى حين أيضاً . وكانت لهذه الكارثة جذورها فى التاريخ السياسى والعسكرى الذى مر خلال الخمسين سنة الماضية ، لأن هذه الفترة لم تكن تمثل عصراً ذهبياً إلا فى حدود ميدانى الفنون البصرية والشعر . وكانت الحرب الآثينية البليبونيزية بين عامى ٤٥٩ ، ٤٤٥ ق.م نذيراً بما سيتكشف عنه المستقبل ، أما فيما قبل هذا التاريخ فقد كانت بذور الشقاق قد بثت خلال الفترة ذاتها التى كان

البليبونيزيون والآثينيون يقاتلون فيها جنباً إلى جنب ضد الفرس عند غزوهم لبلاد اليونان الأوروبية .

وكانت جميع الدول التى تطوعت فى عام ٤٨٠ ق.م للاشتراك فى حركة المقاومة الهلينية ، بما فيها أثينا ، قد قبلت القيادة اللاكيدايمونية . أما حق إسبرطة فى قيادة العالم الهلينى ، فكان يستند إلى قوة فيلقها من حملة الدروع وبسالته أيضاً وإلى علاقة «حسن الجوار» التى أقامتها مع المدن اللاكيدايمونية التابعة لها (Perioeci) ومع حليفاتها فى خليج كورنثوس . بيد أن جيش إسبرطة النظامى العامل الذى يتألف من «نظراء» إسبرطيين إنما كان يعتمد على سخرة رقيق الأرض الميسينيين ، ولم تكن مهمة إخضاع هؤلاء العبيد حتى بالنسبة لذلك المجتمع الإسبرطى الذى اصطبغ بصبغة عسكرية تامة ، تسمح له بفائض من القوة يمكنه من العمل فيما وراء حدود إسبرطة ذاتها . ثم إن اضطبار الإسبرطيين على انكسارهم المخزى الذى لحق بهم فى عام ٥٠٨ ق.م عند تدخلهم العسكرى الثانى فى شئون أثينا الداخلية ، إنما يدل على أن الإسبرطيين كانوا يدركون بالفعل ، قبل أن يواجهوا خطر العدوان الفارسى على هيلاس ، أنهم قد استنفدوا كل طاقاتهم ، ثم إنه عندما اقتضتهم الظروف أن يقوموا على الرغم منهم بدور الزعامة على صعيد بانهلينى ، قبلوا ذلك دون شغف أو حماس .. ولاشك فى أن واقعة تضحية الملك ليونيداس وجنوده الثلاثمائة بأنفسهم فى ثرموبولاى ،

كانت أروع وقائع الحرب الهلينية البليبونيزية قاطبة وأشدها استثارة للخيال، ولكنها لم تسهم بشيء في الانتصار الذي حققه الحلفاء فيما بعد. وعلى النقيض تماماً من تاريخ الجندي الإسبرطي في ميدان القتال، فقد كان تاريخ الدولة الإسبرطية هزيلاً بائساً . فبعد أن فشلت إسبرطة في مد يد العون لأثينا في اللحظة الحاسمة عام ٤٩٠ ق.م ، كادت تمنى بالفشل مرة أخرى في عام ٤٧٩ ، وكانت السياسة التي تسير عليها طوال هذه الحقبة هي التملص من التزاماتها كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . كما أنه في اللحظة الدقيقة من حملة سنة ٤٨٠ ق.م بذلت قصارى الجهد كي تتسبب في خسارة الحلفاء للحرب إذ أشارت بانسحاب أسطول الحلفاء من سلاميس إلى خليج كورنثة . كما اقترحت إثر الانتصار المشترك في عام ٤٧٩ الذي حرر بلاد هيلاس في كل من القارتين الآسيوية والأوروبية، أن يجرى نقل الهلينيين الآسيويين من أوطانهم التي تحررت واستقلت إلى موانىء المدن الدول الهلينية الأوروبية التي كانت قد انحازت إلى جانب الفرس ، وأشارت أيضاً بأن تبقى الحصون الأثينية عارية من وسائل الدفاع لضمان عجز الفرس عن استخدام أثينا قاعدة لهم، في حالة إذا ما قاموا بغزو بلاد اليونان الأوروبية مرة أخرى .

وفضلاً عن ذلك فإن ذلك المجد الذي أضفاه على إسبرطة مصرع الملك **ليونيداس** البطولي عام ٤٨٠ لم يلبث أن ذهب أدراج الرياح من جراء المسلك الشائن الذي سلكه **بوسانياس** Pausanias خليفته المؤقت والوصي على العرش . وكان بوسانياس يتولى القيادة العليا لقوات

الحلفاء فى بلاتايا عام ٤٧٩ ، وكان من سوء حظ إسبرطة ، أنه لم يلق مصرعه فى ساحة الشرف مثل ماردونيوس ، بل عاش ليتولى قيادة قوات الحلفاء التى حاصرت الحامية الفارسية فى بيزنطة . وعند ذلك شرع الوصى على العرش الإسبرطى فى محاكاة عظماء الفرس فى مسلكهم واقتضى الأمر استدعاءه إلى إسبرطة ، مجللاً بالعار ، بناء على طلب الحلفاء العاجل . وقد برهن سقوط بوسانياس عن العرش على أن «النظير» الإسبرطى الذى ينشأ فى ظل نظام وطنى غريب من شأنه أن يكبت النمو العادى المألوف للطبيعة البشرية ، عرضة للتردى فى مهوى الفساد الخلقى إذا ما أتيحت له الفرصة لكى يتذوق طعم الحرية ويمارس قدراً من السلطة عن طريق إرساله للخدمة العسكرية خارج بلاده . لقد كان فى ذلك خطر يتهدد نظام الحكم نفسه ، فضلاً عن إساءته إلى سمعة إسبرطة فى هيلاس وإضراره بهيبتها . وقد قررت إسبرطة ، خشية أن تتعرض مرة أخرى لمثل ما تعرضت له من جراء نزق بوسانياس ، كما تبعتها فى ذلك حليفاتها فى خليج كورنثوس ، الكف عن الحرب ضد الفرس ، كما لم تبد أية معارضة عندما وضع الهلينيون الآسيويون الذين نالوا حريتهم ، أنفسهم تحت قيادة أثينا بدلاً منها .

ولو كان قدر للحلف الهلينى الذى أوقع الهزيمة بالفرس فى ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م أن يظل متماسكاً ، لكان قد توفر لهذه الكتلة من الدول - بمساندة الهلينيين الآسويين الذين تم تحريرهم - قدراً من القوة يتيح لها

أن تتحـول إلى اتحاد بانهلينى عام . بيـد أن تحول الهلينيين الآسـيويين بولائهم من إسـبرطة إلى أثيـنا عام ٤٧٨ ق.م أدى إلى انقـسام العـالم الهلينى إلى كتل ثلاث. كانت هناك الكتلة البليـبونيزية التى تكونت قبل الحرب تـحت زعامة إسـبرطة. وكـان هناك اتفاق مـا قبل الحـرب، فى صقليـة ، بين إمارتى سـرقوسة وأكـراجاس. ثم تألفت الكتـلة الجديدة تحت زعامة أثينا . وضم الحلف الجديد الدول الهلـينية الآسيوية ، سواء التى كـانت تقع منهـا داخل القـارة أم تقع فى جـزر الأرخـبـيل الإيجى وتخضع لحكم الفرس (وتشمل هذه جميع دول جـزر بحر إيجة فيما عدا جزيرتى ميلوس Melos وثيرا Thera ، ودول جزيرة كريت) ، كما ضم الدول الواقعة بجزيرة أيوبويا Euboea ، التى لم تخضع للحكم الفارسى إلا فى عامـى ٤٨٠ و ٤٧٩ ق.م فحسب ، وإن كـانت أثينا قد احـتلت بعض أجزائها عام ٥٠٦ ق.م

وتقلد الآثينيـون زعامة أحـدث الكتل الثلاث وأضخـمها بفـضل ما أسهموا به من نصيب كبير فى خـدمة القضية المشتركة فى ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م فقد بذل أسطولهم ، فـى سبيل كسب الحرب ، من الجـهود ما لم يبذله الفيلق اللاكـيدايمونى بأكمله ، كما أن مـا أبدته نساؤهم وأطفالهم من جلد وصبر وأناة إبان محنة إخـلاء دورهم فى أراضى اليونان الأصلية ، يكاد لا يقل بطولة عـما قام به الثـلاثمائة جندى بقـيادة ليونيداس من تضحيـتهم بأنفسهم فى ميـدان القتال ، كما أنه كـان ذا أثر أكبر من أثر

هذه التضحية فى إحباط خطط الغزاة الفرس . لقد ضحى الأثينيون بدولتهم من أجل إنقاذ هيلاس . وكان البذل والتضحية والفداء من جانبهم لا من جانب الإسبرطيين . وقد قام الأثينيون بهذا الدور مستلهمين نظام حكمهم الديمقراطى ، كما أدى انتصار أثينا إلى ازدهار هذا النظام السياسى الذى اتخذته شعاراً لها . وشهدت فترة «نصف القرن» النظام الديمقراطى ينتشر فى جميع أنحاء العالم الهلينى . إذ سعت أرجوس إلى أن تبعث فى كيانها روحاً جديدة فاتجهت إلى الأخذ بالنظام الديمقراطى وذلك قرابة عام ٤٧٠ ق.م كما أن مدينة إليس Elis حليفة إسبرطة المتخلفة أخذت بالنظام الديمقراطى فى ٤٧١ - ٤٧٠ ق.م. وحذت سرقوسة حذوها عام ٤٦٦ ق.م ، وكان من نتائج ذلك التعديل ، غير المباشرة ، أن انقسمت الإمارة السرقوسية من جديد ، إلى قسم يشتمل على المدن اليونانية وقسم يضم المدن الصقلية الوطنية .

كانت هذه هى العوامل التى كان من شأنها أن تثير النزاع بين أثينا وإسبرطة فضلاً عن أن السياسى الآتيكى الداهية ثيميستوكليس Themistocles قد اتهم بأنه يتحين الفرص لتحطيم قوة إسبرطة ، رغبة منه فى أن يجنب نفسه المتاعب فى المستقبل . غير أنه لم يكن من السهل إقناع الأثينيين بأن ينقلبوا ، بين عشية وضحاها ، على حليفتهم السابقة لكى يمزقوها إرباً . وعندما شكا البليبونيزيون ثيميستوكليس إلى مواطنيه، اضطر إلى الفرار نجاة بنفسه وقضى بقية حياته فى خدمة

إمبـراطور فارس ، واعـتبـر ذلك نصراً سـياسـياً لكيمون Cimon بن ميلتياديس Miltiades الذى كانت سياسته التى رسمها لأثينا ترمى إلى الإبقاء على الـعلاقات الطيـبة مع إسبـرطة مع تركيـز الجهـود لمواصلة الحرب ضد بلاد فارس . وكان الفضل فى الشـهرة والمكانة اللتين نالهما كيمون فى أثينا يرجع إلـى تمكنه من سـحق هجـوم فارسى مـضـاد فى مـعركـة حاسـمة وقـعت فى عام ٤٦٦ ق. . تـقريبـاً على شواطئ نهـر أوريميدون Eurymedon فى بمفيليا Pamphilia ، التى تتوسط ساحل آسيا الصغرى . بيد أن الحياة السياسية التى عاشها هذا الرجل الذى كان أعظم أصدقاء إسبرطة فى أثينا ، ما لبثت أن تحطمت على صخرة الحقد المتزايد الذى كان يكنه الشعبان الإسبرطى والأثينى لبعضهما البعض .

وفى عام ٤٦٤ ق.م أتاح زلـزال مدمر وقع فى إسـبرطة ، الفـرصة لعبـيد الأرض للقـيام بثورة أخـرى من سلسلة ثوراتهم وحـوادث تمردهم المـتكررة . وقد دعـا الإسبـرطيـون حلفاءهم إلـى مدهم بالمـساعـدات العسكرية، كـما أقنع كيمون الأثينيين بـإرسال فرقـة من الجنود . وكان هؤلاء الجنود يقومون بعملهم فى غير حماس أو إقبال ، لأنهم لم يكونوا ليروا ثمة ما يدعـو لأن يكلفوا أنفسهم عبء مساعـدة الدول المنافسة لهم فى هيلاس ، لكى تستعيد قوتها ، كما كانوا ينفرون من أمر تقديم العون فى سبـيل فرض النيـر الإسبـرطى من جديد على رقـاب رقيق الأرض . وعلمت الحكومة اللاكيدايمونية بمـشاعرهم ، فطلبت إليهم الانسحاب ،

وعجلت هذه الإساءة من وقوع ثورة فى أثينا . وما لبث الشعب الآثينى أن انقاد إلى سياسيين متطرفين هما إفيالتيس Ephialtes وبركليس Per-icles . وفى الجبهة الداخلية ، أسفر استفتاء أجرى على قطع الفخار ، إلى الحكم على كيمون بالنفى مدة عشر سنوات وذلك فى عام ٤٦١ ق.م، كما ألغيت بعض القيود الدستورية المتخلفة التى كانت تقيد من حرية النظام الديمقراطى فى أثينا . وفى الوقت ذاته عقدت أثينا اتفاقات ودية مع جارة إسبرطة وعدوتها اللدود فى البليبونيز ، ألا وهى أرجوس ومع شعب تساليا أيضاً . وكان هذان الشعبان من الشعوب الهلينية الأوروبية الرئيسية الثلاثة التى انحازت إلى جانب الغزاة الفرس من ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م. ولم تحاول أثينا أن تنشئ علاقة صداقة مع الدولة الثالثة وهى جارتها وعدوتها اللدود طيبة ، ولكنه كان من المنطقى أن تعقد صلحاً من جانبها مع الإمبراطورية الفارسية خاصة وأن رأيها قد استقر على أن إسبرطة هى «العدو رقم واحد» بالنسبة لها . ولعل ثيمستوكليس كان بسبيل أن يقدم على محاولة إقناع الأثينيين بأن يقطعوا كل هذا الشوط ما لم يكن قد حكم عليه بالنفى فى واقع الأمر ، ولكنهم ساروا تحت زعامة بركليس (وكان افيالتيس ، زميل هذا السياسى الشاب ، الذى كان يكبره سناً ويفوقه تطرفاً ، قد اغتيل) ، الذى كان يسير فى سياسته على نهج سياسة كيمون التى تقضى بمواصلة الحرب ضد الإمبراطورية الفارسية على نطاق بالغ الجرأة والطموح بعد أن نقض الأثينيون سياسة «حسن الجوار» تجاه إسبرطة وهى السياسة التى أنقذت أثينا من خطر

القتال فى جبهتين فى وقت واحد . وفى عام ٤٦٠ (؟) ق.م انشقت المدينة الدولة الواقعة على خليج كورنثوس ألا وهى ميجارا Megara ، عن الاتحاد البليبونيزى ، وانضمت إلى الاتحاد الآثينى ، ومادامت ميجارا قد وقفت إلى جانب أثينا فلم يكن ثمة خوف من وقوع غزو بليبونيزى على أتيكا من ناحية البر .

وفى عام ٤٦٢ ق.م قام المصريون بثورة من ثوراتهم المتكررة ضد الحكم الفارسى ، وفى ٤٦٠ - ٤٥٩ ق.م جرد الأثينيون بناء على مناشدة المصريين عونهم ، حملةً بحرية كبيرة إلى أعالى النيل وبذلك أورطوا أنفسهم فى عمليات حربية طويلة الأمد ، واسعة النطاق ، فى ذلك الميدان القصى البعيد . ولم يمض وقت طويل على وفاء الأثينيين بهذا الالتزام المجحف القاصم للظهور ، حتى هاجموا البليبونيز وسدوا الطريق على أيجينا ؛ غريمتهم فى الميدان التجارى ، ورد الإسبرطيون وحلفاؤهم البليبونيزيون على ذلك فى عام ٤٥٧ ق.م ، بأن عبروا خليج كورنثوس إلى بويوتيا وقاموا بتحصين طيبة من جديد ، وكانت أسوارها (كما يمكننا أن نستنتج) قد جردت من وسائل الدفاع ، عقاباً لها على موقفها من الغزو الفارسى . فانتقم الآثينيون لذلك بأن احتلوا منطقة وسط اليونان جميعها ، فيما عدا طيبة والأراضى التابعة لها حتى ممر ثرموبولاى غرباً ، وأجبروا أيجينا على التسليم ، بيد أن هذا الانتصار الذى أحرزته أثينا فى جبهة مخالفة لم يكن لينقذها من كارثة محققة

بمصر . فإن هجوماً فارسياً مضاداً ما لبث أن شل حركة الحملة الأثينية في أول الأمر ثم أبادها عن بكرة أبيها في ٤٥٥ - ٤٥٤ ق.م. وبعد عودة كيمون من المنفى عام ٤٥١ نصبته أثينا قائداً لجيشها ضد الفرس ثم نفضت يدها من اليونان بأن عقدت هدنة مع البليبونيزيين مدتها خمس سنوات ، مقابل التخلى عن تحالفها مع أرجوس . بيد أنه بعد وفاة كيمون ، دون أن يفلح فى تحويل دفة الحرب الأثينية الفارسية لصالح أثينا ، عقدت أثينا صلحاً مع الإمبراطورية الفارسية فى ٤٥٠ - ٥٤٩ ق.م وقد أزاح ذلك عن كاهلها عبء حرب ما فتئت تخوضها بين الحين والحين منذ خمسين عاماً . ولكن ذلك لم يحل فى سنة ٤٤٧ ق.م دون ضياع جميع الفتوحات التى كانت قد أحرزتها فى اليونان الوسطى قبل عشر سنوات ، كما أنه عندما نفدت مدة هدنتها مع البليبونيزيين فى عام ٤٤٦ ق.م كادت أن تخسر أيوبويا Euboea ، ولكنها خسرت ميجارا بالفعل ، التى كانت قد انشقت عن الاتحاد البليبونيزى وانضمت إليها عام ٤٦٠ (؟) ق.م. ومهدت ثورة ميجارا السبيل لهجوم بليبونيزى وشيك على أتيكا ، واضطرت أثينا عام ٤٤٥ إلى عقد صلح مع الاتحاد البليبونيزى تم الاتفاق بموجبه على صون السلام مدة ثلاثين عاماً .

والحقيقة أن أثينا قد أثقلت فى طيش كواهل بنيها ، خلال الفترة التى دانت فيها لزعامة بركليس وتبلغ ستة عشر عاماً بين ٤٦٠ و ٤٥٥ ق.م، بأعباء تتجاوز حدود طاقتهم . ويسجل نقش آل إلينا ، أنه فى

خلال موسم حربى واحد وهو موسم ٤٥٩ - ٤٥٨ ق.م، خسرت إحدى «الأمم» العشر التى قسم إليها الشعب الأثينى بموجب دستور عام ٥٠٧ ق.م، ما يقرب من ١٧٠ جندياً قتلوا فى ميادين القتال بقبرص ومصر وفينيقيا وذلك خلال المعارك التى نشبت مع الفرس ، وفى هاليس Halieis وأيجينا وميجارا حيث دارت المعارك مع البليبونيزيين . ومن المرجح أن خسارة «الأمم» الأثينية التسع الباقية وخسارة المستوطنين الأجانب فى العام ذاته ، بلغت الدرجة نفسها من حيث ضخامة العدد ، وتعتبر هذه نسبة فادحة من الخسارة فى الأرواح ، حتى وإن قدر المجموع الكلى لسكان أثينا الذكور الذين كانوا فى سن التجنيد إبان هذه الحقبة ، سواء من المقيمين الأجانب أم من المواطنين بأربعة آلاف أو خمسة آلاف نسمة . غير أن بركليس كان قد وعى الدروس التى لقنتها إياه السياسة الخارجية ، ومن ثم فإنه خلال الخمس عشرة سنة التى انتهت بسقوطه عام ٤٣٠ ق.م. لم يجر بلاده إلى أية حرب كان يعتقد فى قرارة نفسه أن من الممكن تجنبها ، ولكنه قطع بأثينا أشواطاً أخرى فى سبيل تحويل الاتحاد الهلينى المعادى للفرس إلى إمبراطورية آثينية ، وكانت هذه الخطوة التى جرت إلى إفساد العلاقات أكثر فأكثر بين أثينا وحلفائها السابقين هى السبب الأساسى فى الحرب الثانية التى نشبت بين أثينا وبين الاتحاد البليبونيزى والتى انتهت بتفكك الإمبراطورية الأثينية وانهيار الحضارة الهلينية .

وقد استهل الاتحاد الذى عقد فى عام ٤٧٨ ق.م، من أجل الدفاع المشترك ، بين أثينا والدول الهلينية التى تحررت من الحكم الفارسى ، حياته ، استهلالاً طيباً . وكانت المهمة الأولى المدرجة فى جدول أعمال الحلفاء الجدد هى تقرير الأنصبة التى ينبغى على الدول الأعضاء أن تسهم بها من أجل القضية المشتركة ثم الصورة التى ستكون عليها هذه الأنصبة. وقد أنيطت مهمة التفاوض فى هذا الشأن إلى السياسى الآثينى أرستايديس Aristeides ، فقام بمهمته متوخياً جانب القسط والعدل وظهر فى صورة وضاءة كريمة تقف على النقيض تماماً من المسلك الشائن الذى سلكه أخيراً بوسانياس الوصى على العرش الإسبرطى . وثمة قانونان فارسيان اهتدى ارستايديس بهما فى وضع الأسس التى سار عليها فى هذا الصدد . فقد كان أرتافرينيس Artaphrenes شقيق داريوس الأول قد أعاد تقدير الجزية التى كانت تؤديها المدن الهلينية الآسيوية ، وذلك بعد قمعه لثورتها عام ٤٩٤ ق.م ، كما حملها على أن تعقد معاهدات تجارية فيما بينها حتى يتسنى الفصل بالطريق القانونى فى المنازعات التى تنشأ بين مواطنى الدول المختلفة حول المسائل التجارية ، بدلاً من السير على العادة البربرية القديمة التى كانت تقضى باحتجاز أية ممتلكات خاصة بمواطنى دولة الطرف الآخر فى النزاع ، بطريق القوة ، حتى يوفوا بديونهم . كانت هذه أسساً معدة كاملة تصلح للتطبيق عند إقامة اتحاد اختيارى بين أثينا والدول التى كانت قد حررتها هى بالفعل

من الحكم الفارسى . أما العبء الرئيسى الذى كان ينبغى أن تواجهه اعتمادات الاتحاد الجديد فقد تمثل فى تكاليف إنشاء أسطول مشترك ، وكان من الواضح أن أثينا ستمضى فى الإسهام بالنصيب الأكبر من السفن والبحارة ، نظراً لأنه كان لديها بالفعل أسطول عظيم . وفى وسع الدول الأخرى التى ليست على قدر كبير من الثراء أن تقدم فرقاً بحرية . بيد أن تكاليف بناء أو تأثيث أو صيانة سفينة حربية واحدة من الطراز الجديد الباهظ الثمن ، الذى بدأت أثينا فى صنعه منذ ٤٨٢ ق.م، كان يتجاوز حدود إمكانيات كثير ، بل غالبية ، الدول الأعضاء فى الاتحاد . وعلى ذلك فقد تم الاتفاق توخيا للعدل ومحافظة على مستوى الكفاءة لدى الأسطول ، على أنه بوسع أية دولة ، بدلاً من أن تقدم سفينة أو عدة سفن ، أن تدفع نصابا سنوياً من المال ، يقدره أرستايديس ويودع فى خزانة تابعة للاتحاد تقام على جزيرة ديلوس Delos المقدسة . وينظر إلى هذا الدخل على اعتبار أنه معونة مالية للأسطول الآثينى ، بالنظر إلى أن أثينا كانت تقوم بتوفير الجانب الأعظم من السفن .

وحازت هذه التدابير القبول من جانب جميع الأطراف المعنية التى تقبلت الأمر بصدر رحب . ونال أرستايديس على تقديراته المقسطة الحكيمة ، لقب «العادل» . بيد أن المتاعب ما لبثت أن ثارت فى وجه الاتحاد الجديد . فعندما حاولت الدول الأعضاء – وبخاصة تلك الدول التى لم تعد حدودها بعد ، مثل الدول الأيوبية وناكسوس Naxos

وثاسوس Thasos ، تتاخم حدود الإمبراطورية الفارسية مباشرة - أن تنشق عن الحلف ، نظرت أثينا إلى هذا الانشقاق على أنه خيانة عظمى، وقامت بإخضاع المنشقين بحد السيف ، ورغبة منها فى ضمان عدم تمكنهم من القيام بمحاولة أخرى ، حرمتهم من سفنهم الحربية وفرضت عليهم أنصبة مالية سنوية باهظة ، وفى عام ٤٥٤ ق.م نقلت خزانة الاتحاد من ديلوس إلى أثينا (بحجة أن ديلوس أصبحت معرضة لهجوم الفرس بعد كارثة الأسطول الآثينى فى مصر ، الأمر الذى لم يكن يدعمه أى دليل). وحين عقدت أثينا الصلح مع بلاد فارس فى ٤٥٠ - ٤٤٩ ق.م ، كان عدد دول الاتحاد التى مازالت تقدم السفن ، بغض النظر عن أثينا ، لا يتجاوز السبع دول ، وهذه هى ساموس Samos وخيوس Chi-os وخمس دول تقع فى جزيرة ليبوس Lesbos . أما بقية الدول فقد كانت تؤدى جميعها الجزية .

وكان على الدول الواقعة على الشاطئ الغربى للقارة الآسيوية وعلى الجزر المجاورة للشاطئ أن تتكبد فى سبيل تحررها السياسى (كما كان الحال مع تريستا فى عام ١٩١٨ وما تلاه) خسارة اقتصادية فادحة . إذ قطع ذلك الصلة بينها وبين أسواقها التجارية فيما وراء الساحل داخل الإمبراطورية الفارسية ، وذلك لقيام ستار عسكرى فيما بينهما . وقد وضعت معاهدة الصلح الأثينية الفارسية لعام ٤٥٠ - ٤٤٩ ق.م، هذه الدول ، من الناحية العسكرية ، تحت رحمة الطرفين المتعاقدين ، إذ

نصت على تجريد حصونها من وسائل الدفاع . ويبدو أنه لم يتفق ضمن نصوص هذه المعاهدة على أن تستأنف هذه الدول نشاطها التجارى الضائع مع الأقطار الفارسية الواقعة فيما وراء الساحل ، أما وقد وضعت الحرب أوزارها ، فإن جميع الدول التى كانت تسهم بأنصبة مالية فى اتحاد ديلوس أصبحت تنتظر على أية حال أن يزاح عن كاهلها هذا العبء المالى .

ولكن هذا الأمل الذى لم يكن فى الواقع ينطوى على مغالاة أو شطط ، أدى إلى أزمة سياسية داخلية فى أثينا . فمن بين الآثار التى ترتبت على تكوين اتحاد ديلوس ، على النمط الذى اتخذه خلال الثلاثين سنة الماضية ، أن أصبح العمل فى وظائف البحارة المجدفين فى الأسطول الآثينى من بين المصادر الرئيسية للرزق بالنسبة لسكان المدن الذين لا يملكون أرضاً وهم الغالبية العظمى من شعب أتيكا ، وكانت هذه الأجور تدفع من الاعتماد المالى المتجمع من أنصبة حلفاء أثينا . وكان لابد أن تنتشر البطالة على نطاق واسع فى أثينا ، ما لم توجد السبل إلى استمرار الموارد المالية اللازمة لدفع الأجور نفسها للعدد ذاته من المواطنين الآثينيين فى مقابل وظائف أخرى غير الخدمة فى الأسطول. فهل كان من الممكن إيجاد وظائف جديدة تدفع من أجلها هذه الأجور إلى بحارة الأسطول الآثينيين المسرحيين ؟ ثم إنه ، إذا لم يكن فى وسع ميزانية أثينا الوطنية الخاصة أن تتحمل هذا العبء المالى الرهيب بصفة دائمة ، فهل من العدل أن يجرى تمويله من الأنصبة التى

تجبى من الدول الحليفـة ، وقت السلم ؟ لقد كان بركليس سياسياً نبيلاً (فقد كان سليل أسرة أرستقراطيـة من ناحية أمه) وكان الفضل فى انصياع الشعب الأثينى له وخـضوعه لزعامـته يرجع إلى تقدير هذا الشـعب لما يتمتع به بركليس من صفات طيبة . بيد أن زعـامته لم يكن يقدر لها ، فى مثل ذلك النظام الديمـقراطى الذى كانت تسيـر عليه أثينا آنذاك ، أن تصمد أمام كارثة التعطل الشامل . وعلى ذلك فقد أخذ بركليس بالرأى القائل بأن أنصبة الحلفاء الماليـة التى تؤدى للخزانة المشتركة إن هى إلا أقســاط تدفع لأثينا للتأمين ضــد خطر قيام الفرس بعـدوان جديد ، وأنه طالما واصلت أثينا أداء رسالتها ، سواء بالحروب البحرية أم بالمعاهدات فى كف يد الإمبـراطورية الفارسيـة عن إيذاء رعايا الإمبراطـورية الهلينيين الســابقين ، فـإن من حق أثينا بعد ذلك إنفـاق المال على الوجـه الذى تشاء. واقترح بركليس أن ينفق المـال فى هـذه المـرة على إعـادة بناء المـعـابد الهلينـيـة التى دمـرها الغـزاة الفـرس فى ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م، والحقيقـة أن هذه لم تكن فى الواقع غير المعابد المقـامة على قلعة أثينا. ولقد أخذ ثوكيديديس بن ميليسياس على عاتقـه القيام بدور أرستايديس فى الجمعية الوطنية الأثينية ، بيد أنه عندما أصبح على الجمعية أن تختار بين إنصاف الحلفـاء وبين العمل على بقاء الوظائف العامـة المجزية على ماهى عليه ليشغلها أفراد من بين أعـضائها ، ما لبث أن طغت المصلحة الذاتيـة على حكمهـا . وكان من نتائـج هذا القرار الذى اتخـذ عام ٤٤٣ ق.م، خلق أعمـال فنية أثينيـة غاية فى الإبداع والكمـال ، أعقـبه تحلل

وانهيار وسقوط الحضارة الهلينية التى كانت هذه الأعمال من إنتاجها البارز الرائع ، ومن آثارها المجيدة الدالة عليها .

وكان العمل كمحلف ، من الوظائف العامة المجزية الأخرى فى أثينا وكانت هيئة المحلفين تضم عدداً كبيراً من الأعضاء ، وتتسع فى حالة الفصل فى قضايا معينة بحيث تستوعب المجموع الكلى للمواطنين الذين يتمتعون بحق التصويت فى الجمعية الوطنية ، وقد أصبح هؤلاء بفضل مساعى بركليس ، ينقدون على خدماتهم ابتداء من سنة ٤٥١ - ٤٥٠ ق.م فصاعداً . وقد أخذت أثينا منذ عام ٤٧٨ ق.م تستأثر ، شيئاً فشيئاً بالنشاط التجارى للعالم الهلينى على حساب حلفائها الهلينيين الآسيويين وحلفاء إسبرطة على خليج كورنثوس . وكان معنى ذلك أن نسبة متزايدة من الدعاوى القضائية التى كان يرفعها المتخاصمون من مواطنى دول مختلفة تعمل بموجب معاهدات ثنائية ، باتت ترد إلى المحاكم الأثينية للفصل فيها . وفى هذا الصدد ، أساءت أثينا استخدام سلطتها لدى حليفاتها ، بأن أجبرتها على أن ترسل قضاياها إلى أثينا لحسمها هناك ، حتى ولو لم تكن هذه القضايا تختص بمسائل تجارية فى نظر الأثينيين على ميزتين ، ميزة اقتصادية تتمثل فى توفير مزيد من الأجور التى تئول إلى المحلفين الأثينيين ، وميزة سياسية تتمثل فى إتاحة الفرصة للضرب على أيدى المواطنين الأثرياء فى الدول الحليفة ، الذين هم أقرب إلى أن يكونوا من المعادين لأثينا ، نظراً لأن الجزية كانت

تحصل من خزائنهم ، ثم لاسترضاء شعوب هذه الدول التى لا يحتمل أن تكن غير الولاء لأثينا ، لأنها لم تكن تخسر شيئاً بل تجنى الكثير من وراء تحالف بلادها مع الديمقراطية الأثينية .

وما إن حل عام ٤٥١ - ٤٥٠ ق.م، حتى كانت حقوق المواطنة الأثينية قد عظمت قيمتها إلى الدرجة التى أدت بالجمعية العامة إلى أن تصدر ، بناء على طلب بركليس ، قراراً يقضى بالاقتصار فى منح حقوق المواطنة على من بوسعهم إثبات أن كلاً من أبويهما كان مواطناً آثينياً . وقد اتسمت حركة التطهير التى أجريت لجمهور المواطنين بناء على هذا القرار بعد مضى خمس سنوات على تاريخ صدوره ، بالعنف والشدة البالغين .

وهكذا لقيت الديمقراطية الأثينية ، فى غضون ثلاثين سنة ، المصير ذاته الذى لقيته الديمقراطية الإسبرطية من قبلها . فقد تحولت إلى «زعامة» عسكرية طفيلية تحتفظ برقيق للأرض (وهم «الحلفاء» الذين يؤدون الجزية) وتابعين Perioeci (وهم الحلفاء الذين ظلوا يتمتعون بامتياز الإسهام بالفرق البحرية) . لقد أعلن **كليون Cleon** الذى خلف بركليس فى زعامته السياسية للشعب الأثينى ، وذلك خلال المرحلة الأولى من الحرب الأثينية البليبونيزية ، والذى لم يكن من النبلاء مثل بركليس وإن خلت نفسه من كل نفاق ، أعلن لمواطنيه فى صراحة قاتلة أن أثينا ، قد أصبحت «دولة دكتاتورية» وأنه لا أمل لها فى الاحتفاظ بسلطتها الاستبدادية إلا بانتهاج سياسة تقوم على الإرهاب .

ولقد كان لانحلال اتحاد ديلوس وتحوله إلى إمبراطورية آثينية وقعاً مؤسفاً اليماً . ذلك لأن العالم الهلينى لم يكن فى حاجة إلى شىء بقدر ما كان فى حاجة إلى ذلك الاتحاد السياسى الوثيق بذاته ، لا من أجل الدفاع عن نفسه ضد الإمبراطورية الفارسية فحسب ، بل من أجل إقامة الإطار السياسى - كما أوضحنا من قبل - اللازم لنظام التكافل الاقتصادى الذى أصبح حقيقة ملموسة . ولو أن الآثينيين استطاعوا أن يكبحوا جماح أنفسهم ومن ثم أمسكوا عن سوء استغلال تلك الثقة التى نالوها ، على اعتبار أنهم المتزعمون للاتحاد ، دون أن يسعوا لتحقيق مصالح وطنهم الخاصة المحدودة ، لكان من المحتمل أن تؤدى الحركة الاقتصادية الداعية إلى الوحدة السياسية الوثيقة إلى أن يظل اتحاد ديلوس قائماً على أساس اختيارى غير إجبارى ، كما قد يتحول بمضى الزمن إلى شكل من أشكال الوحدة السياسية الاختيارية التى تضم العالم الهلينى بأسره . غير أن الوجهة التى اتخذتها سياسة أثينا تحت زعامة بركليس لم يكن من شأنها إلا أن تؤدى إلى تجدد معارك التقتيل والإبادة بين الإخوة الهلينيين وإلى انهيار الحضارة الهلينية ، ثم توحيد العالم الهلينى سياسياً فى النهاية على يد الجيوش الرومانية الجبارة .

وقد نشبت الحرب بين أثينا والاتحاد البليبونيزى ، مرة أخرى عندما اختل ميزان القوى الضعيف الذى أقيم عام ٤٤٥ ق.م، وذلك من جراء النزاع الذى نشب بين المستعمرة الكورنثية كوركيرا Corcyra (كورفو

(Corfü) وابنتهــا إبيدامنوس Epidamnus (دورازو Durazzo) ، وهما المدينتان اللتان تتحكمان فى الطريق البحرى الموازى للشاطئ الذى يتجه من بلاد اليـونان التابعة للقـارة الأوروبية إلى الغـرب ، وقد اسـتنجدت إبيداموس بكورنثة واستغاثت كوركيرا بأثينا ؛ ولم تكن أى من كورنثة أو أثينا تشـعر بأن فى مقـدورها التخلى عـن المدينة التى طلبت حـمايتـها إستجابة لمـلتمس الدولة الأخـرى ، كمـا قررت إسبـرطة كارهة تأيـيد حليفـتها كورنثـة ، خشية أن تنشق كـورنثة عن الاتحاد البليبـونيزى من ناحـيـة . ومن ناحـية أخـرى فـإن تحـول اتحـاد ديلوس فى اطراد إلى إمبراطورية آثينيـة كان من شأنه دعم قوة أثينا بصورة تبدو كـما لو كانت تهدد بالخطر حـرية العالم الهلينى بأسره . وممـا هول من هذه المخاوف ما أقدمت عليه أثـينا عندما ضربت حصاراً اقتصـادياً على عضو انضم من جديد إلى الاتحاد البليبونيزى ، وهى مـدينة ميجارا التى تجاور أثينا على خليج كورنثـوس ، وذلك عقاباً لها على رفـضها التحـول من جانب إلى آخر للمرة الثـانية . وتقع أراضى ميجارا على ضفـتى خليج كورنثوس فى الناحية المواجهة لأثينا من كورنثة . وكان هدف بركليس هو سد الطريق البرى حـتى لا يتمكن الجـيش البليبونيـزى من أن يزحف منه على ريف أتيكا مرة أخرى ، كـما فعل عام ٤٤٦ ق.م. ولما كـانت أثينا لا تقوى على الوقوف فى وجه الاتحـاد البليبونيزى براً ، فقـد كانت تلك أضعف نقطة فى بنيانها ، كما أنه عندما ثار النزاع حول ميجارا وباتت مغنماً لمن

تكون له الغلبة على خصمه ، لم تكن طائفة ملاك الأراضى فى أتيكا بأقل من مواطنى إسبرطة زهداً فى الحرب . بيد أن الكلمة العليا فى الجمعية الوطنية الأثينية، كانت لسكان المدينة الذين لا يملكون أرضاً وهم يمثلون الغالبية العظمى من الناخبين الآثينيين ، وقد استطاع بركليس أن يقنع هؤلاء بمواصلة تأييدهم لكوكيرا حتى ولو أدى ذلك إلى الدخول فى حرب مع البليبونيزيين ، على أساس أن أثينا سوف لا تدافع براً إلا عن نطاق أسوارها الضخمة الهائلة - مع ما قد يؤدى إليه ذلك من تخريب الغزاة لريف أتيكا - فى الوقت الذى تشن فيه غارات بحرية انتقامية ، أملاً فى إنهاك قوى الجيوش البرية كما أنهكت ميليتوس قوات ليديا من قبل .

وفى الجولة الأولى من جولات الحرب التالية - وقد استغرقت هذه عشر سنوات (٤٣١ - ٤٢١ ق.م) رجحت كفة بركليس أمام الكورنثيين، رغم أن القوات البرية التى كان يمتلكها الحلف المعادى لأثينا قد تعززت بانضمام قوات طيبة إليها . ولم يكن بوركليس يقدر عظم الخسارة فى الأرواح التى قد يسفر عنها وباء من الأوبئة ينتشر بين اللاجئين الوافدين من ريف أتيكا الذين تكدسوا ، طلباً للأمن ، فى الفراغ القائم بين الأسوار التى تصل أثينا بموانيها (وقد مات هو نفسه متأثراً بهذا الوباء فى عام ٤٢٩ ق.م بعد أن امتدت به الحياة حتى طرد من منصبه عام ٤٣٠) كما لم يكن يتوقع أن يتمكن البليبونيزيون لا من غزو ريف أتيكا براً

فحسب ، بل غزو الدول الخاضعة لأثينا على طول شاطئ بحر إيجة الشمالى البعيد . وعلى أية حال فقد لقى القائد الإسبرطى براسيداس Brasidas ، كما لقى كليون خليفة بركليس ، مصرعهما عام ٤٢ ق.م. عند أمفيبوليس Amphipolis ، قبل أن يصل براسيداس إلى الدردنيل ، ويقطع بذلك شريان الحياة بالنسبة لأثينا ، وهو الذى تأتيها عن طريقه مواردها من قمح أكرانيا . وفى عام ٤٢١ ق.م أبرم الصلح على أساس المبدأ القائل : «الكل ما يملك uti possidetis» . وفيما عدا دول خلكيديكى Chalcidicè التى حررها براسيداس ، والتى كانت تخضع لأثينا من قبل ، ظل بنيان الإمبراطورية الأثينية سليماً ؛ كما أن حلفاء إسبرطة فى خليج كورنثوس انشقوا عنها إلى حين نفوراً وسخطاً . بيد أنه بالرغم من هذا الدليل الجديد على أن الحرب لا تفيد ، لم تستقر الأحوال ببلاد هيلاس .

أما الجولة الثانية من الحرب التى استغرقت تسعة أعوام (٤١٣ - ٤٠٤ ق.م) فقد نجمت عن اعتداء آثينى طائش وقع فى عام ٤١٥ على سرقوسة التى كانت تعتبر أقوى دولة هلينية فى صقلية . وانتهت هذه المغامرة عام ٤١٣ ق.م بإبادة قوات الحملة الآثينية . ثم شنت إسبرطة الحرب على أثينا من جديد ، وفى هذه المرة أقامت قاعدة دائمة للعمليات على أرض آتيكية هى ديكيليا Decelea ، وأنشأت أسطولاً ، بلغ من القوة ، استناداً إلى مساعدة فرقة بحرية سرقوسية ومعونة مالية فارسية

أيضاً ، ما مكنه مـن تحدى سيادة أثينا فى بحر إيجـة . واستطاعت أثينا أن ترجئ هزيمتهـا المحتومة بجـهود جبارة ، تكاد تتجـاوز حدود الطاقة البـشرية. ولكنه عندمـا دمر آخـر أسطول لها عـام ٤٠٥ ق.م فى مـياه الدردنيل ، لم تجد بدأ مـن التسليم . وعند ذاك حررت بقـية الدول التى كانت خاضـعة لها ، وهدمت الأسوار التى كانت تربط أثينا بمـوانيها ، كما اقتلعت أيضاً الأسوار التى كانت تحيط بهذه الموانى ذاتها .

والنتيجة الوحيدة التى أسفرت عنها هذه الحرب ، هى أن إسبرطة قد ورثت الإمبراطورية البـحرية التى خسرتها أثينا ، كمـا أسست إمبراطورية برية خاصـة بها تكونت من الاتحـاد السابق لبلاد اليـونان التابعـة للقارة الأوروبية ، وهو الاتحاد الذى كانت تقف منه موقف الزعيمة الدستورية ، منذ زمن بعيـد ، وسرعـان ما ظهر أن الحكام العـسكريين الإسبـرطيين (الذين كـانوا يدعون رسمـياً باسم «الضـباط») يفـوقون أسـلافهم جـباة الضرائب الآثينيين تعـسفاً وشدة . وبعد ذلك عندمـا نشبت الحرب بين إسبـرطة وبلاد فارس عام ٤٠٠ ق.م حـول مسألة الوضـع القانونى الذى سيناله رعايا الإمبراطورية الفارسية السـابقين من الهلينيين فى المستقبل ، تدخلت أثينا عام ٣٩٣ ق.م بأسطول جديد أنشأته بمعونة مالية فارسية . وفيمـا بين عامى ٣٨٧-٣٨٦ أبرم صلح آخر لم يكن فيـه حسم للأمور - بناء على شروط أملتهـا حكومة الإمبراطورية الفارسيـة - تنازلت إسبرطة بمقـتضـاه للإمبـراطورية الفارسـية عن الدول الهلينيـة الواقعـة فى القارة

الآسيوية (بما فيها كلازوميناى Clazomenae وهى دولة تقع على جزيرة فى مواجهة الساحل) . وفى مقابل ذلك قررت حكومة الإمبراطورية الفارسية اعتبار جميع الدول الهلينية الأخرى دولاً مستقلة ذات سيادة (وكان معنى ذلك أن إسبرطة قد أصبحت طليقة اليد فى تحطيم أية اتحادات أو ائتلافات معادية) . وقد حل الإسبرطيون بالفعل الاتحاد البويوتى لتقليم أظافر طيبة التى لم تعد تلزم جانب الهدوء والسكينة كسابق عهدها ، وفى عام ٣٨٢ ق.م تمكنوا من احتلال قلعة طيبة ذاتها بضربة واحدة . بيد أن هذا الإجراء الإسبرطى غير المشروع ، انتهى بخذلان الحامية الإسبرطية وانسحابها عام ٣٧٩ ثم بهزيمة منكرة للجيش الإسبرطى أمام الطيبيين عند لوكترا Leuctra فى بويوتيا ، وذلك عام ٣٧١ . وتابع الطيبيون انتصارهم بغزو لاكونيا Laconia (وكانت هذه أول مرة فى التاريخ يقع فيها بصر النسوة الإسبرطيات السليطات على قوات عدو مغير ، فاستبد بهن الذعر والهلع ، وجلبن بذلك العار على وطنهم) . ولم تسقط مدينة إسبرطة أمام جيش طيبة ، ولكن قوة إسبرطة كانت هى التى تحطمت على صخرة الدهاء السياسى الطيبى . ففى عام ٣٧٠ ق.م رد القائد الطيبى **إبامينونداس** Epameinondas إلى رقيق الأرض الميسينيين حريتهم ، وهى التى لم يقطعوا الأمل قط فى نيلها ، كما أنه رغبة منه فى توفير الضمان لاحتفاظهم بها ، عاونهم على تنظيم أنفسهم فى مدينة دولة مستقلة تتمتع بمركز بلدى محصن منيع ، يقوم

حول مركز مقاومتهم التاريخى ، ألا وهو جبل إيثومى Ithomè . وفى عام ٣٦٩ ق.م سعى إلى غلق حدود إسبرطة الشمالية بأن جمع شتات الأقاليم الصغيرة التى كانت تقع فى جنوب غرب أركاديا Arcadia فى مدينة دولة جديدة مزودة بمركز بلدى منيع حصين ، وهى ميجالوبوليس Megalopolis . وهكذا قدر لإبامابنونداس أن يدخل التاريخ من أوسع أبوابه ، قبل أن يلقى مصرعه عام ٣٦٢ ق.م فى معركة غير حاسمة وقعت فى مانتينيا Mantinea ، حصل فيها الإسبرطيون على عون أعداء طيبة القدامى ، ألا وهم الأثينيون .

ولم يكن هناك أدنى أمل فى أن تفلح طيبة فى فرض الوحدة السياسية على العالم الهلينى بعد أن فشلت أثينا ومن بعدها إسبرطة فى تحقيق هذا الهدف . وكان ألد خصوم طيبة هى الدول البويوتية الشقيقة ، التى حاولت طيبة أن تضمها فى بنائها السياسى دون جدوى ، كما باءت بالفشل أيضاً محاولات طيبة فى سبيل فرض سيطرتها على جيران بويوتيا فى الغرب ، وهم الفوكايون الذين اكتسبوا قوة رهيبة فى عام ٢٥٥ ق.م باستيلائهم على الثروات الطائلة التى تكدست بخزانة معبد دلفى البانهلينى ، واستخدامهم لها فى اكتراء قوات من الجنود المرتزقة (وقد كانت موارد هؤلاء إذ ذاك وفيرة تتمثل فى «اللاجئين» الذين شردوا من أوطانهم بفعل الحروب المتصلة والثورات الوطنية) . ولم تطل محاولات الفوكايين كما طالت محاولات الطيبيين . ففى عام ٣٤٦ ق.م منوا

بهزيمة ساحقة على يد فيليب الثانى ملك مقدونيا الذى كان يعمل بموجب تفويض حصل عليه من مجلس كهانة دلفى . وبهزيمة فوكيس Phocis فتح الطريق أمام الجيش المقدونى للزحف إلى قلب اليونان الوسطى . وفى عام ٣٣٨ ق.م أحرز فيليب انتصاراً حاسماً على القوات الطيبية والآثينية المتحدة ، وذلك قرب خيرونيا Chaeronea فى بويوتيا . ثم قام فى كورنثة فى العام ذاته بتكوين اتحاد تحت زعامة مقدونيا ، ضم جميع دول اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية فيما عدا إسبرطة . وشملت هذه الوحدة السياسية بين الدول الهلينية تحت زعامة مقدونيا جزءاً من العالم الهلينى أعظم مساحة مما شمله أى من الاتحادات السابقة، بيد أنها قد شاركتها جميعاً فى قصر أجلها .

ولا ينبغى أن يكون تقديرنا للأضرار التى نجمت عن تلك الحروب التى اجتاحت قلب العالم الهلينى مدة ثلاثة وتسعين عاماً قائماً على الناحية المادية وحدها . فقد كانت الأضرار الروحية أجل وأعظم ، وهذا هو ما أوضحه ثوكيديديس بن أولوروس Thucydides son of Olorus الذى كان قائداً بحرياً آثينياً خانه التوفيق والذى لم يكد يشرع وهو فى المنفى فى التاريخ للحرب التى بدأت عام ٤٣١ ، حتى عاجله الموت قبل أن يبلغ من قصته عام ٤٠٤ ذاته . وقد أخذت هذه الحرب صورة حرب أهلية دارت رحاها داخل كل دولة بين أنصار المذاهب السياسية المختلفة، فضلاً عن كونها حرباً دولية قامت بين كتلتين مختلفتين من الدول . أما

عن الحرب الدولية فقد وصمت بكثير من الفظائع ، مثل ما لحق بمدينة بلاتايا البويوتية حليفة أثينا من تخريب وتدمير على يد الطيبيين وحلفائهم البليبونيزيين عام ٤٢٧ ق.م ، ثم عدوان أثينا الغاشم سنة ٤١٦ ق.م على ميلوس Melos التى لم تكن غير دويلة مسالمة محايدة ، وكذلك المعاملة البشعة التى لقيها أسرى الحرب الأثينيون الذين اعتقلوا فى محاجر سرقوسة إثر الكارثة التى لحقت بالحملة الآثينية فى صقلية عام ٤١٣ ق.م ثم المذبحة التى أقامها الإسبرطيون لأسرى الحرب الآثينيين عام ٤٠٥ فى أعقاب معركة أيجوسبوتامى Aegospotami . كما ارتكبت خلال الحروب الأهلية والثورات الداخلية ، جرائم أخرى تفوق هذه فظاعة وبشاعة ، مثال ذلك المذابح التى تعرض لها المحافظون فى كوركيرا من جانب المتطرفين عام ٤٢٥ ق.م ، وحوادث القتل والاغتيال التى ارتكبت فى أثينا بتفويض من لجنة الثلاثين (وهم الثلاثين دكتاتورا) التى تولت الحكم مدة التسعة أشهر ، التى احتجب خلالها النظام الديمقراطى ، إثر انهيار سيادة أثينا البحرية .

وعندما كان أنصار الجانب الخاسر فى هذه المنازعات الداخلية يلوذون بالفرار من البلاد ، نجّاة بحياتهم ، فإنهم كانوا يتحولون إلى «لاجئين مشردين» . وقد ازداد عدد هؤلاء المشردين المبعدين عن أوطانهم زيادة كبيرة حتى أصبحوا فى النهاية يؤلفون عنصراً ثابتاً من عناصر الحياة الهلينية ويمثلون طبقة بعينها لا تدخل فى إطار المدينة

الدولة وإن كانت قد اكتسبت نفوذاً لا يستهان به بأن جعلت من نفسها حقلاً لانتقاء الجند المرتزقة .

وقد ظهرت فى أثينا بوجه خاص ، منذ سنة ٤٣١ ق.م فصاعدا ، أعراض واضحة متزايدة على حالة من التوتر العصبى كانت تكشف عن نفسها فى صورة نوبات هستيرية ، كما كثرت عبادات الآلهة الأجنبية ، ولم يقتصر الأمر على عبادة إله الطب الهلينى إسكليبيوس Asklepios الذى انحدر من إبيداوروس Epidaurus وكوس Cos ، بل أضيفت إليها عبادة الإلهة الطراقية بنديس Bendis و «الأم الكبرى» كيبيلى Cybele التى كانت إلهة أناضولية . وقد قامت فى أثينا حركة اعتقالات سياسية واسعة عام ٤١٥ ق.م، إثر حادثة تحطيم التماثيل النصفية للإله هرميس Hermes التى كانت تتوج الأعمدة المقامة بأركان الشوارع فى إحدى الأمسيات ، وبفعل أشخاص مجهولين ، وذلك عشية رحيل قوات الحملة الآثينية العظيمة إلى صقلية . كما وقعت أيضاً حوادث تعذيب لبعض «المفكرين» بتهمة «الإلحاد» . وكانت أثينا حتى ذلك العصر تعد من الناحية الفكرية بلداً محافظاً إذا ما قورنت بأى من هيلاس الآسيوية أو هيلاس الاستعمارية فى إيطاليا وصقلية ، وكان من السهل استثارة الرأى العام الآثينى بالقول بأن الدين والخلق قد أصبحا فى خطر ، وكان ثمة دافع سياسى لاستثارة الرأى العام ضد «المفكرين» لاسيما وإن كانوا من الصنائع أو المقربين إلى سياسيين يوشكون على السقوط ، وقد شاء

أناكساجوراس من كلازوميناى ؛ الصنيعة الأجنبى لذلك السياسى الآثينى الموصوم بركليس أن يفر خفية من أثينا فى الوقت المناسب ، أما سقراط ، المواطن الآثينى المتمسك بأهداب القانون والذى كان فى وقت ما من شركاء كالياس Callias زعيم عصابة «الثلاثين دكتاتوراً» فقد صمد حتى النهاية وواجه مصيره المحتوم ، وكان الحكم بالإعدام على أعظم مواطن على الإطلاق أنجبته أثينا من بين الإجراءات التى رمزت بها الديمقراطية الأثينية على استردادها المدينة من أيدى «الثلاثين دكتاتوراً» فى عام ٣٩٩ ق.م.

الفصل الثامن

تقبل مقدونيا للحضارة الهلينية وغزو الشرق

كان المقدونيون ، الذين فرضوا الوحدة والسلام على بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية عام ٣٣٨ ق.م. شعباً من الشعوب التى تتكلم اليونانية ، وإن لم تكن قد أخذت بعد بالحضارة الهلينية ، يحتل الأراضى القارية الواقعة إلى الغرب وإلى الشمال من دلفى وثرموبولاى . وعلى حين أن حضارة المدينة الدولة التى قامت إلى الشرق والجنوب من هذه الحدود الحضارية ، كانت قد بلغت ذروة ازدهارها ، ثم أخذت طريقها إلى الانهيار ، فقد ظلت مقدونيا أثراً من آثار العصر «البطولى» - أو البربرى - الذى حل بجميع أنحاء منطقة بحر إيجة ، إثر سقوط الحضارة الميناوية الموكينية .

وكانت مقدونيا مازالت تخضع فى نظام حكمها - إذا ما جاز لنا أن نسمى ما كان قائماً نظاماً للحكم - للملكية الوراثية ، وهو من الأنظمة

التى كانت قد أخذت مكانها فى العالم الهلينى منذ أمد بعيد لنظم الحكم الجمهورية والدكتاتورية . ولقد كانت تحد من سلطة ملك مقدونيا ، من الناحية القانونية النظرية ، بعض القيود الدستورية العرفية ، ولكن هذه كانت تتوقف من الناحية العملية على مدى ما كان يتمتع به الملك الجالس على العرش من مقدرة شخصية على أن ينتزع الولاء الذى لم يكن يؤمن له ، من جانب النبلاء ، وعامة الشعب فى البلاد الواقعة تحت حكمه المباشر ، ومن جانب رؤساء العشائر فى الإمارات الواقعة فى المناطق الجبلية الممتدة جنوباً وغرباً وشمالاً . ولم تكن هذه الإمارات تعترف بسلطانه إلا من الناحية الشكلية الاسمية . فإذا ما قدر أن يتبوأ العرش ملك وهب حنكة سياسية وسعة حيلة ، وإرادة حازمة ، أولاً وقبل كل شيء ، ففى وسع مقدونيا أن تثبت وجودها برغم تخلفها الاجتماعى والحضارى. أما إذا نصب عليها ملك ضعيف الجانب ، مسلوب الإرادة، فإنها قد تتردى فى مهوى الحكم الفوضوى وتقترب بذلك من شفا الفناء السياسى . وهكذا كانت مصائر مقدونيا تتوقف إلى حد بعيد على ما تهيئه الظروف لها ، وكانت المقادير تكرمها دائماً بأن تقيض لها رجالاً ذوى شخصيات قوية ليتولوا العرش فى اللحظات الدقيقة من تاريخها . فقد كان الإسكندر الأول ، الذى كان يجلس على عرش مقدونيا إبان الغزو الفارسى لأراضى اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية عام ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م. ، كما كان برديكاس perdiccas (وحكم بين ٤٤٠ - ٤١٣

ق.م.) وابنه أرخيلاوس Archelaus (وحكم بين ٤١٣ - ٣٩٩ ق.م.) اللذان استغرق عهديهما المتتاليان فترة الحرب الآثينية البليبونيزية بأكملها، يتمتعون جميعاً بقسط كبير من المقدرة والكفاية . أما فيليب الثانى (وحكم بين ٣٥٩ - ٣٣٦ ق.م.) وابنه الإسكندر الأكبر (وحكم بين ٣٣٦ - ٣٢٣ ق.م.) فإنهما يدخلان فى عداد العباقرة وإن اختلفا فى نوع عبقريتهما ، ومما لاشك فيه أيضاً أنه كان من السهل عليهما أن ينبغا فى أى ميدان من ميادين الحياة ، وفى أى مكان وزمان . بيد أنه كان من حسن حظ فيليب أنه تبوأ عرش مقدونيا بعد أن كانت سيادة طيبة على العالم الهلينى قد اختتمت حياتها القصيرة ، كما كان من حسن طالع الإسكندر الأكبر أيضاً أنه ورث السؤدد الذى كان أبوه قد بناه .

وكانت مصائر مقدونيا قد ارتبطت بالفعل بالسياسات الدولية السائدة فى العالم الهلينى . فقد تم إنقاذ مقدونيا مرتين ، كانت قد أوشكت فيهما على الفناء السياسى ، بفضل ما اتخذته الدول الهلينية من إجراءات فى سبيل تحقيق مصالحها الذاتية الخاصة ، وذلك خلال القرن ونصف القرن الذى انقضى بين شروع الإمبراطورية الفارسية فى محاولتها ضم بلاد اليونان الأوروبية إليها ، وبين تولى فيليب الثانى العرش عام ٣٥٩ ق.م. فقد كان من المحتمل ، مهما بلغ الجهد الذى كان فى طاقة الملك الإسكندر الأول أن يبذله بمفرده ، أن تدمج مقدونيا إلى الأبد فى ولاية فارسية ، لو لم تضطر الإمبراطورية الفارسية ، إزاء هزيمة آكسركسيس

فى ٤٨٠ - ٤٧٩ أمـام الحلف الهلينى تحت زعـامـتى كل من إسبـرطة وأثينا ، إلى التـخلى عن جمـيع ممـتلكاتها على الجـانب الأوروبى من الدردنيل فيما عـدا قلعة واحدة هى قلعة دورسكوس Doriscus التى تقع على شاطئ تراقـيا . ومرة أخرى فى الفتـرة ما بين ٣٨٢ - ٣٧٩ ق.م. عندما كانت مقدونيا تعانى من الفوضى والضعف ، وذلك فيما بين نهاية عهد أرخيلاوس وبداية عـهد فيليب الثـانى ، أنقذهـا تدخل إسبـرطة العسكرى من مغـبة اندماجها نهـائياً فى اتحاد فيـدرالى كانت تسعى إلى تكوينه المـدينة الدولة والمستـعمـرة الخلكيدونيـة أوليثوس Olynthus ويتألف من المدن الدول الواقعة على امتداد الساحل الشمالى لبحر إيجة .

وكان أعظـم ما لدى المملـكة المقدونـية هو ذلك الميـدان الرحب للتوسع الإقليمى الذى كان مفتوحـاً على مصراعيه أمام أى شاغل للعرش يتمتع بالقسط الواجب من القوة المادية والبصيـرة السياسية . أما المحور الذى كانت ترتكز حوله الأراضى الخاضعـة لحكم الملك المباشر ، فقد كان المنطقة الجبليـة التى تطل على الطرف الغربى من ذلك السهل الذى يقطعه المجرى الأدنى من نهر أكسيوس Axius (فاردار Vardar)وهو فى طريقه إلى خليج سلانيك . وفى ثلاثة جوانب من هذه الرقعة كانت تقوم إمارات مقدونية متمردة تتمـتع بالحكم الذاتى ، ولا تخضع لغير شيوخها الذين كان الحكم فـيما بينهم وراثياً . بيـد أن نطاق الحكم الملكى كان قابلاً للامتداد ، بـل إنه امتد فعلاً صوب الشرق ، وذلك حـتى السهول

المنبسطة التى كانت تقطنها قبائل تتكلم اليـونانية ، وهى قبائل البايونيين Paeonians الذين لم يكن يخلـو منهم مكان . ولم يكن هؤلاء يقـوون على الوقوف فى وجـه المقدونيين ، لأنهم كـانوا بدورهم أقل تمديناً من المقـدونيين أنفسهـم . وبعد أن كان مقـر الحكومة الملكية قـد اتخذ فى الأصل عند أيجاى Aegae (فودهينا Vodhenà) فوق منحـدر يطل على سهل نهـر فاردار ، نقل إلى Pella (ينيجى فاردار Yenjè Vardar) فى قلب السهول إلى مسافة لا تبعد كثيراً عن بلدة سكايدرا Scydra ، حيث كان بنـاة الإمبراطوريـة الفارسيـة قد أرسـوا قواعـد مركـز إدارى لإحدى الولايات الأوروبية التى لم تعش طويلاً . وبعد أن انحسرت موجة الغزو الفارسى مد الإسكندر الأول حدود مقـدونيا الشرقية إلى الضفـة الغربية لنهر سترايمون Strymon (شتروما Struma) على طول المجرى الأدنى للنهـر. بيد أن المدن الهليـنية الاستـعمـارية الواقعة على طـول الساحل المقدونى وفى خلكيديكى Chalcidicè استطاعت أن تحتفظ ؛ فى يسر ، باسـتقـلالها ، على حـين أن الآثينيـين قد دخـلوا فى نزاع مع القبـائل البايونية المحليـة فى البلاد الواقعة شرق نهر سترايمـون الأدنى مباشرة ، فى سبيـل الاستيلاء على مناجم الذهب بجـبل بانجايوس Pangaeus . وكان فيليب الثانى هو أول من تمكن من ملوك مـقدونيا من الاسـتحواذ على هذه القطعة النادرة من الأرض . ورغـبة ضمان بقـائها فى قبـضته ، أسس بها مدينة أطلق عليها اسم «فيليبى» Philippi المشتق من اسمه .

واستخدم فيليب الذهب المستخرج من بانجايوس ، مثلما استخدم ثيمستوكليس فضة لاوريوم Laureum فى تكوين القوة العسكرية التى تكفل له اغتنام الفرص السياسية السانحة فى المستقبل . وفى غضون إحدى وعشرين سنة من ارتقائه العرش عام ٣٥٩ ق.م. كان فيليب الثانى قد ضم إلى المملكة المقدونية ، جميع المدن الدول الهلينية الواقعة على امتداد الساحل (وقد عمد إلى سحق أقوى هذه المدن وهى أولينثوس Olynthus لكى يلقى الرعب فى شعوب بقية المدن) ، ثم وضع تحت حكمه المباشر الإمارات المقدونية الجبلية التى كانت تتمتع من قبل بالحكم الذاتى ، وأخضع معظم القبائل التى كانت تتكلم اليونانية والقبائل التى كانت تتكلم التراقية فى المنطقة الممتدة من شرقى نهر سترايمون حتى المضايق والبحر الأسود والمجرى الأدنى لنهر الدانوب ، كما دانت له جميع المدن الدول ببلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية فيما عدا إسبرطة .

فما سر هذا النجاح المؤزر الذى ناله فيليب ؟ إنه يرجع أساساً إلى شخصيته التى نالت أعظم التقدير وأزكى الثناء من جانب عدوه الآثينى اللدود ديموسثينيز Demosthenes . فقد كان فى نشاطه ودهائه ومثابرته وصبره نداً لأوغسطس ، الذى قدم فى النهاية للعالم الهلينى خدمة مماثلة وإن تميزت باتساع نطاقها ودوام نتائجها . ويقال إن المؤرخ المعاصر ثيوبومبوس Theopompus من جزيرة خيوس قد دعا فيليب أعظم رجل أنجبته أوروبا حتى ذلك التاريخ ، ولعله كان كذلك حقيقة فى مضمار

الدهاء السياسى . كما تبين ديموسثينيز أيضاً ، كيف استغل فيليب الذهب الذى تحصل عليه من بانجايوس فى براعة فائقة . فقد اشترى به بعض الساسة المبرزين فى المدن الدول الهلينية الكبرى ، كما ضرب به عدداً هائلاً من قطع النقود ، حتى أن بعض قطع العملة التى كانت تحمل صوراً غير دقيقة له ونقوش تماثل نقوش عملته ، ظلت تسك بعد مضى ثلاثمائة أو أربعمائة سنة على هذا التاريخ، فى بلد ناءٍ مثل بريطانيا ، لا يقطنه أيضاً غير البرابرة . بيد أن ثمة سبباً آخر لنجاح فيليب لم يكتشفه ديموسثينيز أو لم يشأ الاعتراف به ، وهو حرص ذلك الملك المقدونى على التشبع بحضارة العالم الهلينى الذى استطاع أن يخضعه لإرادته .

وقد تفاخر بركليس فى خطبة تأبين له ألقاها عام ٤٣٠ ق.م. فى ذكرى المواطنين الآثينيين الذين لقوا مصرعهم فى ميدان القتال ، إبان الحملة الأولى من حملات الحرب الآثينية البليبونيزية الكبرى ، بأن أثينا إنما هى «مدرسة هيلاس» . وقد أخذ جبابرة ملوك مقدونيا البربرية قول بركليس مأخذ الجد ، وطبقوه بحذافيره لا كما قصد بركليس فحسب بل بأساليب لم تكن تخطر له على بال ووسائل لم يكن يعنيها قط .

ولنا أن نتصور كم كان سيبلغ امتنان بركليس ، وكم كانت ستبلغ دهشته أيضاً لو قيض له أن يعيش حتى يرى الملك أرخيلاوس يدعو إلى بلاطه فى بيلا الكاتب المسرحى الآثينى يوريبيديس Euripides ، برغم أن هذا كان فى طليعة «التقدميين» من بين « المفكرين» الآثينيين فى

عصره. وكان سيثلج صدره ، دون شك أن يرى الملك فيليب الثانى يتخذ ، بدلاً من لهجته المقدونية الوطنية ، اللهجة الآتيكية للغة اليونانية، لتكون لغة رسمية لمحكمته العليا (ولعل المرسوم المقدونى الذى صدر بهذا الشأن كان أعظم أثراً من عبقرية يوريبيديس وغيره من أئمة رجال الأدب الآثينيين فى رواج اللغة اليونانية الآتيكية وذيوعها فى كل مكان من العالم الهلينى فى المرحلة التالية من تاريخه ، حين اتسعت رقعته ، بحيث بلغت الهند فى الاتجاه الجنوبى الشرقى وبريطانيا فى الاتجاه الشمالى الغربى) . ومما كان حقيقاً بأن ينال الرضى من جانب بركليس تلك الخطوة التى اتخذها فيليب عندما أفاد من خدمات أحد الآثينيين بالتبنى ، ألا وهو الفيلسوف الشهير **أرسطو** من ستاجيروس Stageirus، ليقوم بتربية ابنه وولى عهده **الإسكندر** . ولكن **بركليس** ما كان ليشعر بمثل هذا القسط من السعادة لو أنه قد تناهى إليه أن **فيليب** نفسه تلقى فى صباه ، حقيقة لا مجازاً ، تعليماً وتثقيفاً هلينيين ، إذ عاش رهينة داخل أسوار طيبة جارة أثينا وعدوتها اللدود . كما كان حقيقاً **ببركليس** أن يقشعر بدنه للأسلوب الذى انتهجه ملوك مقدونيا فى تطبيق وجهة نظره على الشئون العسكرية . بيد أن ذلك لم يكن فى الحقيقة مدعاة عجب أو دهشة ، فإن التطورات المشهودة التى طرأت على الفنون العسكرية لم تكن غير نتيجة من النتائج المنتظرة لسلسلة الحروب المتصلة التى استغرقت ثلاثة وتسعين عاماً والتى ترددت إليها الدول الهلينية بعد عام ٤٣١ ق.م.

واستطاع أرخيلاوس أن يدعم قوة سلاح الفرسان المقدونى الذى كان يتألف من أفراد من النبلاء بأن زودهم بالمعدات الحربية الهلينية الحديثة ، وأتاح لهم أيضاً أسباب مرونة الحركة بمدهم بشبكة من الطرق العسكرية. كما قام فيليب الثانى بتزويد المشاة المقدونيين بآخر مستحدثات الأسلحة الأثينية وأحدث التشكيلات العسكرية الطيبية . وكان الجندى الآثينى المحترف إفيكراتيس Iphicrates قد تمكن فى أثناء الحرب التى شنتها أثينا على إسبرطة ، انتقاماً للهزيمة التى منيت بها عام ٤٠٤ ق.م. من أن يمزق صفوف إحدى الفرق اللاكيدايمونية شر ممزق، عندما خاض المعركة أمام حملة التروس بأسلحتهم وتشكيلاتهم التى عفا عليها الزمن ، متخذا نموذجاً جديداً من المشاة الخفيفى التسليح المزودين بالحراب ذات الطعنات النافذة ، يفوق فى قوته تشكيل «حملة التروس» بسيوفهم ذات الطعنات الواخزة . وقد كفل هذا النمط الجديد للجندى حرية استخدام رمحه بكلتا يديه ، نظراً لأن يده اليسرى قد أزيح عنها عبء ذلك الترس التقليدى الدائرى الثقيل . إذ استعيض عنه بترس صغير خفيف الوزن يتعلق بواسطة خية فى الذراع الأيسر . وقد قام فيليب بتسليح قواته من المشاة الفلاحين الرقيقى الحال بهذا السلاح الآثينى الذى كان يتميز برخص ثمنه، فضلاً عن أثره الفعال الذى أثبتته التجربة . ولكنه لم يزحف بقواته الجديدة من حملة التروس المقدونيين فى صفوف مكشوفة . فإن القائدين الطيبيين إباماينونداس Epameinondas

وبيلوبيداس Pelopidas استطاعا إيقاع الهزيمة بـاللاكيدايمونيين فى عام ٣٧١ ق.م. بالاستعانة بأسلوب جديد من أساليب القتال والتكتيك الحربى ، يقف على النقيض تماماً من الأسلوب الذى ابتكره إفيكراتيس. فبدلاً من تفتيت الفيلق التقليدى إلى مجرد ستار من الجنود المناوشين، عمداً إلى زيادة عدد صفوفه فى نقطة بعينها من الجبهة ، بعمق فرقة تصطف على شكل رأس سهم ، ثم اقتحما صفوف اللاكيدايمونيين بفتح ثغرة فيها بهذا السلاح الآدمى الذى يأخذ هيئة رأس كبش . أما فيليب فقد نظم قواته من الجنود حملة التروس فى فيلق يبلغ فى عمقه عمق الفيلق الطيبى وإن امتد بطول الجبهة جميعها ، وبذلك جمع فى حذق بين عنصرى خفة الحركة وثقل الكتلة . كما أن ذهب بانجايوس مكن فيليب أيضاً من إنشاء «سلاح الصفوة» وهو سلاح «المكتسين بالدروع» الذى يتبع النمط الهلينى التقليدى الباهظ التكاليف .

غير أن السلاح الذى حقق به كل من فيليب والإسكندر انتصاراتهما لم يكن ذلك السلاح الهلينى البائد أو فيلقهما الجديد المؤلف من الجنود المزودين بالتروس والرماح ، بل كان سلاح الفرسان الذى وضعاه تحت قيادتهما . وخلال فترة القرن ونصف القرن التى أنقضت بين انتصار المقدونيين فى خيرونيا Chaeronea عام ٣٣٨ ق.م. على الجنود حملة التروس الطيبيين والآثينيين ، وبين هزيمة مقدونيا عام ١٩٧ ق.م. فى كينوسكيفالاى Cynoscephalae على يد الجنود الرومان ، تحول الفيلق

المقـدونى - شأنه شـأن التشكيـلات التى سبـقته - إلى تشكـيل شديد التعـقيد صعب القـياد . بيد أنه كان للـتنظيم الجديد الذى أدخله فيليب على قوات المـشاة آثار اجتـماعية وسـياسية بـعيدة المدى لا سـبيل إلى نكرانها ، فـلا غرو أن أحس الفـلاحون المقـدونيون المـجندون بعد أن أصبحـوا يؤلفون قوة عسكرية فـعالة ، بالعزة والكرامة ، كـما بات لهم اعتـبار كبـير فى رسم الشئـون العامة للبـلاد . ولما كان هؤلاء يلقـبون «برفقـاء الملك الراجلين» فقـد أدرجت أسماؤهم فى قـوائم الشرف التى تضم «الرفقاء» ، وكانت هذه هى التسمية التقليدية للفرسان النبلاء .

وكان لفيليب ، إلى جانب خصـومه اللدودين وعملائه الـمأجورين فى المـدن الدول الـمـؤيدون الصـادقـون المنزهـون عن الغـرض ، ثم المعجبون الحقيقيون . فقد كان أيسخينيس Aeschines ، أحد أنصاره الأثينيين مدفوعاً فى تأييده له بحماسة صادقة لا تقل قوة عن الحماسة التى كـانت تدفع الأثينى ديموسثينيز إلى خصـومة فيليب. وقـد رأى ايسقراط Isocrotes المواطن الآثينى الذى كان من المـعجبين بفيليب ، والعالم الفاره أيضـاً فى القانون الدولى والاداب ، أن الوحـدة التى كانت قـائمة آنذاك بين دول هيـلاس فى ظل زعـامـة دولة واحـدة تدين بالولاء لرجل عظيم واحد ، إنـما تهيئ الفـرصة السانـحة للقيـام فى النهاية بالهـجوم البانهليـنى المضاد على الإمـبراطورية الفارسـية الذى تعـذر تحقيـقه على كيمون بن ميلتياديس . والحقيقة أنه كان من المنتظر ، بعد فشل الفرس

فى ضم بلاد اليونان الأوروبية إلى إمبراطوريتهم عام ٤٨٠ - ٤٧٩ ق.م، أن تستأنف على جناح السرعة وبصورة أقوى ، حركة التغلغل الهلينى إلى مصر وجنوب غـرب آسيا ، وهى الحركة التى كـانت قد بدأت فى القرن السابع قبل الميلاد فى أعقاب هزيمة الآشوريين وتقهقرهم والتى لم تلبث أن توقفت على حين بغتة نتيجة لقـيام الإمبراطورية الفارسية . وكانت قد أتيحت للإمـبراطورية الفارسيـة من قبل فتـرة من الهدوء والراحة نتيـجة للنزاع الذى نشب بين إسبرطة وأثينا . فقد خانت إسبرطة عهد أثينا سنة ٤٥٧ ق.م. فى الوقت الذى كانت فيه أثينا تحاول انتـزاع مصر من قبضة الفرس . وغدرت أثينا بإسـبرطة سنة ٣٩٣ عندما كانت إسـبرطة تتأهب لطرد الفرس من غربى الأناضول . ولم يكن غزو الإمـبراطورية الفارسية بالمهمـة العسكرية الصعبـة بالنسبة لعالم هلينى مـوحد . وقد أثبت هذه الحقيقة بالدليل القاطع عام ٤٠١ ق.م فرقة تتألف من عشرة آلاف جندى هلينى مرتزقة استأجرهم مدع لعـرش الإمبراطورية الفارسية . وقد زحفت هذه القوة المتـواضعة ، دون أن تصادف أية مقاومـة ، ابتداء من الشاطئ الغربى للأناضـول حتى بابل ، حيث خـرجت مظفرة من معركـة فاصلة ضد كل ما أمكن أن تحـشده حكومة الإمبراطورية الفارسـية من قوات فى ذلك الوقت ولكنها لم تلبث أن وجدت نفـسها حيرى معلقـة بين السماء والأرض لمصرع قـائدها الفارسى فى ميدان القتال ، فـزحفت خارج بابل واختـرقت منطقة غـير مطروقـة إلى أن بلغت ساحل الأناضـول الشرقى المطل على البـحر الأسود ، على الرغم مـما بذله جيش الإمـبراطور من

جهود فى سبيل قطع الطريق عليها فى أثناء تقهقرها . وما علينا إلا أن نزيد عدد قوات الحملة البانهلينية إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف الحملة السابقة ، مع ضمان تأييد العالم الهلينى الموحد لها ، حتى نشهد هذا العمل الرائع وقد أصبح حقيقة واقعة .

وكانت هذه الخطة الكبرى تعد فى نظر الهلينيين ، خطة صائبة سديدة . فما الذى يدعو الهلينيين لمواصلة حرب مدمرة ضد بعضهم البعض ، إذا ما كان فى استطاعتهم جمع كلمتهم لإخضاع واستغلال «المجال الحيوى» الشاسع الهائل الذى يقع إلى الشرق وإلى الجنوب منهم؟ فقد ظلت هيلاس تعانى إبان القرن الرابع ق.م. من المشكلة ذاتها التى كانت تعانيها فى القرن الثامن ألا وهى زيادة عدد السكان . إذ أن حركة استعمار سواحل شرقى البحر المتوسط والبحر الأسود والثورة الاقتصادية التى أعقبتها لم تكونا بكافيتين لتوفير الأقوات ، بصفة دائمة ، للعدد الكبير من البطون الهلينية السغبة التى ينبغى إشباعها والتى ما فتئت تزداد زيادة مطردة ، ولسوف يفتح غزو الإمبراطورية الفارسية دون شك آفاقاً جديدة أمام مستعمرين هلينيين جدد ، كما أن من الممكن استخدام هؤلاء المستعمرين فى السيطرة على الدولة المغلوبة . كانت هذه خطة عملية . ولكن ، هل كان لها ما يبررها ، بغض النظر عن دعوى الانتقام التى لا يمكن القطع بشرعيتها ؟ لقد ظهر هناك فى عصر أرسطو فريق من العلماء النظريين الذين كانوا ينادون بأن للهلينيين حقاً فطرياً فى الغزو

والفتح لأن الهلينيين ولدوا أحراراً على حين أن غير الهلينيين ولدوا عبيداً . وقبل هذا التاريخ بمائة سنة ، كان أحد الكتاب قد أشار فى صدق بالغ وبصيـرة نافذة، وذلك فى مـقال له عن أثر البـيئـة الطبيـعية علـى نمو الشخـصية (وعثـر على هذا المقال بين وثائق مـدرسة **أبقراط** للطـب فى جزيرة كـوس) ، أشار إلى أن الشـعوب غيـر الهلينية التى تقـطن البلاد المتخلفة لا تقل سمواً فى الروح أو تعشقاً للحرية عن الهلينيين أنفسهم ، وقد دلت نتائج الغزو الهلينى للإمبراطورية الفارسية علـى صحة هذا القول. والحـقيقـة أن مبـدأ حق الهلينيـين الطبيـعى فى السيـادة على «الأجناس الأخرى» لم يكن إلا ذريعة للعودة إلى مـثل حالة اضطهاد إسبرطة لعـبيد الأرض، وإلى إرهاق أثينا للدول التى كـانت تؤدى لها الجـزية ، وذلك على نطاق أوسع وأضخم .

وفى عام ٣٣٦ جرد **فيليب** حملة صغيرة عبرت الدردنيل ، فهل كان المقـصود بهذه الحملة أن تكون طليـعة جيش كبـير ؟ وما مدى مـا كان ينتوى **فيليب** أن يبلغه ؟ لقد كان على خليفته الشاب أن ينفق عاماً كاملاً فى إرهاب البرابرة على طول الحدود الشمالية لمـقدونيا ، وفى قمع طيبة التى اغتنمـت هذه الفرصة لإشـعال نار الثورة . وعـبر الإسكندر مـضيق الدردنيل عام ٣٣٤ ق.م. بجيش يتألف من خمسة وثلاثين ألف جندى . وقام باحـتلال جمـيع شواطئ الإمـبراطورية الفارسـية المطلة على البـحر المتوسط ، الواحد بعد الآخر ، حتى صحراء مصر الغربية ، وذلك لكى

يضمن عدم اشتراك الأسطول الفارسى مع الأسطول الآثينى فى الانقضاض على مؤخرته ، كما حدث للملك الإسبرطى أجيسيلاوس Agesilaus من قبـل فى ٣٩٤ - ٣٩٣ ق.م. وفى عام ٣٣١ اتجـه إلى الداخل وهزم عند جوجاميلا Guagamela آخر الجيوش الفارسـية المنظمة ، وقد كان هذا الجيش يقف فى انتظاره فى السهول الواقعة بين الضـفة الشرقية لنهر دجلة ومدينة كربلاء Arbela الآشورية . وما إن حـل عام ٣٢٣ ق.م. ، حتى كان قد أخضع بقية أجزاء الإمبراطورية الفارسية إلى حدود نهر ياكسرتيس Jaxartes (سيردارية Sir Darya) وأخضع الممتلكات الفـارسية السابقة فى وادى نهر هندوس حتى حـدود نهر بياس Beas ، ثم عاد إلى بابل لكى ينظم فتوحاته ويرسم الخطط لمتابعتها .

وهكذا تجاوزت الانتـصارات الحربية للـجيوش الهلينية تحت قـيادة مقدونيا ، كل ما كان يراود إيسوقراط من أحلام . وكان شعور الهلينيين إذ ذاك أشبه بـالشعور الذى غمـر أبناء الغرب فى العصر الحـديث عندما اكتشـفوا الأمريكتين أو الطريق البحرى الـذى يصل إلى الهند بالالتفاف حول رأس الـرجاء الصـالح . أما بالنسـبة للفـرس ورعاياهم فـقد كـان شعورهم أقـرب إلى ذلك الشعور الذى استولـى على قبائل الإنكا Incas والشعوب الخـاضعة لهم عندما انقض علـيهم الفاتحون الكاسـتيليون من البحـر حاملين أسلحة قل أن تقوى أسـلحتهم على صدها . بيـد أن ثمة ظاهرة واحدة قـد برزت فى أثناء سلسلة الحمـلات المظفرة التى خاضـها

الإسكندر ، كان من شأنها أن تثير قلق الهلينيين . فعلى الرغم من أن المعركة التى نشبت بالقرب من كربلاء قد أسفرت عن انتصار حاسم بالنسبة للإسكندر ، إلا أنها انتهت بنكبة سلاح الفرسان الذى كان الإسكندر يعلق عليه أملاً كبيراً . فقد ثبت أن أسلحة الفرسان الهلينيين لا تدانى بحال دروع السلاسل الحديدية (وكانت هذه تستر كل من الجواد والفارس) التى كان يتخذها فرسان الراحل داريوس ، الذين كانوا من مواطنى باكتيريا Bactria ومن الهنود ، ولقى الإسكندر خلال المرحلة التالية من الحرب من المقاومة ما أثار دهشته ، وذلك عندما غزا وطن هؤلاء الفرسان المخوفين على حدود الإمبراطورية الفارسية المواجهة لمنطقة آسيا الوسطى ، التى يقطنها البدو . وقد أثبت حماة هذه الحدود أنهم لم يولدوا عبيداً . كما برهن الإسكندر على إعجابه بهم بأن تزوج بابنة ذلك الحاكم الإيرانى الذى أسهم بالنصيب الأكبر فى إثارة المتاعب فى وجه الإسكندر .

وكتبت للإسكندر الحياة ليسمو عن ذلك المبدأ الحقير الذى كان ينادى بأن للهلينيين السيادة على غيرهم من بنى البشر ، ويأخذ بالمثل الأعلى الكريم الذى يقول بأخوة الإنسانية جمعاء . فإنه عندما التقى بالفرس ، لمس فيهم تلك الفضائل التى مكنتهم من أن يحكموا ذلك الجزء الكبير من العالم إلى ما يزيد على مائتى سنة فاستهوته هذه الخلال وملكت عليه أقطار نفسه ، فداعب خياله ، بدوره ، حلم إنشاء

إمبراطورية عالمية يحكمها الفرس والهلينيون متضامنين . بيد أن ذلك الرجل المثالى ، والنابغة الذى سبق عصره ، كان لا يتورع أيضاً عن اغتيال أصدقائه ورفقائه فى نوبات غضبه وحين تلعب الخمر برأسه ، شأنه شأن البطل الهومرى الذى كان الجانب المراهق من طبيعة الإسكندر يتوق إلى التمثل به . ولاشك فى أنه كان لإفراطه الدائم وتطرفه الأثر الأكبر فى موته المبكر المفاجئ إثر مرض أصابه فى بابل عام ٣٢٣ ق.م. لقد أمهله الزمن لكى يقوض أركان إمبراطورية عظمى ، ولكنه ما كاد يشرع فى تنفيذ خطط البناء التى كانت تراود خياله ، حتى عاجله الموت .

لقد برهنت كارثة عام ٣٢٣ ق.م، كما برهنت نتائجها الوخيمة المروعة ، على أن تمثل مقدونيا للحضارة الهلينية لم يكن فيه الشفاء لعلتها الكامنة المتأصلة . فقد جر نظامها الملكى إلى تعرضها لأخطار ، كانت المدن الدول بمنأى عنها ، بغض النظر عما كانت تعانيه هذه المدن من ضعف فى نواح أخرى . لقد جعل هذا النظام الملكى مصائر مقدونيا ومقدراتها معلقة بنزوات وحياة أفراد لم يكونوا معصومين من الخطأ كما لم يكونوا مخلدين . فإنه إثر وفاة الإسكندر وإثر وفاة أرخيلاوس أيضاً، لم تلبث الأمجاد التى تبلورت فيها جهود عهدين زاهرين متتاليين أن انحلت إلى فساد وفوضى . بيد أن وقع هذا الانهيار لم يظهر فى مقدونيا وحدها ، بل فى هيلاس جميعها وفى نصف الجزء الباقى من العالم .

الفصل التاسع

تحرير الأفراد من عبودية المدينة الدولة

كان من نتيجة قضاء المقدونيين على سيادة المدينة الدولة أن شعر الأفراد بأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كواهلهم ، فى عصر أصبحت فيه حقوق المواطنة فرضاً ممقوتاً ، بدلاً من أن تكون حافزاً ووحياً خلاقاً .

وغنى عن البيان أن الحرب التى نشبت بين خلفاء الإسكندر من أجل أقتسام ميراثه أتاحت الفرصة لعدذ من المدن الدول كى تستعيد سيادتها ، مثل مدن إسبرطة ورودس ثم كيزيكوس Cyzicus وهيراكليا Heraclea اللتين تقعان على ساحل آسيا الصغرى المطل على البحر الأسود . ويرجع الفضل على نحو ما فى ظهور جزيرة رودس على المسرح ، إلى ما قامت به من تدابير خاصة . ففى عام ٤٠٧ ق.م اندمجت الدويلات الثلاث التى كانت تنقسم إليها الجزيرة من قبل ، مكونة وحدة سياسية ، وقد مكنت القوة الجديدة التى تأتت لسكان رودس نتيجة لهذا الاتحاد ، من استفادتهم من المركز الممتاز الذى نالته

جزيرتهم على حين فجأة بفضل توسع العالم الهلينى إلى ما حول شواطئ حوض البحر المتوسط الشرقى حتى مصر نتيجة لإطاحة الإسكندر بالإمبراطورية الفارسية . وكانت رودس تتحكم فى الطريقين البحريين اللذين يصلان ما بين الدردنيل ومقدونيا وما بين كورنثوس والإسكندرية. وقد عمدت رودس شأن غيرها من المدن الدول التى استطاعت أن تلعب بالفعل دوراً مستقلاً فى العالم الجديد العظيم الذى تألف من الممالك التى نشأت عن تقسيم الإمبراطورية الفارسية ، إلى أن تشبع نهمها بتحقيق الأطماع السياسية التى كانت تصبو إليها ، على الرغم مما كان ينطوى عليه ذلك من خطر إخضاع مواطنيها من جديد لعبوديتها التقليدية، بيد أن قلة من المدن الدول هى التى استطاعت أن تمضى فى هذا السباق حتى النهاية . فقد انسحبت أثينا قبل نهاية الشوط ، انسحاباً لا رجعة فيه بعد أن فشلت فى محاولتها من أجل تحدى سيادة مقدونيا فى حرب ٢٦٧ - ٢٦٢ ق.م كما أنها عندما تمكن عام ٢٢٩ - ٢٢٨ ق.م من تحقيق هدفها ألا وهو جلاء الحامية المقدونية ، مقابل مبلغ من المال ، قنعت بعد ذلك بأن تحيا حياة وادعة مستقرة فى حمد وشكر . وفضلاً عن ذلك فإنه كان بوسع مواطنى المدن الدول التى ظلت تكافح من أجل الاحتفاظ بسيادتها ، إذا ما شعروا بأن المطالب التى تفرضها دولهم عليهم باتت تتجاوز حدود الطاقة، أن يهاجروا إلى الإسكندرية أو إلى أية مدينة هلينية أخرى غير مستقلة من بين تلك المدن التى كانت

تنبثق بأعداد كـبيرة فى الأراضى التابعة للممـالك التى قامت على أنقاض الإمبراطوريتين الـفارسية والمقدونية. وكـان للفرد أن ينعم فى هذه المدن بكل مبـاهج الحيـاة التى كان يتـمتع بها فى ظل المـدينة الدولة دون أن يعانى شـيئاً من نغـصها . ولقد كـان هناك عدد وافر مـمن هاجروا عن طواعية ، من المدن الدول الفادحـة المطالب ، بالإضافة إلى الفائض من «اللاجئين المشرديـن» الذين اضطروا إلى هجر أوطانهم بحثاً عن أوطان جديدة .

ولقد كان الطريق ممهداً لقـيام هذه الحركة - وهى تقوم على أساس نفـسى مثلمـا تقوم على أسـاس «ديمغـرافى» - نظراً للنكبة الأدبيـة التى لحقت بالمـدن الدول خلال الفتـرة المدنسة بـالعار التى تمتـد بين عامى ٤٣١ - ٣٣٨ ق.م ، إذ أن ذلك كـان قد أثار بـالفعل نفـور طائفـة من صفوة مواطنيها.

وقد أخذ هذا الحادث الجلل صورة صراع أدبى خلقى نشب بين كل من سقراط وأثينا . فقد كان سقراط فى الحق أول شهيد هلينى . فإنه إذ تحدى باسم إله أعلى ، ومن حـيث المبدأ ، المـدينة الدولة التى زعمت أنها «مـدرسة هيلاس» على حـين أنها لم تكن أهلاً لأى وجـه من أوجه التكريم أو التقديس . وكان لهذا التحدى وقعه العميق ، لأن سقراط لم يكن على شاكلة أرخيلوخوس ، فقد أدى الخدمـة العسكرية فى إخلاص وبسالة. وكما أن ضميره قد تحرك ونهره عن القيام بما طالبته الدولة به،

فقــد أبى عليه أيضــاً أن يروغ من توقيع حكم الإعــدام عليه أو يتــحاشى تنفيذه بالفرار من السجن ومغادرة البلاد . ولم يكن هدف سقراط ، على خلاف مرمى أرخيلوخوس ، هو النجـاة بحـياته ، بل لـقد أصــر على فقدانها . كما كبد أثينا فى إجـباره إياها على أن تختار أحد أمرين ، إما احترام ضميره وإما إزهاق روحه ، هزيمة أدبية أشد بلاء من الهزيمة التى منيت بها على يد إسبرطة منذ خمس سنوات . لم تكن تلك الهزائم التى لقيـتها أثينا على يد القاهر الإســبرطى ليساندر Lysander أو الفاتحين المقدونيين فيليب الثانى وانتيجونوس جوناتيس Antigonus Gonates تعدو الجانب العسكرى . بيــد أن هزيمتها على يد سقراط كانت هزيمة أدبية خلقية . لقد جلبت الإلهة أثينا على نفسها العار ، فى واقع الحياة ، عندما أدلت بصوتها ضد سـقراط عام ٣٩٩ ق.م ، بقدر ما نالت ، على خشبة المــسرح ، من مجد باقتراعــها فى صالح أورستيس Orestes عام ٤٥٨ ق.م وما من شىء أثار حفــيظة الهلينيين على المدن الدول جـمعاء كإعدام سقراط بعد مـثوله أمــام القضــاء . ذلك لأن أثينا قد أقــامت من نفسها مـثلا أعلى لما ينبغى أن تكون عليه ســائر المدن الدول الهلينية . وكان لسقراط أصدقاء ومعجبــون ومريدون فى كثير من الدول إلى جانب ما كانوا فى وطنه ومسقط رأسه .

وكان من بين من أســهموا أيضــاً فى تحرير الأفراد من ربقــة المدن الدول الكاتب المسرحى الآثينى يوربيبيديس Euripides الذى كان مواطناً آثينيا كسقراط ومن معاصريه أيضاً . إذ كان يوربيبيديس فى تنديده علانية

بالسمات التقليدية للآلهة الأوليمبية، إنما يجرى معول الهدم فى عقيدة التعبد للمدن الدول، نظراً لأن هذه المدن كانت تأخذ فى ظل هذه العبادة، كما أسلفنا، صورة بعض الإلهات اللاتى ينتسبن إلى مجموعة الآلهة الأولمبية. أما فى بلاد هيلاس بالقارة الآسيوية، وقد كانت هذه على الدوام أسبق لعصرها من أثينا ، فإن **أكسينوفانيس** من كلوفون Xe-nophanes of Clophonفيلسوف القرن الماضى أى القرن السادس، كان أول من قاد هذه الحملة، قبل **يوريبيديس** بمدة لا تقل عن جيلي. بيد أن سهام **يوريبيديس** كانت أشد من سهامه فتكًا، لأن الجمهور الهلينى فى عصره كان مهيئا من الناحية النفسية، للاستجابة إلى أبعد حد لهذا النقد، كما يعد **يوريبيديس**، بالنظر إلى ميوله الفكرية وإلى تأييده أيضاً لحقوق المرأة واستنكاره لفظائع الحرب بوجه عام بشيراً بعهد جديد.

أنجبت أثينا ، خلال الجيلين التاليين ، اثنين من العباقرة : هما **أفلاطون** (قرابة ٣٤٧ - ٤٣٠ ق.م) **وأرسطو** (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) اللذان كانا أعظم مفكرين هلينيين ، لا بالنسبة لعصرهما فحسب ، بل بالنظر للتاريخ الهلينى جميعه .

وكان السخط قد استبد **بأفلاطون** ، ذلك المواطن الآثينى الذى ولد بعد نشوب الحرب فى سنة ٤٣١ ق.م مباشرة ، إزاء ما شهده فى أثناء حياته من انحراف الديمقراطية الآثينية ، عن جادة الصواب ، فضلاً عن علة أخرى أشد خطورة من هذه ألا وهى استشهاد سقراط ، الذى كان

أفلاطون من تلامذته المخلصين . وكما أنه لم يكن فى استطاعة أفلاطون قط أن يغفر لأثينا هذه الزلة ، فلم يكن فى مقدوره أيضاً أن يشفى من الصدمة التى أصابته بعد أن تبددت الآمال التى كان يعلقها عليها . غير أن أفلاطون ، فى حملته على النظام الديمقراطى ، لم يكن يرى ثمة نظاماً آخر للحياة السياسية أفضل من نظام المدينة الدولة . فإنه لم يزد على استعاضته عن المبادئ السياسية الآثينية ، بترجمة علمية للمبادئ السياسية الإسبرطية ، تخيل فيها إحلال «سيادة النظراء» الإسبرطيين ، ذات الشهرة التاريخية ، محل «سيادة» الفلاسفة التى كان يدعو إليها فيثاغورس وأتباعه . وكم كان يتوق أفلاطون إلى ترجمة تلك الصورة الخيالية التى ارتسمت فى ذهنه إلى واقع ملموس ، بل لقد راوده أمل باطل فى أن يختصر الطريق إلى هذا الهدف البعيد بإغراء ديونيسيوس الثانى ، الطاغية المعاصر فى سرقوسة بأن يخلع نفسه عن العرش وذلك بفرضه خطة أفلاطون الدستورية على رعاياه . كان أفلاطون ، فى كل من طريقة تفكيره ونشاطه السياسى ، ابن عصره . بيد أن أفلاطون الذى يرتفع شامخاً عن كل زمان ومكان هو أيضاً أفلاطون الشاعر وأفلاطون النبى .

أما أرسطو فلم يكابد ما كابده أفلاطون من آلام روحية لأنه كان ، من ناحية ، أقرب إلى السواد الأعظم من بنى البشر ممن لا يحلقون فوق أجنحة الخيال ولأنه كان ، من ناحية أخرى ، من أبناء جيل قطع شوطاً

أبعد مما قطعه جيل **أفلاطون** فى مضمار التأقلم بظروف الحياة غير المتمدينة. وكان فى استطاعة **أرسطو** أن ينسل كسرطان البحر من قوقعة اجتماعية إلى أخرى دون ما حرج . كان وطنه هو تلك المدينة الدولة والمستعمرة المغمورة التى تعرف باسم ستاجيروس Stageirus والتى تقع فى مواجهة الساحل الغربى من شبه جزيرة خلكيديكى . وقد ضمت هذه الجزيرة إلى مقدونيا على يد الملك **فيليب** الثانى فى أثناء حياة **أرسطو** رحل **أرسطو** عن ستاجيروس ولم يزل شاباً يافعا ، وقسم حياته العامة بين أثينا وبلاط **هرمياس** Hermeias ، طاغية تلك الإمارة الهلينية المغمورة التى كانت تتألف من أتارنيوس Atarneus وآسوس Assos فى الأراضى الطروادية، وبين بلاط الملك **فيليب** فى بيلا Pella ، وعلى الرغم من أن **أرسطو** قد عاش فى كل من مقدونيا والإمبراطورية الفارسية (إذ أن إمارة هرمياس تقع فى الأراضى الفارسية) فلم يكن يرى ، شأنه شأن **أفلاطون** ، خيراً من نظام المدينة الدولة ، كما أنه وضع بدوره مشروع دستور للمدينة الدولة لم يكن يختلف فى جوهره عن خطة **أفلاطون** . وفى الوقت ذاته نشر **أرسطو** مجموعة من البحوث تناول فيها بالشرح والتحليل الدساتير القائمة بالفعل فى المدن الدول ذات التاريخ العريق ، وقد قام بدراسة هذه الدساتير دراسة موضوعية بحتة باعتبارها أنماطاً للحكم وليس باعتبارها آلهات ومعبودات. وبالإضافة إلى ذلك فإنه على الرغم من أن **أرسطو** كان غافلا على هذا النحو المزرى عن الدلائل السياسية السائدة فى عصره ، إلا أنه من الممكن النظر إليه باعتباره

الرسول الفكرى فى واقع الأمرللعصر اللاحق على عصره المدينة الدولة ، فى التاريخ الهلينى. كانت مبادئه السياسية قصيرة الأجل مثل مبادئ **أفلاطون** . أما سر عظمته فيكمن في الجهود الضخمة التى بذلها من أجل تنسيق مختلف العلوم، سواء المنطق أو علم الأحياء ، فى تصنيف مترابط موحد يسهل نقله - على اعتبار أنه جانب من محصول الثقافة الهلينية الجامع- إلى غير الهلينيين ممن هم فى سبيل التشبع بالحضارة الهلينية .

ولقد كانت الفلسفة الأرسطالية بمثابة أداة فكرية على جانب كبير من الأصالة والقوة ، مما قيض لها الحياة بعد انحلال المجتمع الهلينى ، وأتاح لها أن تطبع بطابعها العالم الإسلامى والعالم المسيحى الغربى . ومما يذكر أن الغرب لم يستطع أن يتحرر من سحر **أرسطو** حتى القرن السابع عشر المسيحى ، أى بعد مضى ما يقرب من ألفى سنة من التاريخ الذى تألق فيه نجم **أرسطو** . بيد أن عبقرية **أرسطو** فى العلوم الطبيعية، وكذا فى دراسته للأحوال الإنسانية ، لم تكن عبقرية قائمة على الإلهام فلم يتابع **أرسطو** ما اهتدى إليه **لوكيبوس** Leucippus بإلهامه من أن المادة تتألف من ذرات ، ولكن الذى تابع هذا الإلهام هو معاصره الذى كان أكبر منه سناً وهو **ديموكريتوس** الأبديرى Democritus Of Abdera (وأبديرا مدينة مستعمرة هلينية أخرى تقع على الساحل الشمالى لبحر إيجة) . كما لم يهتد **أرسطو** بحدسه إلى ما اهتدى إليه الشاب **هيراكليديس** البنطى Heracleides Ponticus كما أن **أرستاخوس**

Aristarchus من ساموس (نحو ٣١٠ - ٢٣٠ ق.م) هو الذى تابع الفكرة التى تقول بأن المحور الذى تدور حوله الكواكب هو الشمس وليس الأرض.

وقد خلق نظام الحياة الهلينية الجديد ، الذى أسفرت عنه الإصلاحات الثورية التى قام بها كل من **فيليب والإسكندر** ، تلك المجالات الشهيرة لحرف الأفراد التى لم تكن معروفة فى ظل أنظمة المدينة الدولة الصارمة . فلم يكن فى وسع المهاجر الهلينى أن يشتغل فى الدولتين الهلينيتين اللتين خلفتا الإمبراطورية الفارسية - وهما مملكة مصر المقدونية التى أسسها **بطلميوس** « المنقذ » أحد قواد **الإسكندر** ، ومملكة آسيا المقدونية التى أسسها قائد آخر هو **سلوكوس** Seleucus «القاهر» - بالتجارة فحسب ، بل بالمهن والفنون الحرة . كان أمامه فى الإسكندرية ، عاصمة مصر البحرية ، التى حلت محل أثينا باعتبارها المركز التجارى والفكرى للعالم الهلينى ، أن يعمل مهندساً أو طبيباً أو أن يشتغل أديباً ، أو عالماً ملحقاً «بالمتحف» (وهو معهد للبحوث تقوم الدولة بتمويله) . ولم يكن هناك ما يحول دون تعاون العالم الفلكى المقيم فى مدينة سلوكية Celeucia على نهر دجلة ، التى كانت بمثابة العاصمة الداخلية للمملكة السلوكية ، مع زملائه الفلكيين البابليين . كما كان بوسع النازح إلى مملكة من هذه الممالك أن يطمئن إلى أن حريته الفردية ستكفل له حتى وإن دخل فى خدمة التاج ، فى وظيفة مدنية ، أو

انخرط فى سلك الجندية . ولقد تمخضت حرب السنوات المائة التى نشبت بين المدن الدول (٤٣١ - ٣٣٨ ق.م) عن ظهور فريق من الجنود المحترفين - مثل القائد الآثينى إفيكراتيس ، والملك الإسبرطى أجيسيلاس - استهلوا حياتهم بالانخراط فى سلك الجندية فى بلادهم ، وانتهى بهم الأمر إلى أن تحولوا فى الواقع إلى دول مستقلة ، تحتفظ بجيوشها المحترفة الخاصة بها ، شأن القواد الذين ظهروا فى إيطاليا فى أواخر العصور الوسطى ، والذين عرفوا باسم كوندوتييرى Condottie-ri . ولا شك فى أن عبء مثل هؤلاء الجنود المرتزقة على المجتمع وخطرهم على أمنه كانا يتضاءلان بعض الشىء بدخولهم فى خدمة هذه الممالك الجديدة ، وكان بوسعهم أن يدخلوا فى خدمتها دون أن تمس حريتهم ، ذلك لأنه برغم أن الإسكندر وخلفاءه كانوا يدخلون فى عداد الآلهة من الوجهة الرسمية ، إلا أنه كان بوسع الفرد أن يعمل فى خدمتهم على أساس مادى دون أن ينتظر منه القيام بفروض العبادة وواجبات البذل والتضحية التى كانت تطالب بها إلهات المدن الدول .

وانعكس الاهتمام الجديد بحياة الأفراد الخاصة على المسرحيات التى قدمتها تلك « المدرسة الجديدة» فى الكوميديا الآتيكية ، التى تألق نجمها خلال فترة الانتقال بين العهد القديم والعهد الجديد . كانت «المدرسة القديمة» وأشهر أساتذها أرستوفانيس Aristophanes الذى كان من المعاصرين لسقراط ويوريبيديس ، تنزع إلى السخرية اللاذعة بمن هم على قيد الحياة ممن نالوا فى نظر الجماهير شهرة ومجداً . وكان رجال

السياسة هم الهدف المفضل ، وإن لم يكونوا هدف أرستوفانيس الوحيد، ذلك لأنه كان يؤلف مسرحياته خلال الحرب التى دارت بين عامى ٤٣١- ٤٠٤ ق.م ، أى فى الوقت الذى كانت فيه الحياة السياسية الآثينية تعانى اضطراباً غير معهود (وقد كان أرستوفانيس نفسه متحدثاً جريئاً باسم حزب السلام) . أما المدرسة الجديدة - التى ظهرت مقوماتها بالفعل فى مسرحيات أرستوفانيس فى فترة ما بعد الحرب ، وإن كانت مسرحيات الكاتب المتأخر ميناندر Menander (١/٣٤٢ - ٢٩٢ ق.م) تمثلها أصدق تمثيل - فقد كان اهتمامها منصباً على نوع من كوميديا السلوك التى تضم شخصيات مسرحية من وحى الخيال فى مثل الأحوال الاجتماعية التى كانت تحيط بالطبقة الوسطى فى ذلك العصر . وكانت الشخصية المسرحية البارزة فى الرجال هى شخصية صاحب العقار والإيراد الثابت - أو وريثه المرتقب - الذى يحصل على دخله من استثمارات ممتلكاته العقارية . وكان هذا هو أسلوب الحياة الذى تطمح إليه الغالبية العظمى من النظارة ، أما الأقلية المجدودة التى تمكنت من بلوغه ، فقد أخذت تكافح كفاحاً مريراً من أجل الاحتفاظ به ، وذلك من خلال المراحل الباقية من التاريخ الهلينى . وكان الأساس فى النظام السياسى الذى اصطنعته أثينا بعد جلاء الحامية المقدونية عنها عام ٢٢٩- ٢٢٨ ق.م ، هو مساندة أصحاب الدخول الثابتة وحماية حقوقهم فى الملكية . وعلى هذا الأساس أيضاً سار النظام السياسى الذى أرسى أواغسطس قواعده فى جميع أنحاء العالم الهلينى بعد انتصاره فى معركة أكتيوم عام ٣١ ق.م.

وعلى حين أنه قد لوحظ فى «الكوميديا الجديدة» اختفاء جانب الاهتمام بالأحوال السياسية الجارية فى المدينة الدولة ، وهو الجانب الذى كانت تعنى به «الكوميديا القديمة» فإن الشخصيات النسائية التى عرضها أرستوفانيس وجعلها هدفاً للتندر والفكاهة ، لعبت فى كوميديا السلوك دوراً أشبه بالدور الذى كانت تلعبه المرأة فى الحياة ، مما يدل على أن وضع المرأة قد طرأ عليه تحسن ملموس . كما أن الدور الذى لعبه الرقيق الخدم فى الكوميديا الجديدة كان أقوى أيضاً من دور المرأة . ودائماً ما كانت عقدة المسرحية تتوقف على الغيرة والمهارة اللتين يبديهما عبد مخلص فى سبيل تحقيق مآرب سيده ، ونستدل من ذلك أيضاً على أن هذا الموقف المألوف لدى كاتب المسرحية كان انعكاساً لواقع الحياة فى زمنه . كانت المدن الدول ، زمن سؤددها ، بمثابة أندية يؤمها الرجال الأحرار ، ولا يسمح قط بدخولها للنساء أو العبيد . أما فى ظل نظام ما بعد المدينة الدولة، فإن هذه الطبقات التى ظلت محرومة من حقوق المواطنة طوال هذا الزمن ما لبثت أن استعادت جانباً من المركز الاجتماعى الذى كانت تتمتع به خلال «عصر البطولة» أو «عصر البربرية»، وذلك قبل أن يظهر نظام المدينة الدولة ويلقى بها فى عرض الطريق .

وكان فى وضع العبيد الخدم فى أثينا قد أخذ فى التحسن منذ زمن مبكر يرجع إلى القرن الخامس ق.م ، ويعود الفضل فى ذلك إلى ما كانت تقضى به سياسة الحكم الديمقراطى من وجوب تحمل الأغنياء

تكاليف صيانة الأسطول الآثينى . فقد كانت التكاليف التى تزيد على مجموع الأنصبة التى تسهم بها الدول التابعة الحليفة ، يتم تدبيرها عن طريق تكليف الأثرياء من بين المواطنين الآثينيين بتحمل نفقات تجهيز السفن الحربية . وقد بلغت هذه الضرائب الإجبارية المفروضة على رأس المال (التى سميت «بالخدمات العامة» توخياً للرقة فى التعبير) ، غاية فى الفداحة حتى إن ضحاياها اضطروا إلى الهبوط بمستوى معيشتهم . وكان من بين ألوان التدبير والاقتصاد الشهيرة ، أن يتنازل الثرى عن ترف الاحتفاظ بالعبيد من أجل القيام بالخدمة الخاصة فى منزله ، فى سبيل إلحاقهم بعمل مجز ، وبذلك يتحولون إلى مصدر ربح له بعد أن كانوا عبئاً ثقيلاً على ميزانيته . ولكنه لما كان قد طلب إلى هذا المتاع البشرى أن يلتحق بعمل معين ، وأن يجنى ربحاً من وراء هذا العمل ، فقد كان فى ذلك ، أولاً وقبل كل شىء ، اعتراف صريح بآدميته . والآدمى لن يخلص فى توفير الربح لشخص آخر مالم يسمح له بأن يقتطع نصيباً طيباً مما يجنيه . ولقدتبين لملاك العبيد فى أثينا الذين كانوا يعانون ضائقات مالية ، أنه مما يعود عليهم بأوفر الربح أن يثيروا فى العبد - وهم بسبيل عقد الصفقة مع العبيد الذين ينتوون إعفاءهم من الخدمة الخاصة بقصد إلحاقهم بحرف معينة - أشد الحوافز التى تكفل نجاح مشروعهم المشترك؛ وكان أقوى هذه الحوافز على الإطلاق أن يسمح للعبد الملحق بعمل ما أن يبتاع حريته على أقساط . وقد جاء فى مقال يتناول بالنقد اللاذع الديمقراطية الآثينية ، ظهر خلال الحرب التى دارت بين ٤٣١ -

٤٠٤ ق.م ، بقلم مراقب آثينى مـجهول ، أنه كان يتعـذر على المرء ، وقت كتـابة هذا المقـال ، أن يميز فى أثينا بين الـعبد والحـر سواء من حيث الملبس أو من حيث المظهر العام ، كما أن إيذاء العبد لشخص ما لم يكن ليسفر إلا عن إثارة المتاعب فى وجه المعتدى ، لأن إصابة العبد الذى يؤدى عـملاً مـربحاً بعـاهة بدنيـة تجر بدورها إلى خـسارة مـادية لصاحب هذا العبد .

ومع ذلك ، فإن فئات ثلاث على أقل تقدير من بين فئات المجتمع، لم يعد عليـها بنفع انهيار هذا النظام الاجـتماعى الذى بات عبـئاً تنوء به الكواهل . فعلى حـين أن الغنم كان من نصيب العـبيد الخصوصـيين ، فقد كان الغـرم من نصيب العبيد الزراعيـين والصناعيين . والرق - وهو شرعية معاملة الآدميين على أنهم متاع - يعتبر فى كافة الظروف والأحوال نظاماً غير إنسانى ، والشىء الوحيد الذى يخفف من بشاعته المتأصلة هو تلك العلاقة الشخصية التى تنشـأ عادة بين العبد وسيده ، نظراً لأنه ليس من السهل أن يعامل المرء آدمياً على اعتبار أنه ليس بآدمى ، حين يتعامل معه وجهاً لوجه . وهذا هو السبب فى أن حال العـبيد الخصوصيين كان فى الغالب خـيراً من حال العـبيد الزراعيـين والعبيـد الصناعيين ، كـما تفاقمت بلوى العـبيد الزراعيـين والصناعيين فى العالم الهلينى ، نتـيجة لاتساع نطاق المعاملات التجارية ، وتقدم العلوم التطبيقية ، بحيث باتت علاقاتهم بسادتهم علاقات غير شخصـية تتسم بالقطيعة والجفاء . والفئة

الثانية من فـئات المجتـمع التى وقع عليها الغرم أيضـاً كانت ذلك العدد الهائل من الأيدى العاملة الزراعية فى مصر وجنوب غرب آسيا الذى ضم برمته إلى مجتمع العالم الهلينى نتيجة لفتوحات الإسكندر الأكبر . ومما يذكر أن أحوال هؤلاء العمال - الذين كانوا أحراراً من الوجهة القانونية ، عبـيداً من الوجهة العـملية - لم تكن فى ظل الحكم الفارسى المـعروف بمرونته ، بأحوال سيئة . كما لم يكن السادة الذين اضطلع هؤلاء العمال بعبء إعالتهم يـتجاوزون آنذاك نفراً قليلاً من النبـلاء والكهنة . بيد أنه كان من بين الأهداف التى قصد إليها وحققها أيضاً الغزو الهلينى لأراضى الإمبـراطورية الفارسـية ، هو بث مـجمـوعة أخـرى من المدن الهلينـية الاستعمـارية . ولقد كان الإسكندر نفسه وخلفاؤه مـن بعده - وبخاصة أسرة سلوكوس المالكة فى آسيا - يتمتعون ببصيرة نافذة فى اختيار مواقع المـدن ، كمـا كان يبـرع المسـتوطنون أنفـسهم فى العـمل على ازدهار مـسـتعـمراتهم . لقـد تمكنت كل مـن سلوكيـة على نهـر دجلة ودوراً أوروبوس Dura Europus على نهر الفـرات أن تصمـد لعوادى الزمن زهاء خمسمائة سنة . أما إنطاكية على نهر العاصى والإسكندرية على نهر النيل فلا تزالان قائمتين حتى اليوم ، ولقد قدر للإسكندرية أن تزدهر مرة أخرى ، وأن تتحول إلى مـدينة كبيرة تضم بين سكانها نسبـة كبيرة من اليونانيين . ولـم يحـدث فى التاريخ أن شيدت مدن بهذه الكثـرة كما لم تصب أى من المدن الجديدة التى أنشئت فى مـختلف العصور وفى شتى

البقاع ، هـذا القدر من النجاح الذى نالته المـدن الدول الهلينية فيـما عدا المدن التى تأسست فـيما يبدو بعد غـزو الكاستيليين الإسـبان للمكسيك وبيرو . ويعد استـعمار الهلينيين لمنطقة جنوب غرب آسيـا ومصر نصراً كـبيـراً فى نظرهم، بيد أن وقـعـه كان أشـبه بالكارثة بـالنسبـة للسكان الوطنيين ، ذلك لأن عبء الملاك الهلينيين كان أشد وطأة على كواهلهم من عبء سادتهم السـابقين . أما حال العمـال الزراعيين المصـريين فقد كان أشـد من ذلك بلاء ، لأنهم كانوا يخضعـون فى مصر لسيـد واحد مطلق السلطـة ومطلق الوجـود أيضاً ألا هـو الملك البطلمى . لقـد أراد سقراط أن يبرر الناحـية العدوانيـة لخطته الاستـعمارية الكبـرى بقوله إن البلاد المغلوبة ستفيد من «الإشراف الهلينى». ولقد وضع البطالمة بالفعل نظم الإشراف وأساليبه ولكنهم استـخلصوا لأنفسهم الأرباح كلها . وفـى عهـودهم قصت جـزة عمال الأرض المـصريين حـقيقـة لا مجـازا . أما العنصر الثالث من عناصر المجـتمع، الذى أصابه الغرم من جراء تطبيق النظام الجـديد ، فهـم الفلاحـون الأحرار الذين كـانوا يقطنون الأقـاليم القديمة من العالم الهلينى . وفى صـقلية ، بات هؤلاء الفلاحون الأحرار يشعرون ، قرب نهـاية القرن الثانى ، بأنهم قد أصبـحوا أسوأ حالاً من الرقيق أنفسهم الذين يعـملون فى المستعمرات الزراعيـة والذين دفعهم ما يسامونه من سوء المعاملة إلى القيام بثورة مسلحة .

وهكذا كـان المستـفيـدون من انهيـار نظام المدينة الدولة الـبائد لا يمثلون سـوى أقلية ضئـيلة فى عالم هلينى بلغ غـاية من الاتساع . ومع ذلك فقد كـانت هذه الأقلية هى العنصر المفـوه الناطق ، فى حين كانت الجماهير المضطهدة خرساء بكمـاء ، كالأغنام أمام جزاريها ، أما بالنسبة لهذه الأقلية المفصحة فقد بدت تجربة التحرر هذه ، حقيقة ملموسة . غير أنه كان على هؤلاء أن يؤدوا - كما هى الحـال مع كافة المكاسب - ثمن مكاسبهم هذه غالـياً . فلئن كانت المطالب الفادحة التى فرضـتها المدن الدول على الأفـراد قد زادت من حـدة التوتر فى الـحيـاة الهلينية بصـورة تجاوزت فـى النهاية حـدود الطاقة ، إلا أن التخـفف من هذا التـوتر قد سلب الحيـاة بعض لذتها وقيـمتها . فـقد وجد الأفراد أنهم قـد تحرروا بالفعل من قيود المدن الدول ، إلا أنهم لم يكونوا قـد أنشئوا بعد علاقة ولاء جديدة تجاه شئ آخـر . وهكذا كان ثمن التحرر من طغـيان المدينة الدولة هو الفـتور الأليم فى الإحسـاس بالغيـرة والولاء . والآن وبعد أن تحطمت الأصنام القديمة ، فماذا تكون آلهة الهلينيين الجديدة ؟

أكان من الميسور بعد عصر الإسكندر أن يجد الهلينيون آلهة حقيقة بالعبادة ، فى الملوك الذين برهنوا على سطوتهم بأن غيروا وجه العالم ، ودللوا على كرمهم وسخائهم بأن وضـعوا فى اعتبارهم فى أثناء ذلك فتح آفاق جديدة أمام الطبقة الوسطى الهلينية ؟ كان كاهن وحى الإله المصرى آمون الذى يقوم فى واحة بالصحراء الليبية قد دعا الإسكندر بأنه ابن الإله

ومن ثم فهــو فى ذاته إله . وقبل عــهد **الإسكندر** بمــا لا يقل عن ألفى وخمــسمائة عــام ، كان فراعنة مــصر يعتــبرون آلهة بــحكم وظائفهم ، وخلال مالا يقل عن ألفى عام من هذه الحقبة كان الفرعون يعد أيضاً ابناً للإله رع ، أنجبه رع من أم الملك الإلهة الآدمية . كــما كان الهلينيون ينظرون إلى آمون رع باعتبار ندا للإله **زيوس** زعيم المجموعة الأوليمبية المقــاتلة . ويقال أن **زيوس** قد أنجب مــن بعض النسوة الفــاتنات عدداً كــبيــراً من الأبناء - من بينهم **هيراكليس** Hèraklès - بيــد أن هؤلاء الأبناء الآدميــين الذين أنجبهم زيوس فى القــديم لم يكونوا سوى أبطال خرافيين . أما أن ينجب **زيوس** ابناً آدمياً بين حين وآخر فمسألة مخالفة. وكان الآدمــيون الوحيــدون الثابت ذكــرهم الذين قام الهلينيــون حتى هذا التاريخ بتأليهــهم ، هم مؤسسو المستعــمرات ، ولم يكن هؤلاء يرفعون إلى مصاف الآلهــة إلا بعد موتهم ، كما لم تكن عبــادتهم تتجاوز نطاق المــدينة التى كانت من صنعــهم . لقد كــان أمر اتــخاذ **الإسكندر** صفة الألوهيــة التى ألصقــها به الكاهن المــصرى ، يبــدو فى نظر المحــيطين **بالإسكندر** من المقدونيين أو من مواطنى المــدن الدول حماقة تبعث على الرثاء . وإذا كــان قد أصــبح من العار منذ أمــد طويل أن تصور الآلــهة الأولمبية بصورة البرابرة الخارجين عن القانون الذين ينتسبون إلى العصر السابق للعصر الهلينى وهو عصر الهجرة الجماعية ، فقد كان من الغريب حقاً أن يرى أحد هؤلاء الآلهة البرابرة يهبط من جــبل أولمبيوس متجسداً

فى شخص ملك مقدونى. ولم يحدث أن زعم أباطرة الفرس أنفسهم الذين كان **الإسكندر** حريصاً على ترسم خطاهم ، أنهم آلهة ، بل إنهم عمدوا أيضاً إلى أن يبرئوا ساحتهم من هذا الادعاء بأن نادوا بأنهم مصطفون من الله ونواب عنه . أيرى إله أولمبيا متجسداً ، ومزوداً بالسلطات الاستبدادية التى كان يتمتع بها الإمبراطور الفارسى ! أجارنا الله من مثل هذا المنقذ للمجتمع الإنسانى ! إن فى ذلك كبرياء من نفس إنسانية ينذر بسقوطها . وما كان حال المواطنين إزاء السماح بانتقال ألوهية المدينة الدولة المستبدة إلى الملوك إلا كحال المستجير من الرمضاء بالنار . لقد تخرج الأمير المقدونى على يد مربيه ومعلمه العلينى **أرسطو** ، ولم يزل بربريا ناقص التهذيب ، وإن اكتسى فى ظاهره بغشاء رقيق من الحضارة الهلينية ، كان عرضة لأن تسقطه عنه عواطفه الجامحة ، مع ما قد يسفر عنه ذلك من عواقب وخيمة. أما عن خلفاء **الإسكندر** العظام ، فما كانوا إلا صوراً مصغرة له، كما لم يكن للبصيرة السياسية أو المثالية اللتين كان يتحلى بهما نموذجهم العظيم أن تعوضهم عن بربريتهم المتأصلة . لقد كانوا فى واقع الحال سلالة فئة البرابرة المراهقين الذين رسمت الآلهة الأولمبية على صورتهم . وقد بلغت هذه الفئة أقصى حدود التطرف والهوس فى نسخها النسوية . وكان أولى تلكم النسوة السليطات اللاتى أثبتن وجودهن هى أم **الإسكندر** المولوسية التى تدعى **أولمبياس** Olympias وقد شعر العالم الهلينى فى عصر ما بعد **الإسكندر** ، بوطأة «حكم النساء الرهيب»، متمثلاً «

ليوديكى » Laodice وفى مـا لا يقل عن ثلاث من بين عدد لا يحـصى من شبيهات كليوباترا .

وحقق الإسكندر النجاح فى مطالبته بإصرار وإلحاح أن يكون إلهاً، ومـا إن أرسى الإسكندر قواعـد هذه المسابقة الـتاريخية ، حـتى أصبح خلفاؤه يتخذون لأنفسهم لقب إله كجزء متمم لمراسيم ارتقائهم العرش . واسـتغلت صـفة الألوهيـة الرسمـيـة هذه ، التى خلعت على الإسكندر وخلفائه ، فى خدمة غرض سياسى عاد بأعظم الفائدة . إذ كان فى وسع ذلك الإله الذى يحظى بمـثل هذا الاعتراف الرسـمى أن يملى إرادته على الآلهة المتخفيـة التى تتقمص المدن الدول دون أن يكون فى ذلك تعد ، من الوجـهة القـانونية ، علـى سيـادة هذه المدن . ومـثل هذه الخرافـة الدستورية ، وإن كـانت قد حفظت لمواطنى هذه المـدن ماء وجوههم ، إلا أنها لم تستهوهم أو تجد صدى فى نفوسـهم . فما كان لعقيدة الآلهة الملوك الآدمـيـيـن أن تملأ الفـراغ الروحى الذى كـانت تعـانيه النفـوس الهلينية، حتى وإن كف هؤلاء الحكام المؤلهـين عن القيام بدورهم كقادة عسكريين مـقدونيين يعيـثون فى الأرض فسـاداً ويشيعون بأرجـاء العالم الاضطراب والشـغب ، من جـراء تكالبـهم على أسلاب الإمـبـراطورية الفارسية . لقـد عجز القياصرة أنفسهم ، وهم الذين أسـبغوا على العالم نعمـتى الوحدة والسـلام ، بعد أن كـان خلفاء الإسكندر قد مزقـوه شر ممزق عن أن يثيروا فى النفوس غير نظرة احترام فاترة واهنة .

وكان حق الملك المؤله فـي أن تقام له شعائر العبـادة يستند إلى ما كان يسديه للمجـتمع من أياد بيضاء بقيامه بدور المنقـذ . بيد أنه ما كان لذلك المواطن الذي كان فيما سبق ينتسب إلى مدينة دولة ، قد آل أمرها إلى أن أصبحت موضـعاً للسخرية والتهكم ، أن يطمـئن إلى أنه سيجد الملك المنقـذ رهن إشارته كـلما احـتاج إليـه . فضـلاً عن أنه لم يكن يطمـئن بحال إلى أنه سـيجـد من هذا الملك الإله ، إذا مـا تجلى له ، العون العاجـل وقت المحنة والشدة . وإذا كان الأمر قـد ذهب بالفرد ، بعد أن مر بتجربة تأليه المـدينة الدولة التى خيبت آماله ، إلى أن يسعى إلى العـثور على خـلاصه فى شـخص آخر يحل مـحل القوة الجـماعـية للإنسان فلعله كان مـن الخير له أن يعتمـد فى ذلك على نفسه ، أى أن يكون هو مخلص ذاته ، لو كـان له أن يبلغ هذه الذروة . ولن تكون هذه بالمهـمة الهينة أو اليـسيرة ، لأن السلطة السـياسيـة - ولانقول « السلطة الاستبـدادية » لوقعها المنفـر - التى كان يتمتع بهـا الملك المؤله ، لم تكن لتجدى فتيلاً . أما القوة الروحية فهى وحدها التى تستطيع أن تساعد النفس البشرية على الخلاص ، وإن استطاع آدمى أن يبلغ هذا الهدف عن طريقها فلابد أنه أقرب بنى البشر دون شك شبهاً بالله .

كان الملوك الفلاسفـة الوهميون الذين تخيلهم **أفلاطون** خلال عصر شهـد بوادر انهيار مكانة الـمدن الدول وهيبـتها ، من الأشـخاص الذين حققـوا بالفعل الخلاص لأنفسـهم ، إلا أنهم لبوا مكرهين نداء الواجب

فقفلوا راجعين إلى العالم لإنقاذ المجتمع الإنسانى أيضاً . وقد امتدت الحياة بحكيمين متأخرين - هما **زينون** من كيتيوم Zeno Of Citium (قرابة ٣/ ٣٣٥ - ٢٦١ ق.م) مؤسس المدرسة الرواقية فى الفلسفة ، **وأبيقوروس** Epicurus من ساموس (١/ ٣٤٢ - ٢٧٠ ق.م) الذى أسس المدرسة المكملة الأخرى التى عرفت باسمه - لكى يشهدا تمام الانقلاب الذى طرأ على العالم الهلينى ، ويجاهرا بإنكارهما للواجبات التى يفرضها المجتمع على الحكماء . أما الدولة الوحيدة التى كان لها أن تحظى بولائهم فهى المدينة العالمية ، وهى المدينة التى تتسع باتساع العالم كله ، أو إن شئنا الإيجاز فهى العالم المأهول بأسره (Oecumené) ، ولما كان الأمل قد تبدد فى قيام دولة عالمية هلينية ، وهو الأمر الذى كاد أن يبلغه **الإسكندر** الأكبر ، لو لم يحطمه موته المفاجئ وهو ما زال فى ميعة الصبا ، فإن «المواطن العالمى» المشايع للمذهب الرواقى أو الأبيقورى شعر بأنه لم يعد بعد مطالباً بالقيام بالواجبات المدنية الدنيوية المفروضة عليه . وإلى أن توحدت جميع البلاد الهلينية والبلاد المصطبغة بالصبغة الهلينية الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات فى ظل الإمبراطورية الرومانية وإلى أن مضى ما يقرب من مائتى سنة على قيام هذه الدولة العالمية المرتقبة ، لم يضطلع بعبء حكم العالم ، وذلك للمرة الأولى والأخيرة أيضاً ، ملك وفيلسوف رواقى ، سوى الإمبراطور **ماركوس أوريليوس** Marcus Aurelius

(الذى امتد عهده من عام ١٦٠ إلى عـام ١٨٠ بعد الميلاد) . وقد حاول كل من الدعاة الرواقيين والأبيقوريين ، بكل ما وسعهم من جهد ، تزويد هذا الآدمى الذى لا تقيده أية روابط اجـتماعية ، بدرع روحى يحـميه من كل قذائف القدر وسـهامه ويحيله طوداً شـامخاً لا تزعزعه تقلبـات الحياة وصروف الدهر . وذلك فى ظل مدينة دولة عالمية كانت - على النقيض من مزاعم الحكمـاء القائلين بأنهم جعلوا منهـا وطناً روحياً له - متـسعة اتساع الفضاء الخارجى بادرة برودته .

كان هؤلاء الفلاسفة المتمتعون بالاكتفاء الذاتى فى حياتهم الروحية، نماذج إنسانية للآلهة أحق بالتبجيل من الملوك أصحاب السلطة السياسية. بيد أنهم كانوا بدورهم مواضع للعبادة لا تبعث على الرضاء الكامل . إذ أن الرواقيين والأبيقوريين لم يلبثـوا ، فى محاولتهم بلوغ هدفهم الأسمى والارتفاع بأنفسـهم إلى ما فوق مسـتوى البشر ، أن جـردوا أنفسهم من المشاعر الإنـسانية . فلم يكن فى استطاعتهم أن يؤمنوا أنفـسهم ضد كل ألوان الإيذاء دون أن يضطروا إلى أن يستـأصلوا من نفوسـهم مـشاعـر المحبة والشـفقة بإخوانهم البشر ، ودون أن يتـحللوا من روحهم الوطنية ونزعة الخير فيهم . ثم إن هذه الفظاظة وذاك الجمـود المتعمد جعلا من المحـال عليهم أن يحـققوا الخـلاص لجيرانهم فـضلاً عن عـجزهم عن تحقيق الخلاص لأنفسهم . فماذا بعد ؟ .

الفصـل العاشر

فشل الملكيات والاتحادات فى تحقيق الوفاق السياسى

حين قفل الإسكندر راجعاً من بابل عام ٣٢٣ ق.م ، بعد أن تم له غزو الإمبراطورية الفارسية وغزو ولاياتها السابقة فى الهند ، بدا لفترة من الزمن - كما بدا عام ٤٧٩ ق.م ، عـندما طرد الحلف الهلينى الفرس من هيلاس الآسيوية ومن هيلاس الأوروبيـة أيضاً - كما لو أن العالم الهلينى قد حقق بالفعل الوحدة السياسـية ، وكان هذا الانتصار الظاهرى يبدو فى هذه المرة انتـصاراً ساحقـاً مؤزراً . بيد أن الأمل فى السـلام والوفاق لم يلبث أن تبدد عام ٣٢٣ ق.م ، كمـا حدث فى عام ٤٧٩ ق.م. فقد ترك موت الإسكندر المباغت عام ٣٢٣ ق.م الأثر ذاته الذى تركه النزاع الذى نشب بين إسبـرطة وأثينا فيما بعـد عام ٤٧٩ ق.م ، فقد انقـسم العالم الهلينى فى هذه المرة أيضاً إلى شيع متناحرة .

لم يكن خلفاء **الإسكندر** يتمتعون بمثل بصيرته التى حدته إلى الإيمان بأواصر الأخوة التى تربط بين أفراد الجنس البشرى ، كما أنهم اعترضوا أشد الاعتراض على الإجراءات التى حاول بها أن ينقل رؤياه إلى عالم الواقع ، وذلك بتحقيق المشاركة الفعلية والمساواة بين المقدونيين الغالبين والفرس المغلوبين . فقد أصر **الإسكندر** على أن يزوج ثمانين من قواده العظام بزوجات فارسيات . ويقال إن **سلوكوس** المظفر كان القائد الوحيد من بين هؤلاء الذى لم يطلق ، بعد وفاة **الإسكندر** ، زوجه الفارسية التى أجبر على الزواج بها . أما عن النظرة العامة التى كانت لدى خلفاء **الإسكندر** حول الأسلوب الذى يجب أن تسير عليه العلاقات بين الهلينيين وأبناء الشرق - إن حق أن كانت لهم نظرة عامة على الإطلاق - فإنما كانت تقوم على ميلهم إلى الأخذ بالمبدأ القائل بحق الهلينيين الفطرى فى السيادة . وبغض النظر عما إذا كانت هذه نظرتهم فى واقع الأمر أم هى خلاف ذلك فقد كان مسلكهم ينم بالفعل عن اعتناقهم لهذه الفكرة . وعلى أية حال فلم يكن هؤلاء يهتمون بالتفكير النظرى. فلم يحرص أحد منهم على شىء حرصه على أن يكون عملياً ، وذلك بالسعى حثيثاً لكى يقتطع لنفسه من ميراث سيده ، بحد السيف وبالدخول فى منازعات مع زملائه ، أكبر مساحة يمكنه الاستيلاء عليها والاحتفاظ بها . ولقد دارت حرب الخلافة إثر وفاة **الإسكندر** فى ظل كل ألوان الشغب والاضطراب التى كانت بمثابة التراث الحضارى الذى آل إلى الطبقة الأرستقراطية المقدونية عن عصر الفوضى والبربرية الذى سبق عصر المدينة الدولة ، واستناداً إلى جميع موارد الإمبراطورية

الفارسية المسلوبة المغتصبة . والحقيقة أن الحروب الطاحنة التى دارت رحاها بين الدول الشقيقة فى العالم الهلينى على مستوى المدينة الدولة طوال ثلاثة وتسعين عاماً (٤٣١ - ٣٣٨ ق.م) لم تلبث ، بعد أن قمعت مدة خمسة عشر عاماً (٣٣٨ - ٣٢٣ ق.م) ، أن عادت إلى الظهور مرة أخرى وعلى أوسع نطاق ، إثر وفاة الإسكندر . وهذا عين ما شهده تاريخ العالم الغربى المسيحى ، عندما انطلقت شرارة الحرب فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر بين المدن الدول الإيطالية ، وامتد لهيبها إلى حروب طاحنة نشبت إبان القرن السادس عشر بين الممالك المجاورة . وفى كل من الحالتين كانت نيران أتون الإله مولوخ Moloch تذكيها الكنوز المسلوبة من إحدى الإمبراطوريات المغلوبة . غير أن سبائك الذهب والفضة التى تكدست لدى الإمبراطورية الفارسية على مر الزمن ، لم تلبث أن طرحت فجأة للتداول مرة أخرى فى صورة رواتب للجند وهو ما حدث لإمبراطورية إنكا Inca فى بيرو ، فأسفر ذلك عن ضررين بالغين ؛ فضلاً عن أنه قد أدى إلى تضخم فى أعداد الجيوش المرتزقة المتناحرة ، فقد تسبب أيضاً فى انهيار اقتصاد المجتمع الغازى عن طريق إصابته بالتضخم المالى .

وهكذا يتضح لنا أن فقدان المدينة الدولة لسيادتها لم يمكن العالم الهلينى ، على أى نحو ، من تحقيق الوحدة السياسية التى كان فى مسيس الحاجة إليها . ولقد كان مولد الإسكندر وموته وبالا على ما حققه أبوه فيليب ، إذ أنه مد فى رقعة العالم الهلينى إلى أوسع نطاق ثم

ما لبث أن فتته سياسياً إلى عدد كبير من الدول المتناحرة التى قامت بينها حروب متصلة على نحو ما انحدرت إليه الحال فى المدن الدول من قبل ، وإن اختلف الأمر فى أن الأولى كانت تمثل آلات حرب بالغة القوة والجبروت. ولم تتعد الانتصارات السياسية التى حققتها الحضارة الهلينية خلال العصر الذى تلا موت **الإسكندر** أمر قيام مدن محلية جديدة تتجاوز أبعادها أبعاد المدينة الدولة القديمة ، غير أن ذلك لم يكن ليعوضها عن نعمة الوحدة التى أسبغها **فيليب** على بلاد هيلاس قبل أن يقضى نحبه .

ولو لم يعجل **الإسكندر** بالانحراف بطاقات مقدونيا ، وتوجيهها إلى تنفيذ تلك الخطة البالغة الطموح والتطرف التى كانت ترمى إلى إخضاع الإمبراطورية الفارسية برمتها لحكمه ، لكان قد تيسر لمقدونيا أن تحتفظ لنفسها بالقوة التى تكفل لها دعم اتحاد كورنثة من جهة ، ونشر الحضارة الهلينية بين الشعوب الشمالية البربرية التى ضمها **فيليب** إلى ملكه من جهة أخرى . بيد أنه ما إن عبر **الإسكندر** مضيق الدردنيل Hellespont عام ٣٣٤ ق.م ، حتى أنهكت قوى مقدونيا واستنفذت طاقاتها ، فى أول الأمر ، من جراء طلبات **الإسكندر** المتكررة للتعزيزات العسكرية من أجل سد النقص الناشئ عن الخسارة فى الأرواح التى كانت تصيب قوات حملته الأصلية فضلاً عن إقامة الحاميات فى الأراضى الشاسعة التى يحتلها ، كما أنهكت قوى مقدونيا أيضاً خلال فترة تقدر بمائة وخمسين سنة بعد وفاته ، نظراً للجهود المتصلة التى كان يبذلها

خلفاؤه على عرش بيلا من أجل السـيطرة على بلاد اليونان الأوروبية وفى سبـيل الوقوف أيضـاً فى وجه البـرابرة الشمـاليين ، وذلك اسـتناداً إلى جيـوش باتت مهلهلة مـخرقة بصـورة غاية فى الزراية ، لا تسـمح بحال بمواصلة خوض معارك متصلة تـدور رحاها فى جبهتين فى وقت واحد . ومن بين الآثار المؤسفة المـريرة التى ترتبت على فتوحات الإسكندر ما حدث عـام ٢٧٩ ق.م ، ولم تمض على وفاته غـير أربعة وأربـعين سنة فقط، حـين اجتاح أراضى مـقدونيا الغـزاة البرابرة الغـاليون ، وتمكنت جمـاعة من هؤلاء البـرابرة من أن تعبـر الدردنيل فى آثار الإسكندر وأن تقيم لها ملكاً دائماً فى فريجيا Phrygia ، وذلك دون أن يتمكن خلفاء الإسكندر من جـمع قواتهم أو كلمـتـهم من أجل طردهم (وقد اتجـهت جماعة أخرى إلى خزائن دلفى فردها الإله أبولو على أعقابها ، وربما لم يكن ذلـك هو أبولو بل الأيتوليـون) . وعندما أطاح الرومـان بالمملكة المقدونية عام ١٦٧ ق.م، عثروا بها على عدد كبير من مستعمرات البرابرة الشمـاليين التى كانت قد أسـست بناء على أوامر التاج المـقدونى ، فى المناطق غير المـأهولة المتاخمة لحـدود مقدونيا الشمـالية . وتفشى هذا العنصر الأجنبى الدخيل فى أرجاء البلاد ، كـما يتفشى السرطان ، وحل محل الوطنيين من الفلاحين المقدونيـين الذين التهمتهم نيران الحرب . وهكذا ظهـرت قـبل الأوان ، وفى إحدى الدول الهلـينية التى أنـهكتهـا الحرب ، أعـراض محليـة لمرض اجتـماعى قـدر له أن يصيب المـحيط الخارجى للإمبراطورية الرومانية بعد مضى أربعمائة سنة .

وكانت مقدونيا ومصر البطلمية وآسيا السلوكية هى الدول المقدونية الثلاث الوحيدة التى ورثت إمبراطورية الإسكندر العالمية التى لم تعمر طويلاً ، والتى كتبت لها النجاة بعد الصراع الذى نشب حول تقسيم الإمبراطورية ، وقدر لمملكة سلوكية أن تبز هذه الدول جميعها فى مضمار الأصالة السياسية . إذ استطاعت أسرة سلوكوس أن تقيم قواعد إطار سياسى فعال وفى غاية الاتساع أيضاً ، يمكن أن تنتظم داخله مجموعة من المدن الهلينية الاستعمارية الجديدة غير المتمتعة بالسيادة . وكان ذلك الولاء الذى ارتبطت به بالتاج الملكى ، مثل هذه المدن الموغلة داخل البلاد ، عندما وقع الهجوم المضاد من جانب أبناء الشرق ضد «السيادة الهلينية» أشبه فى طابعه بالولاء الذى ربط بين الغالبية العظمى من الدول الإيطالية الحليفة المتمتعة بالحكم الذاتى ، وبين مدينة روما إبان محنة غزو هانيبال لإيطاليا . ويستدل من ذلك على أن الأسرة السلوكية المالكة قد أقامت مع المدن الدول الهلينية الداخلة فى حدودها علاقات نالت رضاء كل من الطرفين . ولو لم يقدر لمملكة سلوكية أن تصاب بالعجز الدائم من جراء اصطدامها بالدولة الرومانية فيما بين ١٩٢ - ١٨٩ ق.م، لكان من المحتمل أن تتحول إلى اتحاد بين المدن الدول التى يربط بينها الولاء المشترك للتاج .

ومن الاتجاهات التى كان يقدر لها النجاح ، نظراً لأنها تحمل بين طياتها ما يهيئ لها أسباب البقاء والاستقرار ، ذلك الاتجاه الرامى إلى

تحقيق وحدة منظمة للمدن الدول عن طريق الجمع بينها فى اتحاد فيدرالى دون الالتجاء إلى النظام الملكى ليكون بمثابة رابطة سياسية فيما بينها ، وقد قامت هناك عدة محاولات هلينية تبشر بالأمل على أساس من هذا المبدأ الاتحادى .

كانت بويوتيا مهداً لأقدم هذه الاتحادات ، حيث ظهر أن الأخذ بالنظام الفيدرالى هو أقرب سبيل إلى التوفيق بين القوى السياسية المحلية المتنافرة ، فقد نشأت هناك حالة من التوتر من جراء الإيمان العميق بالانتساب إلى جنسية بويوتية موحدة من جهة والولاء والتعصب من جهة أخرى للمدن الدول التى انقسمت بويوتيا إليها ، كما قامت هناك حالة أخرى من التوتر بين طيبة ؛ المدينة الدولة الكبيرة التى كانت تتوق إلى ابتلاع بقية أجزاء بويوتيا ، وبين الدول البويوتية الصغيرة التى عقدت عزمها على مقاومة محاولات طيبة من أجل السيطرة عليها . ووضع دستور فيدرالى معقد يرمى إلى تحقيق المساواة بين جميع مدن بويوتيا عام ٤٤٧ ق.م ، وذلك بعد تحرير الأجزاء غير التابعة لطيبة من سيادة أثينا. واحتجب النظام الاتحادى فى بويوتيا بعد ذلك لفترة من الزمن ، وذلك خلال تلك الحقبة الوجيزة التى شهدت سيطرة طيبة على هيلاس . إذ استطاعت طيبة أن تحقق أطماعها فى غفلة من الزمن ، بأن ضمت إليها بقية أنحاء بويوتيا دفعة واحدة . بيد أن بويوتيا عادت إلى اتباع النظام الاتحادى من جديد ، بعد أن لقيت طيبة الإذلال والمهانة على يد

فوكيس Phocis ثم الهزيمة الساحقة على يد مقدونية . وقد ظلت بويوتيا دولة اتحادية حتى انفصمت عرى اتحادها الفيدرالى فى عام ١٧١ ق.م بصفة تمهيدية ، ثم حل نهائياً عام ١٤٦ ق.م بناء على أوامر روما .

وثمة خطوة تقدمية واسعة تمت فى خالكيديكى Cyalcidicè قرابة عام ٤٣٢ ق.م وتمثلت فى تلك الفكرة الدستورية المبتكرة التى تقول بإمكان ازدواج حقوق المواطنة ، وذلك بعد أن تحررت البلاد من سيطرة أثينا . فدخلت المدن الدول مع خالكيديكى فى اتحاد فيدرالى يقضى بأن ينال مواطن أى دولة من الدول الأعضاء ، تلقائياً ، حقوق مواطنة مدينة أولينثوس Olynthus ، أقوى المدن الأعضاء ، ومقر الحكومة الاتحادية . وكان من مزايا هذا النوع الجديد من الدساتير الفيدرالية ، التى كانت تقضى بأن يجمع الأفراد بين مواطنتهم للاتحاد الفيدرالى ومواطنتهم للدول الأعضاء المؤلفة لهذا الاتحاد ، أن بات الاتحاد يتمتع بقسط كبير من التماسك والحيوية لم يكن ليتاح له لو أنه كان مجرد اتحاد بين دول وليس اتحاداً بين أفراد أيضاً . وأبدى الاتحاد الفيدرالى الخلكيدونى قدرة عظيمة على النمو . فقد أفلح الخلكيدونيون ، خلال عصر الفوضى الذى حل بمقدونيا إثر موت الملك **أرخيلاوس** Archelaus عام ٣٣٩ ق.م ، فى ضم أجزاء كبيرة من مقدونيا إلى دولتهم الاتحادية . ولو لم تعمد إسبرطة إلى حل الاتحاد الفيدرالى الخلكيدونى عام ٣٧٩ ق.م. ، بالقوة الغشوم لكان الخلكيدونيون قد تمكنوا من أن يحققوا ما حققه الملك

فيليب على أساس النظام الاتحادى ، بدلاً من النظام الملكى ، ولكانوا قد سبقوا الرومان أيضاً إلى إضفاء الوحدة السياسية على العالم الهلينى بأسره .

ومن بين المنظمات التى أخذت بمبدأ ازدواج المواطنة ، اتحاد أيتوليا Aetolia واتحاد آخيا Achaia الفيدراليان ، وقد تألف هذان الاتحادان الواحد بعد الآخر فى بلاد اليونان الأوروبية خلال القرن الثالث قبل الميلاد، لكى يكونا بمثابة وسيلتين لتحرير هذا الجزء من العالم الهلينى من سيادة مقدونيا . ومن الجدير بالذكر أن النواتين اللتين نشأ حولهما هذان الاتحادان الجديدان كانتا فى الأصل منطقتين متخلفتين لا تحملان أية ذكرى لأمجاد محلية غابرة من شأنها أن تحول بين الولايات أو المدن الدول المختلفة وبين إدماجها لحقوقها المستقلة المنفصلة الخاصة بسيادتها فى وحدة واحدة ، أو تحول دون أن يقسم المواطن ولاءه مناصفة بين كل من مدينته الأم أو ولايته وبين الدولة الكبرى التى اندمجت فيها هذه المدينة أو الولاية. ومما يذكر أن أثينا لم تنضم قط إلى أى من هذين الاتحادين . أما إسبرطة فقد انضمت فى النهاية وعلى الرغم منها إلى اتحاد آخيا ، ومن ثم فقد اغتنمت أول فرصة سنحت لها وانشقت من جديد عن هذا الحلف . وكان من السهل اجتذاب ولاية أينيانيا Aeniania الواقعة فى وادى سبيرخيوس Spercheus إلى اتحاد أيتوليا ، واجتذاب ميجالوبوليس Megalopolis المدينة الدولة التى

توحدت مؤخـراً فى جنوب غرب أركاديا Arcadia إلى اتحاد آخيا . بيد أنه كان لـهذين الاتحادين أن يـظفرا أيضاً بـانضمام بعض الـمدن الدول العريقة الشهيرة إليهما .

وقد ارتفع شأن اتحاد آخيا نتيجة لانضمام سيكايون Sicyon المدينة الدولة المـجاورة على برزخ كـورنثوس فى عـام ٢٥١ ق.م ، وذلك عن رغبـة واختيـار منها . وكان قـد تيسر اسـتعادة قلعـة سيكايون Sicyon وانتزاعها من جديد من يد الحامية المقدونية المرابطة بها ، بمعونة جماعة من مواطنى سـيكايون يقودهم أراتوس Aratus ، وقد برهن هـذا القائد الذى كان من أبناء سيكايون على أنه فضلاً عن كونه جندياً باسلاً ، فهو سياسى مـحنك، إذ عمد إلى إقناع مواطنيـه من أبناء سيكايون بأنهم إن أرادوا صون الحريـة التى استعادوها ، فعـليهم أن يضموا صفـوفهم إلى صفوف جيرانهم الآخيـين . وما لبث أن أصبح أراتوس الزعيم السياسى لاتحـاد آخيا ، وفى عـام ٢٤٣ ق.م توج انتـصاره الحـربى الذى حققـه لمدينته ووطنه، بطرده الحـامية المقدونية من قلعة كـورنثة ، وكانت قلعة كورنثة تمثل أحد القيود التى كـبلت بها مقدونيا بلاد اليونان الأوروبية ، كما أدخل كورنثة ذاتها وميجـارا فى اتحاد آخيا . وقد تمكن اتحاد أيتوليا أيضـاً من أن يجتـذب إلى حظيـرته بعض المـدن الدول العـريقة مـثل هيراكليا تراخينيا Heraclea Trachinia التى أسسها البليـبونيزيون عام ٤٢٦ ق.م لتشرف على ذلك المـمر الذى يقع فيما وراء مـمر ثرموبولاى

جهة الغـرب ، ويصل بين وسط اليونان وشماله . وكان لانضـمام مثل هذه المـدن إلى الاتحادين الآخي والأيتـولى أهميـة كبـرى من الناحـية الاستراتيـجية . فدخول هيـراكليا اتحاد أيتوليا ، كـان معناه قطع خطوط المواصـلات البرية التى تصل مقدونيـا بوسط اليونان ، كمـا كان دخول كورنثـة اتحاد آخـيا معناه قطع طـرق المواصلات البـرية التى ترتبط بين مقدونيا والبليبونيـز . بيد أن الأثر الأعظم لحركة الاتحاد والإندماج التى تمت بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة ، ظهر بوجه خاص على الناحيتين السيكلوجية والسياسية . فقد كان من شأن انضمام مثل هذه الدول الشهيرة كأعضاء جدد فى اتحادى أيتوليا وآخيا أن ارتفعت مكانتهما وزادت هيبتهما ، فضلاً عن أنه كـشف النقاب عن خلة حميدة تتحلى بها المدن الأعضاء الجدد ، وهى أنها لم تكن قط ترسف فى أغلال ذكرياتها عن استقلالها السابق المجيد .

وكان لقيام اتحـاد آخيا ، واتخاذه ميجالوبوليس الواقـعة على أعتاب إسبـرطة قلعة وحـصناً من حصـونه ، أن مرت إسبـرطة بتجـربة مريرة واختبار صعب ، إذ تحتم عليها أن تـختار أحد سبيلين ، فإما أن تروض نفسها على تقبل فكرة تخليها عن اسـتقلالها ، وإما أن تخرج فى النهاية خروجـاً تاماً عن تقـاليدها المـاضية ، على أن يكون ذلك عـلى أضخم صورة وأوسع نطاق . فـقد منيت إسبـرطة ، قرابة أواسط القـرن الثالث ق.م بنقص ذريع فى عدد الرجال كالذى شهدته مقدونيا من قبل . ومثل

هذا النقص لم يعم العالم الهلينى بأسره إلا بعد مضى مائة سنة على هذا التاريخ وقد قيل إن عدد الأسر الإسبرطية هبط آنذاك إلى سبعمائة أسرة ، كما لم يتجاوز عدد الأسر التى تملك من بينها أرضاً أو تشرف على أرض الأسرة المائة تقريباً . ولم يعبأ العالم بما أصاب إسبرطة من عجز فى عدد قواتها ، إذ كان قد مضى منذ أمد بعيد الزمن الذى كان ينظر فيه إليها باعتبارها قوة عسكرية يخشى بأسها . بيد أن ذلك قد حز فى نفوس ذلك الفريق من الإسبرطيين الذى لم يستطع أن يطامن نفسه ، كما فعل الآثينيون على أن يشهد أفول نجم بلده على المسرح الدولى . وما كان علاج هذا الموقف بمتعذر ، إذ ظلت ممتلكات إسبرطة الخاصة من الأراضى حتى بعد تحرير مسينا (وبغض النظر عن أراضى المدن التابعة التى تحيط بها) تضم جانباً من الأراضى الزراعية التى تعد من أوفر الأراضى الزراعية إنتاجاً فى بلاد اليونان الأوروبية ، وقد كانت الأرض بخير . لم يحد إسبرطة قط الأمل فى أن تدخل فى عداد الدول العظمى التى تأسست فى عصر مابعد الإسكندر ، بيد أنه كان فى مقدورها أن تعزز قوتها العسكرية إلى حد بعيد - وربما بالقدر الذى يمكنها من الصمود أمام اتحاد آخيا المجاور لها - إذا ما عملت على أن تستخلص من أرضها الطيبة من جديد موارد العيش الكافية للعدد الكامل اللازم من الجنود الذى كان فى مقدور هذه الأرض أن تعوله من قبل . فقد كان هناك من بين المواطنين الإسبرطيين من كان لهم الحق فى الحصول على مخصصات من الأراضى الزراعية ، كما كان من الممكن أيضاً منح حقوق

المواطنة الإسبرطية «الصفوة الممتازة» من التابعين Periceci ، ثم نقلهم إلى تلك الأراضى الإسبرطية التى تتخلف بعد أن يتم توزيع الأراضى على جميع المـواطنين الإسبرطيين الذين لا يملكون أرضـاً . بيد أن مثل هذا البرنامج لم يكن ليعنى غـير تقسيم ضيـاع «النظراء» الخاصة ، الذين لا يزالون على قيـد الحياة ، ثم إن أية محاولة لوضع ذلك الـبرنامج موضع التنفيذ كانت سـتلقى حتماً مقاومة عنيفـة ، فقد كانت الزيادة التى طرأت على معدل الثروة بالنسبة لكل فرد من الإسبرطيين الملاك الباقين على قيد الحياة ، هى النتيجة الاقتصادية الحـتمية لتضاؤل عدد أفراد هذه الطبقة ، وكانت الأقلـية الممـيزة المـحظوظة تجد العـزاء فى ذلك عن انهيـار قوة بلادها العسكرية الذى صاحب نقص أعدادها .

وكان أول من قام بمـحاولة تنفيذ هذه الثورة فى لاكـيدايمون Lace-daemon هو الملك آجيس Agis الرابع (وتـولى الحكـم بين ٢٤٤ - ٢٤٠ / ٢٤١ ق.م) وكان هذا الـملك رقيق الشـعور نزاعـاً إلى المثـالية بحيث رضى لنفسه أن يقع فى قبضـة أعضاء ثورة مضادة وأن يحكم عليه بالإعدام دون أن يبدى أية مـقاومة . وقد أجبـرت أرملته على الزواج من ولى عهد الأسرة المـالكة الإسبرطية الأخرى ، وكان شـاباً يافعاً (إذ كان يتولى الـحكم فى إسبرطة جـنباً إلى جنب ملكان ينتـسبان إلـى أسرتين ملكيتين مـختلفتين، ولعل ذلك كان أثراً من آثار العصـر السابق للاتحاد حين كـانت إسبرطة تتـألف من خمس قرى منفـصلة) . ووراحت الملكة

آجياتيس Agiatis تلقن الملك كليومينيس الثالث Cleomenes III (وتولى الحكم بين ٢٣٧ - ٢٢٢ ق.م.) مبادئ زوجها الأول الشهيد ومثله ، حتى إن زوجها الثانى الذى كان يضع فى اعتباره ألا يتورع عن الالتجاء إلى العنف وسفك الدماء إن لزم الأمر ، عقد العزم على أن يمضى بالثورة إلى غايتها . وفى هذه المرة ، لم يكن الملك الثائر هو الذى خر صريعاً ، بل كان هذا هو مصير من قاموا بالثورة المضادة . وفى عام ٢٢٧ ق.م. أعاد **كليومينيس** توزيع أراضى إسبرطة وفق البرنامج الموضوع ، فحصل بذلك من اختيروا من التابعين Perioeci ، بالإضافة إلى الإسبرطيين الذين لم يكونوا يمتلكون أرضاً ، على مخصصاتهم من الأرض بالطريق القانونى .

لم يكن تحقيق العدالةِ الاجتماعية من أهداف الثورة التى قامت فى إسبرطة . فإنها لم تكن ترمى قط إلى تحرير رقيق الأرض ، (وكان لايزال هناك فريق من هؤلاء العبيد فى وادى يوروتاس Eurotas بعد تحرير مسينا) ، كما لم تتجه النية قط إلى إزاحة عبء نظام **لوكورجوس** الذى يحكم على الفرد بالعبودية العسكرية المؤبدة عن كواهل المواطنين الإسبرطيين ، سواء بالنسبة للقدامى منهم أو الجدد . وقد اقترنت زيادة عدد أفراد الفرقة الإسبرطية التابعة للجيش اللاكيدايمونى ، بتعديل أسلحة الجنود اللاكيدايمونيين . فبعد مضى مائة وثلاثة وستين عاماً على اندحار الفرقة الإسبرطية وتشتتها أمام الفرقة التى نظمها **أفيكراتيس** من الجنود

المزودين بالرمـاح والتروس ، عاد **كليومينيس** ملك إسبـرطة إلى تسليح المشاة اللاكيدايمونيـين بالترس الصغير والرمح بدلاً من الدرع والحربة . أما عن الآثار الاقـتصادية التى ترتبت على هذه الإصـلاحات ، فلم تكن تمـثـل فى نظر **كليومينيس** غيـر نتائج عـرضية ثـانوية بالنسبـة للهدف العسكرى الكبـير . غيـر أن النتائج الاجتـماعية التـى ترتبت على الثورة الإسـبرطيـة ، كـانت أجل وأخطر فى نظر جـارات إسبـرطة من الآثار العسكرية .

أما وقد شرعت إسبرطة فى القـيام بتوزيع الأملاك العقارية على نسق جديد ، فكم كانت ستبلغ هذه الحركة من مـدى ؟ كان اتحاد آخيا بمثابة جمـعية تهـدف إلى كفالة الحـماية المشـتركة لكافـة الملكيات العـقارية الخاصة إلى جانب صونها للاستـقلال السياسى للبلاد . وقد أصبح على مواطنى اتحاد آخـيا بدورهم أن يختاروا بين مـا تحتمه عليهم مـشاعرهم الوطنية ، وبين ما تمليه عليهم مصالح الطبقة الوسطى . ثم هل كان من الممكن تحـاشى خطر إسبرطة بضمـها إلى اتحاد آخيا ؟ لـقد كانت هذه مقـامرة خطرة، لأن **كليومينيس** كان يتمـتع بشخصيـة قوية أخاذة ، ولو دخل الحلف لآلت زعامـته إليـه وانتزعت من يد **أراتوس** ، وربمـا وجد اتحاد آخيا نفسه أيضاً ، وقد تحول إلى إمبراطورية إسبرطية صغرى . أما **أراتوس** فقد سعى ، بدافع من مصـالحه الذاتية ، إلى إقصاء **كليومينيس** عن الحلف ، والإطاحة به أيضـاً ، وذلك بأن غمد إلى اللعب بمـشاعر

القلق التى تساور ناخبيه من أفراد الطبقة الوسطى فيما يتعلق بوضعهم الاجتماعى والاقتصادى . ولم تلبث عروض كليومينيس بالصلح مع اتحاد آخيا أن قوبلت بالرفض ، وجرت المفاوضات فى هذا الشأن مع ملك مقدونيا المعاصر أنتيجونوس دوسون Antigonus Doson . وكان الثمن الذى طلبه أنتيجونوس فى مقابل مساعدته لمواطنى اتحاد آخيا ، على حسم أمورهم مع كليومينيس هو عودة الحامية المقدونية إلى قلعة كورنثة . واستطاع أراتوس أن يقنع المواطنين الآخيين بالموافقة على ذلك على الرغم من أن تحرير كورنثة هو إحدى مفخرتين كان يعتز بهما أراتوس . فزحف الجيش المقدونى إلى الجنوب فى ٢٢٤ ق.م ، إلا أن اختلال ميزان القوى على هذا النحو لم يحد مصر بحال إلى تقديم العون العسكرى إلى كليومينيس . أما قضية كليومينيس ، فكانت قد قضى عليها فعلاً بالفشل، قبل أن يلقى الجيش اللاكيدايمونى فى تنظيمه الجديد الهزيمة المحققة عام ٢٢٤ ق.م عند سيلاسيا Sellasia ، قرب المنافذ الشمالية الشرقية لمدينة إسبرطة .

وفر كليومينيس وأسرته إلى الإسكندرية بصحبة نفر قليل من رفقائه الأوفياء وإخوانه فى السلاح ، بيد أن سحر شخصيته الطاغى أثار فى وجه الملك بطليموس الرابع عندما نزل كليومينيس به ضيفاً متاعب جمة كالتى عاناها الرئيس أراتوس عندما ناصب كليومينيس العداء . وكانت مصر تعتمد فى دفاعها خلال القرن الثالث ق.م مثلما كانت تعتمد خلال

القرنين السابع والسادس ، على فرقة من الجنود المرتزقة اليونانيين . وقد بدا كليومينيس وهو فى منفاه بالإسكندرية بطلاً فى أعين هؤلاء الجنود اليونانيين الذين يعملون فى خدمة بلد أجنبى . وكان الكثيرون منهم من إخوانه المواطنين فى البليبونيز . ولم يكن من المستبعد أن تحدثه نفسه بمحاولة كسب تأييدهم للقيام بانقلاب عسكرى والاستيلاء على مصر لاتخاذها قاعدة للعمليات من أجل استعادة إسبرطة . وشعرت الحكومة البطلمية أن من الصواب وسداد الرأى اعتقال الملك المنفى ورفقائه الإسبرطيين . فاندفع هؤلاء الأسرى الساخطون خارج السجن وتدفقوا إلى طرقات الإسكندرية ، وصرعوا أحد الموظفين المدنيين المنكودين ، وراحوا يدعون المواطنين إلى الثورة باسم الحرية . فلم يستجب المواطنون لذلك ولم يحركوا ساكناً ، فلو كانت لديهم بقية من رغبة فى أن يشهدوا مزيداً من هذه الثورات ؛ لما كانوا قد هجروا أصلاً مدن آبائهم وأجدادهم ، ونزحوا إلى الإسكندرية يبغون المقام بها . وعلى نحو درامى مفجع انتحر كليومينيس ورفقاؤه . كما أصدرت السلطات البطلمية حكمها الوحشى الصارم بإعدام نسائهم وأطفالهم . وما لبثت قصة حياة ملك إسبرطة الشهيد الثانى ، كما كان حال قصة حياة الملك آجيس الذى سبقه إلى الاستشهاد ، أن أصبحتا أسطورتين تعيشان بين أطواء ذلك العالم الساخط الموشك على الانفجار الذى يكاد يميد تحت أقدام الطبقة الهلينية الوسطى المزعزعة السيادة .

وكانت المنازعات التى نشبت فى البليبونيز والتى اختتمت بمعركة سيلاسيا عام ٢٢٢ ق.م تبدو كما لو كانت لا تعدو حرباً صغيرة . بيد أن الحرب الكبرى قد نشبت عام ٢٢١ ق.م عندما هاجم **أنتيوخوس** الثالث ، ملك سلوكية ، أراضى المملكة البطلمية فى «سورية المجوفة» (Coele Syria) - كما كان يطلق على كنعان فى اللغة اليونانية ، للدلالة على الوادى الشديد الانحدار الناشئ عن انخساف القشرة الأرضية والذى يمتد من البقاع إلى خليج العقبة . وفى عام ٢١٩ نشبت حرب محلية أخرى فى بلاد اليونان الأوروبية بين اتحاد أيتوليا وبين مقدونيا التى كانت تلقى تأييداً من جانب حلفائها فى اتحاد آخيا ومن جانب حلفاء آخرين أيضاً . وفى العام نفسه ، وعلى سواحل البحر المتوسط القصية فى إسبانيا ، قام القائد القرطاجنى الشاب **هانيبال ابن هاميلكار** بمحاصرة مدينة ساجونتوم Saguntum المحلية الصغيرة ثم استولى عليها . وكانت هذه محمية رومانية تقع فى مركز غير واضح المعالم على الجانب القرطاجنى من حدود نهر إبرو الذى ارتضته كل من هاتين الدولتين الغربيتين ليكون حداً فاصلاً بين منطقتى نفوذهما فى شبه جزيرة أيبريا . وكان مقدراً لهذه النيران المحلية أن تتجمع سريعاً فى حريق بانهلينى عام. وكانت هذه هى اللعنة التى نزلت بالمجتمع الهلينى بأسره لأنه عجز عن صون الوحدة التى كادت أن تتحقق له منذ مائة وعشرين عاماً بفضل الجهود الجبارة التى بذلها السياسى المقدونى العظيم **فيليب بن أمينتاس** .

الفصل الحادى عشر

تقبل روما للحضارة الهلينية وانقلاب ميزان القوى

كان يبدو كما لو أن النظم السياسية التى اتخذتها كل من اتحاد آخيا وأيتوليا والمملكة السلوكية إنما تنطوى على الحلول الطيبة الموجدة لتلك المشكلة المشتركة التى أصبح يعانى منها العالم الهلينى بأسره فى عصر ما بعد الإسكندر ، ألا وهى السبيل إلى وضع دساتير للدول التى يتجاوز نطاقها حدود المدينة الدولة . بيد أن النجاح والازدهار كانا معقودين على مجموعة جديدة من الدول التى قامت إلى الشرق من مضيق أترانتو .

ولو أنه كان مقدراً أن تقوم دولة من دول إيطاليا أو صقلية بدور رئيسى فى التاريخ الهلينى خلال عصر ما بعد الإسكندر لكانت سرقوسة Syracuse على قمة الدول المرشحة للقيام بهذا الدور ، ذلك لأن سرقوسة كانت تعد من بين المدن الدول الهلينية الوفيرة السكان ، البالغة القوة ، العريقة الحضارة ، فضلاً عن أن صقلية - كما سبق أن أوضحنا

- كانت الميدان الأول الذى حـقـقت فيه الفراهة السياسـية الهلينية النصر فى مضـمار ضم المدن الدول فى وحـدات سياسيـة كبيـرة . وكان خلق الإمارتين اللتـين تركزتا حول كل من أكـراجاس Akragas (اجريجنتوم Agrigentum) وسرقوسـة بمثابة رد محلى هليني علـى الاتحاد الذى قام فيمـا سبق بين المدن الدول الفينيقـية الواقعة فى الحوض الغـربى للبحر المـتوسط وذلك تحت زعـامة قـرطاجـة . وقد تمكنت هاتان الإمـارتان المتحـالفتان أن تحبطا المـحاولة التى قامت بها قـرطاجة عام ٤٨٠ ق.م لغزو المنطقة الخاضعة للاستـعمار الهلينى فى الغوب . وأعادت قرطاجة الكرة مرة أخرى عـام ٤٠٩ ق.م بعد أن أسفر هجوم وقع على سـرقوسة من جانب أثينا عن تخـريب الشطر الهلينى من صقلية ، وبعـد أن أبحر أيضاً أسطول سرقوسة المظفر ليـشترك فى شن هجوم مضاد على أثينا فى مياه بحر إيجة البعيدة . وكـان القرطاجيون فى هذه المرة قاب قوسين أو أدنى من تحـقيق النصر . فـإنهم عندما عـادوا إلى الهجـوم عام ٤٠٦ ، تمكنوا من اجتـياح أراضى صقلية جـميعهـا حتى بلغوا أسوار سـرقوسة وضربوا حولها الحصار بالفعل ، وعند ذلك استجمع الهلينيون الصقليون قواهم بمعاونة **ديونيسيوس** الذى كـان صديقـاً **لهرموكراتيس** Hermo-crates زعيم حـركة المقـاومة السرقـوسية المناهضـة لأثينا . ولـم يلبث **ديونيسيوس** أن قلب دفة الأحوال بصورة تثير الدهشة والعجب ، إذ تمكن لبـرهة قصـيرة خـلال عام ٣٩٨ ق.م من طرد الـقرطاجـيين من مـعظم ممـتلكاتهم فى صقليـة ، بما فى ذلك قلعـة موتوا Motya المقامة على

جزيرة صغيرة . وعندما تبدلت الأوضاع ثانية وثالثة ، اتفقت الأطراف المتنازعة عام ٣٩٢ ق.م على تقسيم صقلية بحيث لا يترك لقرطاجة سوى الطرف الشمالى الغربى من الجزيرة على أن تئول الأجزاء الباقية إلى **ديونيسيوس** .

وهكذا باتت أملاك هذا الطاغية الصقلى ، تشمل كلاً من الأملاك التى كانت تابعة فيما سبق لهيبرو Hiero حاكم سرقوسة ، والأملاك التى كانت تتبع **ثيرو** حاكم أكرجاس ، كما مضى **ديونيسيوس** أيضاً فى إخضاع طائفة من المدن الدول الهلينية المستعمرة فى إيطاليا ، وفى إنشاء قيادة بحرية فى بحر الإدرياتيك . ولو كان قد قيض للإمارة الهلينية التى أسسها **ديونيسيوس** إلى الغرب من مضيق أترانتو البقاء إلى عصر خلفاء **الإسكندر** ، لاستطاعت أن تقف على قدم المساواة مع الممالك الهلينية الجديدة . والحقيقة أن مثل هذه الإمارة بعد أن أرسيت دعائمها من جديد خلال العصر ذاته ، على يد **أجاثوكليس** من سرقوسة (وتولى الحكم بين ٣١٧ - ٢٨٩ ق.م) قد تمكنت بالفعل من الصمود أمام هذه الممالك رغم أنها كانت أقل قوة ، وأصغر مساحة من إمارة **ديونيسيوس** السابقة . وكان من سوء طالع الحضارة الهلينية وحظها العاثر ، أن إمارة **ديونيسيوس** لم تعش طويلاً شأنها شأن **هييرو** و**ثيرو** اللتين تنتسبان إلى تاريخ سابق وإمارة **إجاتوكليس** التى ترقى إلى تاريخ لاحق ، فضلاً عن أن عوامل التخريب ومعاول الهدم التى قوضت دعائم كل من هذه

الاتحادات الواحد بعد الآخر ، كانت متماثلة متشابهة . وكان الصقليون قد قبلوا مرغمين قيام مثل هذه الاتحادات على أساس أنها السبيل الوحيد لاتقاء شر الهزيمة على يد قرطاجة ، بيد أن ثمن الخلاص كان تبعية المدن الدول الصقلية الصغيرة إلى سرقوسة وخضوع مواطنى سرقوسة أنفسهم ، فضلاً عن سائر الصقليين لحكم دكتاتور طاغية . ولم يكن هذا الثمن فى نظر الهلينيين ، بالثمن الهين على الإطلاق ، ومن ثم فإن الرغبة فى العودة إلى نظام الحكم الجمهورى ، وإلى تأسيس ممالك محلية ، مادامت تطغى على الرغبة فى اتباع سياسة تأمين ضد العدوان الخارجى على أساس من تحمل ذلك الثمن الباهظ ، وذلك حال أن يتراءى للأنظار أن خطر وقوع عدوان وشيك من جانب قرطاجة قد بعد شيئاً ما . وفى عام ٣٥٦ ق.م ، وبعد أن كان **ديونيسيوس الأول** قد خلف العرش ابناً له يحمل اسمه أيضاً ، وإن كان لا يدانيه فى القوة والمقدرة ، أطيح بالأسرة المالكة الديونيسية تفتتت أراضيها على يد ثورة قامت منادية بالحرية .

كان سقوط إمارة **ديونيسيوس** عام ٣٥٦ ق.م ، أوخم عاقبة بالنسبة للهلينيين الغربيين من سقوط إمارة **هييرو** عام ٤٦٦ ق.م ، لأن قرطاجة لم تكن فى هذه المرة هى الجارة الوحيدة التى أصبح على الهلينيين الغربيين أن يجابهوها . فقد بدأ الهلينيون الغربيون يواجهون بالفعل مختلف المتاعب من جراء هجوم الشعوب الوطنية المضاد ، وذلك قبل أن يقرروا بالفعل تسريح قواتهم المتحدة . وقد قدمت مدينة سرقوسة

الدليل ، خلال الفترة التى تلت قرار تسريح الجيوش السابق ، الذى اتخذ منذ مـائة وعشـر سنوات ، على أنها تملك من القـوة ما يمكنـها - دون الاستعانة بالمدن الدول الهلينية السرقوسية الأخرى التى كانت مواردها قد خرجت عن سيطرة سـرقوسة - من كف أيدى الشعوب الصـقلية الوطنية التى تعيش بالداخل عن تقـويض دعائم ملكها . وبالإضـافة إلى ذلك ، فقد ثار الصقليـون ضد حكم سرقوسة مطالبين بالحـرية التى كانت مثلاً أعلى فى نظر الهلينيـين ، إلا أن فشلهم فى انتزاع اسـتقلالهم السـياسى بالقوة من دولة هلينية متسلطة لم ينفـرهم من الحضارة الهلينية ، كما لم يعرقل بحـال خطتهم التى كانوا قـد بدءوها بالفعل ، والتى قصـدوا بها تمثل الحـضارة الهلينية تـلقائياً وبمـحض إرادتهم . وقد هبت العاصـفة التالية من هجمـات الوطنيين المضادة ، على خلاف هجمـاتهم السالفة ، من تلك المنطقة القـصية المتـوغلة فى القارة ، والممتـدة بطول السواحل الإيطالية الشرقـية إلى الشمال من «المهـماز» وفوق «الكعب» ، ولم تكن الحضـارة الهلينيـة قد أقامت لـها حتى ذلـك التاريخ أى مركـز فى هذه المنطقة غير أنكونا Ancona ، التى أنشـأ بها ديونيسيوس الأول قاعدة بحرية تتبع سرقوسة . وكانت أنكونا هى البقعـة الوحيدة التى تصلح لأن تتخـذ مرفـأ طبيعـياً على طول هذا السـاحل الواقع إلى الشمال من مـيناء بروندیزیوم Brundisium (برنديزى Brindisi) الذى اتخذه الرومان فيما بعد قاعـدة لعملياتهم الحربية عـبر مضيق أترنتـو . ولم تخلف الحضارة

الهلينية أى أثر ذى بال فى منطقـة شرق إيطاليا ، شمال «المهـمار» حتى ضمت هذه المنطقة إلى الدولة الرومانية ، أما عن البرابرة الأوسكان -Os cii الذين أخذوا منذ أواخـر القرن الخامس ق.م ، يشنون هجـماتهم من هذه المنطقة النائية ، على المستعمـرات الهلينية الواقعة فى كمبانيا -Cam pania ، وفى «أصـبع» إيطاليـا ، فقـد ثبت أنهم عـاجزون عن تمـثل الحضـارة الهلينية بقدر مـا كان الصقليـون على استعـداد لتقبلهـا . وقد تمكنت المـدن الدول الرئيسيـة التى أسسـها المسـتعـمرون الهلينيون على شواطئ إيطاليا- مثل تارنتوم Tarentum ولوكرى Locri وريجيوم -Rhe gium – من الصمود أمام هذه الهجـمات ، بل إن مدينة نيابوليس -Nea polis(نابل Naples) الصغيرة الواقعة على شاطئ كمبانيا قد خرجت من المعركة سالمة . أما المدن التى لقيت الهزيمة بالفعل ، وقد كان هذا هو المصيـر الذى صادفته كـثير من المدن الهلينية الـصغيرة ، فهـذه خسرها العالم الهلينى لفـترة من الزمن . وقد أدى انهـيار إمارة ديونيسيوس إلى بلوغ الطوفان أقصى حدوده . وليس أدل على عظم الخطب وفـداحته مما وقع فى عام ٢٨٩ ق.م ، للمـدينة الهلينية الصقلية مـيسانا Messana ، التى تشـرف على الجـانب الصـقلى من المـضيق الواقع بيـن صقليـة و «إصبع» إيطاليا ، إذا احتلها شـرذمة من الجنود المرتزقة الأوسكان ، ثم أجلت عنهـا سكانها . واسـتعـمرتها ، وكـان هؤلاء الجنود فى خـدمة أجاثوكليس مـسـن قبل ، كما اتخذوا لهم اسم المامرتينيين Mamertini نسبه إلى أحد آلهة الحرب الوطنية فى إيطاليا .

وهكذا باءت بالفشل محاولات هلينيو الغرب لصد أى من قرطاجة أو قبائل الأوسكان بعد انهيار الإمارة الديونيسية . كان الطاغية **أجاثوكليس** ، الذى أعاد تأسيس إمارة سرقوسة عام ٣١٧ ق.م ، رجلاً ذا عزم وبأس - فقد كان أول بطل هلينى هاجم قرطاجنة فى شمال غرب أفريقية ، وفى عقر دارها - بيد أن جهوده هذه ذهبت أدراج الرياح . وعندما تأسست هذه الإمارة من جديد ، وللمرة الأخيرة . على يد طاغية آخر يدعى **هييرو** Hiero (وتولى الحكم بين ٢٦٥ (؟) و ٢١٥ ق.م) لم تتجاوز حدودها الساحل الغربى من صقلية ، باستثناء ميسانا Messana الممرتينية ، كما كانت تخضع طوال تاريخها للحماية الرومانية . ودأب هلينيو الغرب أيضاً على طلب العون من إخوانهم فى شرق مضيق أترانتو. ومثال ذلك ما حدث فى عام ٣٤٤ ق.م إذ وفد **تيموليون** Timoleon ، المواطن الكورنثى الداهية - وكانت مدينة كورنثة هى الوطن الأصلى لمستعمرى سرقوسة - إلى صقلية لنجدة سرقوسة التى استغاثت به من أجل الخلاص من **ديونيسيوس** الثانى ، وكان قد استولى على سرقوسة عام ٣٤٧ ق.م ، وأفلح **تيموليون** فى طرد **ديونيسيوس** وبعض الطغاة المحليين الآخرين ، كما حسم الخلافات القائمة وجرد جيشاً لصد هجوم قرطاجة . ولكنه كان يحرص كل الحرص على ألا يدع الفرصة تفوته لينصب من نفسه طاغية عليها ، غير أن المدن الدول فى صقلية لم تلبث أن تردت أثر اعتزاله الحياة العامة مرة أخرى ، فى موجة جديدة من الفوضى لم تنحسر حتى ظهور **أجاثوكليس** .

وقد هب أبطال أربعة ظهروا فى بلاد اليونان الأوربية الواحد بعد الآخر لكى يمدوا يد العون للمدن الدول اليونانية الواقعة فى جنوب إيطاليا استجابة لنداءات الاستغاثة من جانب شعب تارنتوم . فجاء إليهم الملك **أرخيداموس** Archidamus الثالث ملك إسبرطة عام ٣٤٢ ق.م ، فلقى حتفه فى ميدان المعركة على أرض إيطالية عام ٣٣٨ . وعبر **الإسكندر** ، ملك المولوسيين Molossii - وهم شعب من شعوب شمال اليونان يعيش فى الأجزاء الداخلية من القارة (فى إبيروس Epirus) المواجهة لجزيرة كوركيرا Corcyra - عبر مضيق أترانتو بعد مضى عام على عبور سميه المقدونى مضيق الدردنيل . ولعله كان بوسع هذين القائدين اللذين يحملان اسم **الإسكندر** ، إذ ما وحدا قواتهما ، أن يستخلصا إيطاليا للحضارة الهلينية ، بيد أن هذا المغامر المولوسى قد اضطلع بتنفيذ خطة عسكرية تفوق فى خطورتها وهو لها خطة المغامر المقدونى بإمكانيات تقل عن إمكانيات الأخير إلى حد بعيد ، وكان مصيره هو المصير ذاته الذى لقيه **أرخيداموس** . إذ باء تدخله بالفشل ، أما عن تدخل الأمير الإسبرطى **كليونوموس** Cleonymus الذى تلا ذلك فى عام ٣٠٣ فقد انتهى بمهزلة ، وعندما رسا بتارنتوم أحد الملوك المولوسيين المتأخرين ، وهو القائد العظيم الشهير **بيروس** Pyrrhus وذلك فى عام ٢٨٠ ق.م على رأس عدد كاف من القوات يفوق عدد القوات التى نزل بها سلفه المولوسى ، **الإسكندر** ، كانت الفرصة قد

أفلتت ، ذلك لأن تارنتوم لم تكن تواجه فى ذلك الوقت شراذم من المحاربين الأوسكان من أشباه البرابرة ، بل كانت تواجه روما ذاتها . وتبين بيروس أنه ما كان بوسعه أن يكسر شوكة روما ، حتى وإن ساندته قوات تارنتوم ولوكانيا Lucania وبروتيوم Bruttium الموحدة . بيد أن بيروس اضطلع والرومان لا يزالون فى ميدان القتال بمهمة تكاد لا تقل هولا عن المهمة السابقة ، ألا وهى محاولة طرد القرطاجيين من صقلية . كما لم يكن يكف كل هذه الأثناء عن التطلع إلى الوراء خشية أن تفلت من يده أية فرصة طيبة تتيح له التدخل من جديد فى الشجار الناشب من أجل اقتسام إرث الإسكندر الشاسع فى مقدونيا ، الذى كان على جانب نسبى من الهدوء والسكينة . ولقد بات من الواضح الجلى بعد انسحاب بيروس عام ٢٧٥ ق.م إلى شواطئ مضيق أترانو الشرقية ، إن أمل خلاص الحضارة الهلينية فى الغرب - إن كان لها أصلاً أمل فى الخلاص - قد أصبح معقوداً على روما وحدها دون سواها .

وكان من حسن حظ الحضارة الهلينية أن قيض لها إيطاليون وطنيون من أبناء القارة الأوروبية ممن يعيشون على شواطئ إيطاليا الغربية ، ويحظون باستعداد طيب لتقبل الحضارة الهلينية كالذى كان يتمتع به بنو جلدتهم من أبناء الجزر ألا وهم الصقليون . وما إن رسخت قدم الحضارة الهلينية فى هذا الجانب من إيطاليا ، فضلاً عن تغلغلها فى «كعب» إيطاليا تحت «المهماز» ، حتى بدأت فى الذيوع والانتشار ، ولم

يكن الفضل فى انتشارها فى هذه المنطقة يرجع فى الواقع إلى نفوذ المستعمرات اليونانية المحلية ، رغم طول باع بعضها وعراقة أصله ، بقدر ما كان يرجع إلى احتضان بعض الشعوب التى لم تكن تنتسب إلى أصل هلينى، للحضارة الهلينية . وهكذا لم يصطبغ بالحضارة الهلينية المهاجرون الإترسكيون الغرباء الذين استعمروا جزيرة إلبا Elba والسهل الساحلى المواجه لها من القارة ، فحسب (وقد كانوا يسعون دون شك ، وراء الموارد المعدنية الوفيرة التى تزخر بها المنطقة) ، بل اصطبغ بها أيضاً السكان اللاتين المجاورون للإترسكيين فى الحوض الأدنى من نهر التيبر . وتتميز سواحل إيطاليا الغربية ، على عكس من سواحلها الشرقية، بوجود عدد لا بأس به من المرافئ الطبيعية ، فضلاً عن الأراضى الزراعية الداخلية الخصيبة التى يسهل الوصول إليها . وكان الإترسكيون قد شقوا طريقهم، خلال القرن السادس ، عبر جبال أبنين حتى الحوض العظيم لنهر البو ، وقدر لبعض مستعمراتهم هناك - مانتوا Mantua وسبينا Spina - النجاة من الطوفان البرابرة الغاليين الذين تدفقوا من وراء جبال الألب بعد هذا التاريخ .

ولو كان قد قدر أن تتوغل الحضارة الهلينية فى الأجزاء الأوروبية الداخلية من القارة الأوراسية ، متخذة نقطة البداية من أحد شواطئ أوروبا المطلة على البحر المتوسط والمشرفة على خلجانه الشمالية ، لكان الساحل الذى ينتظر أن يتخذ بمثابة قاعدة للعمليات فى حركة التوسع هذه

المتجهة إلى داخل القارة ، وهو ساحل بحر إيجة الشمالى ، حيث يهيئ وادى نهر أوكسيوس Oxius (فاردار Varadar) الطريق الممـهد الرحب المفـضى إلى الداخل والذى يعادل فى يسر الانتقـال به وادى نهر الرون البعيد الذى يمتد خلف ميناء ماسيليا Massilia (مارسيليا marseiles) .
بيد أن هذا الساحل «التراقى» ، كما كـان يسمى ، قد غرر به عن مصيره المنتظـر ، على يد إسـبـرطة أولاً ، عندمـا قــوضت دعـائم الاتحـاد الخلكيدونى ، ثم على يد الإسكندر ، عندما أساء توجيه طاقات مقدونيا فانحرف بها عن تنظيم منطقة جنوب شرق أوروبا إلى غزو أراضى جنوب غرب آسيا . وقدر فى النهاية لسـاحل غرب إيطاليا - رغم أنه كان بعيداً شيـئاً مـا عن قلب العالـم الهلينى - أن يضطلع برسالـة نشر الحـضارة الهلينيـة بأوروبا ، وأن يقـوم بالدور ذاته الذى قـام به ساحل الأناضـول الغربى فى نشر الـحضارة الهلينية بآسيـا ، فبعد أن اصطبـغت بالحضارة الهلينية ، المدن الدول اللاتينية . واصلت إحداها ، ألا وهى مدينة روما زحف الإترسكيين غير الموفق وأسهـمت بدورها بنصيبها فى هذا الزحف . وحملت رومـا فى النهاية مشعل الحـضارة الهلينية وسارت به مـحاذية الضفة الجنوبية لنهر الدانوب حتى بلغت الساحل الغربى للبحر الأسود ، واتجهت أيضاً صـوب الغرب ، حتى سواحل المحيط الأطلنطى الـشرقية فى جبهة تمتد من مراكش حتى بريطانيا وباتافيا Batavia .

كانت الشعوب اللاتينية والإترسكية والشعوب الفينيقية الاستعمارية مازالت تنظر إلى نظام المدينة الدولة نظرة إجلال واحترام ، على حين كان الهلينيون قد شرعوا بالفعل فى هجر هذا النظام ونبذه ، على أمل أن يجدوا حلاً لمشكلاتهم فى إحياء النظام الملكى البائد . ولقد انبثقت المدن الدول فى كنعان ، مكا انبثقت فى هيلاس ، عن حاجة ورغبة محليتين ، أما المستعمرون الفينيقيون فقد صحبوا معهم هذا النظام فى هجرتهم من أوطانهم الأصلية . غير أنه لم يتحقق لدينا ما إذا كان الإترسكيون واللاتين قد أخذوا نظام المدينة الدولة عن الهلينيين ، شأنهم شأن الكثير من الشعوب الأخرى أو أنهم ابتكروه بأنفسهم بطريقة مستقلة. لقد وصف هيراكليديس البنطى الذى كان من المعاصرين لأرسطو ، مدينة روما بأنها «مدينة دولة هلينية» وذلك فى تقرير كتبه عن احتلالها المؤقت على يد فرقة من الجنود الغاليين الأفاقين عام ٣٩٠ ق.م.

كانت روما خلال الفترة التى انصرمت بين عامى ٣٤٠ - ٢٦٦ ق.م والتى تقدر بخمسة وسبعين عاماً ، وفى الوقت الذى كانت فيه جهود المقدونيين منصرفة بكليتها إلى غزو الإمبراطورية الفارسية وإلى الاقتتال أيضاً من أجل غنائمها وأسلابها ، تضطلع برسالة توحيد جميع أجزاء إيطاليا الواقعة إلى الجنوب من جبال أبنين ، فى ظل دولة هلينية ، قدر لها أن تصبح قوة جديدة فى العالم الهلينى . إن تاريخ المملكة المقدونية

يعود القهقرى إلى عصر الفوضوية السابق للعصر الهلينى ، كما يرجع تاريخ الإمبراطورية القرطاجية إلى القرن السادس ق.م ، على حين أن المملكة السلوكية فى جنوب غرب آسيا كانت فى واقع الأمر ، خليفة للإمبراطورية الفارسية مثلما كانت المملكة البطلمية فى مصر خليفة لمملكة مصر التى انشقت عن بلاد الفرس واحتفظت باستقلالها فى الفترة ما بين عام ٤٠٤ وعام ٣٤٢ ق.م. بيد أنه لم يحدث قط فى التاريخ أن قامت دولة قبل روما بتوحيد إيطاليا فى هذا الجانب من جبال أبنين . وكانت الفرصة قد سنحت للإترسكيين خلال القرن السادس ق.م للقيام بهذا العمل ، ولكنهم أضاعوها . أما روما فلم تجد صعوبة ، عندما شرعت فى إخضاع جيرانها لحكمها - نظراً لضعف الصلة بين المدن الدول الإترسكية - فى التغلب على هذه الدول الواحدة بعد الأخرى .

كان بناء الدولة الرومانية الجديدة يتألف من عناصر مختلفة ، كما كانت معظم معالمه منقولة عن نماذج هلينية سابقة . فقد دأبت روما ، مثلما كانت تفعل إسبرطة وقرطاجة على ربط غيرها من المدن الدول بالأحلاف السياسية والعسكرية الدائمة التى تقطع بموجبها هذه المدن العهد لروما بأن تترسم خطاها وتتبع زعامتها . كما كانت تؤسس ، مثل المملكة السلوكية ، المدن الدول الجديدة ، وكانت هذه تسمى بالمستعمرات اللاتينية - وتتمتع بالحكم الذاتى دون الاستقلال . وكان على المستعمرات اللاتينية ، شأنها شأن بقية الدول الحليفة ، أن تأتمر

بأوامر روما . وقد جرت العادة على أن تقام المستعمرات اللاتينية على أراضى العدو المغلوب المصادرة ، بيد أن روما قد سعت شأن إسبرطة وأثينا ، إلى التوسع فى المنطقة التابعة لمدينة روما الدولة (وكانت مساحة هذه المنطقة لا تزيد في الأصل على مساحة أتيكا) بأن ضمت إليها بعض أراضى الدول المغلوبة المصادرة . والحقيقة أن روما كانت ، فى بعض الأحيان تأمر بضم جميع الأراضى التابعة للدولة المغلوبة دون استثناء . وكانت روما تقيم ، مثل أثينا ، المستعمرات لمواطنيها فى مساحات مقفلة داخل الأراضى الملحقة بها، وكانت هذه تبعد عن المدينة نفسها بمسافة تزيد على مسيرة يوم ، كما أنها منفصلة عن دائرة الممتلكات الأصلية التى تتبع المدينة . وعلى حين أن البحر كان يعد همزة وصل لا فصل بين مختلف الإقطاعيات الآثينية التى كانت تخصص للمواطنين الآثينيين والتى كانت تعرف باسم Cleruchies، إلا أن المساحات المقفلة من الأراضى التى كانت تخصص «للقبائل» الرومانية الجديدة (وهى تشبه «الأمم» التى كان يتألف منها جمهور المواطنين فى المدينة الدولة الهلينية) كانت تفصل بينها وبين مدينة روما ، أراضى الدول الحليفة المتمتعة بالحكم الذاتى . غير أن المستعمرات الرومانية التى يقطنها مواطنون رومان ينحدرون عن أرض روما الأصلية ، لم تكن تحتل سوى نسبة ضئيلة من الأراضى الملحقة بروما . أما الجانب الأعظم منها فقد ترك فى حوزة سكان البلاد الأصليين ، الذين لم يلبثوا أن

أصبحوا مـواطنين رومانيين بموجب قوانين قضت بمنـح حقوق المواطنة الرومانية لمـجتمعات بأسرها . وما إن حل الوقـت الذى كانت روما قد ضمت إلى دولتها فيه جميع أجزاء إيطاليا إلى الجنوب من جبال أبنين ، حتى كـانت رقعة الأراضى التابعـة لمدينة روما الدولة قـد اتسعت - عن طريق ضم مساحـات أخرى إليها - اتساعـاً كبيراً بحـيث أصبح «الحقل الرومانى» Ager Romanus ، كما كـانت تسمى ، يقطع إيطاليا تمـاماً من البحـر إلى البحر ، مـمتداً من السـواحل الغربية المطلة على البـحر المتوسط عند ضفتى مصب نهـر التيبر إلى سواحل بحر الإدرياتيك على جانبى الإقليم الـتابع لأنكونا Anconna ؛ حليفـة روما . والحقيـقة أن «الحقل الرومانى» كان يقارب عام ٢٦٦ ق.م مسـاحة الرقعة التى احتلتها الدول البابوية (باستـثناء إيميليا Emilia) خلال العصر الوسـيط والعصر الحديث، وقبل أن توحد إيطاليا جميعها فى القرن التاسع عشر .

كـان من أعظم الاتجاهات أثراً علـى تطور الدولة الرومانيـة ، ذلك التوسع المتزايد المطرد فى تطبيق مبدأ المواطنة المزدوجة .

كان المواطنون الرومان الذين ينتسبون إلى القبائل التى كانت تنقسم إليهـا أراضى روما الأصلية أو الذين ينتـسبون إلى القبـائل الأخرى التى بثت فى أجزاء بعينها من المناطق التى ألحقت بروما فيما بعد ، مواطنين بطبيـعة الحـال لمدينة رومـا وحدها دون غـيرها ، وكان هـذا هو الحال أيضـاً، فى بداية الأمـر ، مع السكـان الذين فـرضت عليـهم الجنسـيـة

الرومانيـة فرضاً، ألا وهم سكان الأقاليم الـمتخلفة فى جـبال أبنين وفى سـفوح الجـبال المطلة على بحـر الإدرياتيك الذين ضـموا إلى «الحـقل الرومانى» وإن لم يستعمرهم مـستوطنون رومان . وكان هؤلاء المواطنون الجدد يلقنون تدريجيـاً أساليب الحياة الرومانية والقـانون الرومانى واللغة اللاتينية تحت رعـاية حكام تبعث بهم رومـا ، دون أن يمنحوا فى بداية الأمر حكماً ذاتياً أو حـقى التصويت أو الترشيح فى انتخابات الجـمعيات الوطنية اللذين يتمـتع بهما جمهور المواطنين الرومـانيين . وكانت روما تتمتع بموقع جغرافى ممتاز كالذى تأتى لأولينثوس Olynthus وإن كانت أولينثوس ، على خلاف روما ، لم تحسن الإفادة منه ، نظراً لأن إسبرطة قـتلت اتحاد خلـكيديكى الفـيـدرالى فى مهـده . وكـانت روما ، مـثل أولينثـوس ، مـدينـة دولة تقع إلى الخلف منهـا أرض داخـليـة لم يكن سكانها قد تخطوا بعـد مرحلة ما قبل نظام المدينة الدولة ، كـما كان من الميـسور أن تستـوعب هذه الشعـوب المتخلفـة سياسـياً فى دولة تتـمتع بمسـتوى عال من التـقدم ، على خلاف مـا كان عليه الحـال مع مواطنى المدن الدول الذيـن لم يزد خطبهم على أنهم منوا بالهـزيمة فـحسب فى ميـدان القتال ، وإن كـانوا لا يقلون بحال فى مـستواهم الحـضارى عن الدولة الظافرة . كما قهرت روما أيضاً وضمت إليها ، فى منطقة السهول الساحلية الغربية ، طائفـة من المدن الدول التى كانت تقف مع روما على قدم المـساواة فى المضمـار الحضارى ، وقد سـمحت روما لغالبـية هذه

المدن بأن تحتفظ داخل نطاق الدولة الرومانية ، بالحكم المدنى الذاتى الذى كانت تتمتع به وقت أن كانت دولاً مستقلة ذات سيادة .

وفى هذا الصدد لجأ الرومان إلى مبدأ المواطنة المزدوجة ، سواء قصدوا فى ذلك إلى اقتفاء أثر الهلينيين ، أما كانوا قد اكتشفوه بمحض الصدفة ، وقت أن كانوا يتلمسون الطريق إلى حل مشكلاتهم السياسية الخاصة . وثمة قاعدتان مختلفتان كان يستند إليهما الرومان عند منحهم حق الحكم الذاتى المحلى لمواطنى المدن الدول التى كانت تتمتع فيما مضى بالاستقلال والسيادة ، ممن فرضت عليهم الجنسية الرومانية قسراً . فإذا ما كان شعب المدينة الدولة التى كانت تتمتع بالسيادة فيما سبق يختلف عن الرومان فى لغته وثقافته - مثل مواطنى المدينة الدولة الإترسكية كايرى caere - فإن الرومان كانوا يحرمونهم ، كما كان الحال مع السكان المتخلفين فى الأقاليم الجبلية المغلوبة ، من ممارسة الحقوق السياسية التى كان من شأنها أن تجعل لهم صوتاً فى الحكم الذاتى للجمهورية الرومانية. أما إذا ما كانت ثمة صلات رحم وثيقة تربط بين المواطنين الجدد والرومان - كما كان الحال مع مواطنى أريكيا Aricia ؛ المدينة الدولة اللاتينية التى كانت تتمتع من قبل بالسيادة والاستقلال ، وكان هؤلاء ممن فرضت عليهم الجنسية الرومانية - فإن الرومان كانوا يبدون حيالهم قسطاً أعظم من الكرم والسخاء . ففضلاً عن أنهم قد سمحوا لهم بمواصلة التمتع بالحكم الذاتى ، فقد خولوا لهم

فيمـا يختص بحكم روما ، الحقـوق ذاتها التى كان يتمتـع بها مواطنوها القدامى .

وكان يطلق على الأجـانب الذين فرضت عليـهم الجنسية الرومـانية وفق مجموعة القـواعد والشروط غير السخية اسم «المـواطنين المحرومين من حق التـصويت» تارة ، واسم «مـواطنى الولايات» Municipes تارة أخرى ، بمعـنى الأشخاص الذين يخضـعون للواجبات المفـروضة على المواطن الرومانى ، وإن لم يتـمتعوا بالحقوق المكفـولة له ، أما المدن الدول التى كانت تتمتع بالحكم الذاتى داخل نطاق الدولة الرومانية والتى كان مواطنوها يـعرفون باسم «Municipes» ، فكانت تسـمى بالولايات Municipia (وهى أصل اللفظة الإنجـليزية الحـديثـة Municipalities) وكان الاتجاه العـام للدولة الرومانية ، خلال القـرنين الرابع والثالث من العهد المسيحى ، يرمى إلى منح حقـوق المواطنة الرومانية إلى جماعات أخرى من المواطنين ، فى اطراد – من الطبقـة الدنيا إلى الطبقة العليا . وقد يتعثر تنفـيذ هذه السياسة العامة أو يتوقف بل وقـد يعود القهقرى ، ممـا قد يـأتى فى بعض الأحيـان بأوخم العواقب ، بيـد أن حركـة منح الحقوق السياسية كانت تتـقدم فى اطراد مع توالى العصور ، كما أنه بعد أن أصدر الإمبراطور كاراكالا Caracalla قانونه الشامل المعروف باسم الدستور الأنطونينيانى Constitua Antoniniana عـام ٢١٢ ، لم تبق سوى قـلة قليلة من شعـوب العالم الهـلينى التى تعيش إلى الغـرب من

الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية كما كانت آنذاك ، لم تنل حقوق المواطنة الرومانية وفق أسخى شروط كان من الممكن أن تمنح لها حينئذ.

وقد بدت روما بالنظر إلى سياستها الرامية إلى منح الأجانب حقوق مواطنتها ، فى مضمار السخاء والكرم ، جميع الدول السابقة التى قدر لها أن تدخل حلبة السياسة الدولة الهلينية ، كما انتهجت روما هذه السياسة وقت أن كانت الأراضى الإيطالية التى تحدها شرقاً جبال أبنين زاخرة بالسكان ووقت أن كان هؤلاء السكان لم يزالوا يتزايدون على مر الأيام . وقد ترتب على ذلك أن أصبحت روما تستحوذ على موارد عظيمة من القوى البشرية العسكرية ، الأمر الذى لم يتيسر لأية دولة من الدول المنافسة لها . فضلاً عن أن جنودها الفلاحين الذين يبلغون الآلاف المؤلفة، لم يكونوا جنوداً مرتزقة أو رعايا دولة مقهورة أو من البرابرة ، بل كانوا على خلاف ذلك من مواطنى مدينة روما ذاتها ومن مواطنى مستعمراتها اللاتينية أو من مواطنى الدول الإيطالية الحليفة ، كما كانوا إلى جانب ذلك تلاميذ مخلصين تواقين إلى تلقن فنون الحضارة الهلينية. وبالنظر إلى ما كان عليه عدد الجنود الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة فى مملكة مقدونيا أو سلوكية ومقارنتهم بعدد الجنود المواطنين الرومان ، يبدو الأولون وكأنهم لا يعدون كونهم حرساً خاصاً . كان لدى مصر البطلمية وقرطاجة عدد كبير من الرعايا الذين يخضعون للتجنيد كما كانت

ثرواتهما تؤهلهما لزيادة عدد الجنود وذلك باستخدام جنود مرتزقة . وقد تبذ الجيوش التى تتألف من هذه العناصر الجيوش المكونة من مواطنين مجندين ، فى مجال القدرة والكفاءة (وقد كبدت قوات **هانيبال** المحترفة ، الهزيمة ، فى كثير من المرات ، لجيوش رومانية تربو عليها عدداً) بيد أن القوات المؤلفة من جنود «وطنيين» أو جنود مرتزقة ما كان ليؤتمن جانبها. فقد يدين جنود هذه القوات بالولاء لشخص قائد بعينه ، مثل **هانيبال** ، ولكنهم قد لا يشعرون بأدنى ارتباط أدبى أو صلة تربط بينهم وبين الدولة التى نقدتهم على خدماتهم أو فرضتها عليهم فرضاً . وشاهد ذلك أن قرطاجة كادت تلقى حتفها إثر الحرب الأولى التى خاضتها ضد روما، بدلاً من أن تلقى المصير ذاته بعد حربها الثالثة ، وذلك عندما أثارت الفتنة بين صفوف قواتها المرتزقة من جراء الشروط المهينة التى أرادت أن يتم بموجبها دفع أجورهم . كما دلت نتيجة المنافسة التى احتدمت بين الدول الخمس العظمى ، على أن روما ، بجنودها المواطنين، إنما كانت تحتفظ بين يديها بالورقة العسكرية الرابحة .

كان الجيش الرومانى يضم فى ذلك العصر ، شأنه شأن الجيش المقدونى ، فرقاً للمشاة المزودين بأسلحة على النمط الهلينى البائد الباهظ التكاليف . ولكن الفرق ذوات الدروع والرماح لم تكن تعدو أيضاً فى الجيش الرومانى كما فى الجيش المقدونى ، أقلية ضئيلة ، كما لم تلعب هذه الأقلية دوراً بارزاً . أما معدات الغالبية العظمى من الجنود

المشاة الرومانيين المزودين بالأسلحة الثقيلة فقد كانت أقدم عصراً من أسلحة الفيلق المقدونى المؤلفة من الترس والرمح وفق النمط الذى ابتكره **أفيكراتيس** . وكما جاء فى وصف معارك الأبطال فى الملاحم الهومرية، كان الجندى الرومانى من المشاة يبدأ بقذف رمح رشق ثم يشتبك مع العدو فى قتال متلاحم مستخدماً سيفه ، وكان رمح الرشق قصيراً ثقيل الوزن . وكان الجندى يخوض المعركة مزوداً برمحين من هذا النوع . أما درعه المستطيل المقعر الذى كان يصنع من مواد خفيفة الوزن كالخشب أو الجلد، فقد كان يقى بدنه ، وفقاً لقاعدة وزن بوزن ، وقاية لم يكن يكفلها بهذا القدر ، الدرع الهلينى التقليدى المستدير المصنوع من المعدن المطروق أو الترس الذى ابتكره **أفيكراتيس** . وكان الدرع الرومانى يفتقر إلى تلك الميزة التى كان يوفرها ترس **أفيكراتيس** وهى إطلاقه لليد اليسرى لتكون كاليد اليمنى ، مهيأة للعمل فى حرية تامة . بيد أن الرومان قطعوا شوطاً أبعد مما قطعه المقدونيون من قبل ، حتى فى العصر الذهبى للفيلق المقدونى ، فى مضمار الجمع بين ضخامة الحشد وخفة الحركة . كان فى مقدر الفيلق المقدونى المهاجم أن يكتسح أى شىء يعترض طريقه - بما فى ذلك الفرقة الرومانية - طالما أن العدو لم يقم بمناورة مضادة ومادام تشكيل الفيلق نفسه ظل متماسكاً لم يختل فى أى جزء من أجزائه . ولكن مصير الفيلق المقدونى كان هو الفناء المحقق ، إن قامت على سبيل المثال فرقة من الجنود الرومان بالالتفاف

حول مؤخرتـه ، وهو ما حدث فى كل من معركتى كـينوسكيفالاى -Cy noscephalae عام ١٩٧ ق.م وبيـدنا Pydna عـام ١٦٨ ق.م ، وذلك لأن رهبة الرماح المقدونيـة وضراوتها لم يكونا يظهران فى الواقع إلا فى حالة الاشتباك بالمـواجهة وحيث تكون الصفوف متراصة مـتلاحمة ، أما إذا وجد الـجندى المقـدونى نفسـه هدفاً لهـجوم جـانبى واضطر للقـتال بمفرده، فإنه لا يجد من سند غيـر خنجر صغير لا يفى بالغرض . وعلى النقيض من ذلك فإن الجـندى الرومانى كان يعد محـارباً فردياً حتى وإن كان منتـظماً فى تشكيله ، فـضلاً عن شـدة فتك سلاحـيه الهـجومـيين وفاعليتهما التى كان يضاعف منها ذلك التناسق والتآزر فى استخدامهما ؛ فقد كان يقـصد من قذف الرماح دفعة واحدة فى بدايـة القتال تحطيم قوة العدو بدرجة ما قبل منازلته بالسيوف فى قتال متلاحم . وفضلاً عن ذلك فقد كـانت تشكيلات الجيش الرومانى تتـمتع بقسط كبـير من المرونة ، فإن المشاة ذوى الأسلحة الثقيلة كـانوا يشكلون على هيئة باقات صغيرة ، لا يزيد عدد جنود كل منها على ١٢٠ جندياً فـقط ، وكانت هذه الباقات الصغيرة تأخذ عند الهجوم صورة موجات ثلاث . وتعد مثل هذه المناورة التكتيكية إحدى الخطوات التى انتهت بابتكار خطة احتجاز قوات احتياطية لكى يدفع بهـا إلى ميدان المـعركة فى اللحظـة الحاسمـة . وهكذا كان المجـال متـسعـاً أمام الجـيش الرومانى كى يقـوم بمخـتلف التحـركات والمناورات قبل أن يوطد نفـسه فى النهاية على الهزيمـة ، هذا فضلاً عن

أن خسائره كانت موزعة على نطاق واسـع ، على حين أن مصير الجيش المقدونى كان مـرهوناً بنتيجة هجوم واحد تقوم به وحـدة حربية واحدة - وذات مرة فـقدت القـيادة العليـا للجيش الرومـانى فى لحظة من لحظات الزمن - وذلك من أثر الكوارث التى لحـقت بالجيش الرومـانى عند نهر تيبريا Tiberia وبحيرة تراسـيمينى Trasimene - ثقتها فـى صلاحية تنظيمات الجيش الرومانى الخاصة ، فـعمدت إلى تنظيم قواتها فى كاناى Cannae فى حشود أشبـه بحشود الفيلق المقدونى . وكـانت عاقبة هذه الخطوة التقهقرية ، التى أقدمت عليها روما فى نوبة من اليأس ، غاية فى البشـاعة والهول ، بحيث إنهـا لم تعد إلى هذه الزلة قط . وبعد كـبوة كاناى ، سارت الخطط الحربية الرومـانية فى تطورها على أساس تحقيق أكبر قسط ممكن من المرونة وخفة الحركة .

والحقيقة أن المشاة الرومان كانوا ، بالنظر إلى ما يدخرون من قوة، أعظم القوات التى شهـدتها ساحة الحرب الهلينية فى عـصر الصراع بين الدول ، وممـا زاد أيضاً من صـلابة معـدنهم ، اختـبارهم لقوتـهم أمام القوى العسكرية العظيمة الأخرى التى كـانت قائمة فى ذلك العصر . أما سلاح الفرسان الرومانى فقد ظل كخنجر الفيلق المقدونى ، سلاحاً عديم الجدوى. إذ لم يعـوض عن قلة عدده بحـال ، أى قسط من التـفوق فى القدرة على القتـال . وكان الرومان يفضلون أيضاً ، فيمـا يختص بسلاح الفرسـان ، الاعتمـاد على خدمـات حلفائهم ، كمـا كان إهمـالهم لهذا السلاح من الأسباب التى أدت إلى عجزهم عن التصدى لهانيبال .

ولـم يكن هناك مفر من أن تدفع روما بنفســها ، وهى بسبيل إخضاع جميع أجـزاء إيطاليا التى تحدها جبـال أبنين شرقاً ، فى معتـرك شئون دولية تخص رقعة كبيـرة من العالم ؛ نظراً لأن إيطاليا كانت تضم طائفة من المـدن الدول الهلينيـة الاستـعمـارية ، وأن أهم هذه المـدن ، وهى تارنتوم Tarentum ، قد استنجدت بدولة هلينـية فى الجانب الشرقى من مضيق أترانتو ضد روما ، كما غارت قدماً روما أكثر فأكثر عندما أسبغت حمايتـها عام ٢٦٤ ق.م ، على الجنود المامرتينيـين الذين كانوا يحتلون مدينة ميـسانا الصقلية ، والذين كانوا قد اسـتفزوا هييرو حاكم سرقوسة وأثاروا ثائرة القرطاجيين ، مما حمل الفريقـين على التحالف فيما بينهما لمحاربتهم . وساقت هذه المغامرة التى جرت فيما وراء البحار ، روما ، إلى الدخول فى حرب مع قرطاجة استغرقت أربعاً وعشرين سنة (٢٦٤ - ٢٤١ ق.م) . وقد خاضت هاتان الدولتان الغربيـتان غمار حرب ضروس واسعة النطاق تضـاءلت إلى جانبها الحروب المعـاصرة التى نشبت بين كل من البطالمة والسلوكيين ، والبطالمـة ومقدونيا ، إلا أن هذه الحرب الأولى التى نشبت بين رومـا وقرطاجة قد أسفـرت على خلاف الحربين السالفتى الذكـر ، عن نتيجة حـاسمة . إذ انتهت بطرد القـرطاجيين من صقلية ، وإلى قيـام اتحاد سياسى للجزيرة يخضـع لزعامة دولة واحدة ، وذلك للمـــرة الأولى منذ خـمــســة قـرون ، أى منذ بدأ التـنافس بين المستعمـرين الفينيقيين والهلينيين حول امـتلاك الجزيرة . وهكذا انتقلت

إلى روما ملكية الولاية التابعة لقرطاجة فى صقلية . أما الجنود المامرتينيون وهييرو فقد انضما بالفعل إلى حلفاء روما . وكان الفضل فيما أحرزت روما من نصر يرجع إلى ذلك العمل الباهر الذى اضطلعت به ، وهو إنشاء أسطول لها على وجه السرعة والحرب مازالت دائرة ، ولم يتمكن هذا الأسطول من أن يشتبك فحسب مع الأسطول القرطاجى، بل أن ينتزع منه أيضاً سيادته على البحار . وكا بوسع روما ، بطبيعة الحال ، أن تستند إلى الخبرة البحرية التى كان يتمتع بها حلفاؤها اليونانيون فى جنوب إيطاليا ، كما أن ثروتها الكبيرة من القوى البشرية كانت تكفل لها إمداد أسطول بحرى كبير بالعدد الكافى من البحارة . بيد أنه بالنظر إلى أن القرطاجيين كانوا يتمتعون بمهارة فائقة طبقت شهرتها الآفاق فى مضمار الحروب البحرية ، فإن تحدى روما لقرطاجة فى مملكتها البحرية كان عملاً غاية فى الجرأة ، وإن بلغ الغاية أيضاً فى النجاح .

وما إن توطد السلام من جديد بعد هاتين الحربين اللتين نشبتا ، فى وقت واحد ، فى الحوضين الغربى والشرقى من البحر المتوسط ، وإن لم ترتبط بينهما أية صلة ، حتى بعث الأمل - كما حدث عندما استعيد السلام عام ٤٤٥ ق.م فى البحر الإيجى - فى قيام تعايش سلمى قد يكون فيه ما يجنب وقوع كارثة محققة . بيد أن ما تلى ذلك من أحداث مفجعة رهيبة ، لم يلبث أن قد قضى على مثل هذا الأمل فى هذه المرة أيضاً .

وثمة وجه للشبه بين الحرب الثانية التى نشبت بين روما وقرطاجة (٢١٨ - ٢٠١ ق.م) وبين الحرب الثانية من بين الحربين العالميتين اللتين وقعتا فى القرن العشرين ، وهو أن كلا منهما كانت حرباً انتقامية، قامت بها دولة كبرى مغلوبة لم يعد أمرها أنها استذلت فقط دون أن تلقى فى المرة الأولى الهزيمة الساحقة الماحقة التى لا قومة لها بعدها . فقد كانت الحرب الثانية فى الحالتين أعظم فتكاً وتدميراً من الحرب الأولى ، على الرغم من أن الحرب الأولى لم يكن ينقصها عنف أو هول . كما ساقت الحرب الثانية الدولة الغالبة فى الحرب الأولى إلى شفا الانكسار والاندحار ، غير أنها أسفرت فى النهاية عن هزيمة الدولة التى سبق أن قهرت ، وذلك للمرة الثانية بحيث كانت هزيمتها فى هذه المرة نهائية تامة لا رجعة فيها . وثمة وجه آخر للشبه بين الحرب الرومانية القرطاجية والحرب الآثينية البلوبونيزية الثانية (٤٣١ - ٤٠٤ ق.م) ، وهى أنهما قد أطبقتا على العالم الهلينى جميعه ، فضلاً عن أنهما كانتا فاتحة سلسلة متصلة من الحروب والثورات .

وكان القائد الوحيد فى كل من الطرفين المتحاربين الذى استطاع أن يحيط نفسه بهالة من المجد فى الحرب الأولى بين روما وقرطاجة ، هو هاميلكار Hamilcar الذى يلقب بالصاعقة . فقد استطاع هاميلكار أن يطيل أمد المقاومة القرطاجية فى صقلية إلى ست سنوات أخرى بعد أن كان القرطاجيون على وشك أن يفقدوا آخر قلاعهم بالجزيرة . ثم هب

هاميلكار مرة أخرى عندما خسرت قرطاجة الحرب من جراء هزيمة بحرية ساحقة منيت بها ولم يكن **لهاميلكار** يد فيها ، وعندما أوشكت قرطاجة على التردى فى مهوى الدمار والخراب لقيام حركة تمرد بين صفوف جنودها المرتزقة ، فسحق المتمردين ثم ولى وجهه شطر إسبانيا كى يفتح لبلاده إمبراطورية جديدة لتكون عوضاً عن الولاية القرطاجية القديمة فى صقلية ، التى أجبرت قرطاجة على التنازل عنها لروما بموجب التسوية السلمية التى عقدت بينهما ، وكان **هاميلكار** يرمى إلى أن يمحو أثر انتزاع روما للسيادة البحرية على حوض البحر المتوسط الغربى وإلى أن ينقض أيضاً نتيجة الحرب الرومانية القرطاجية الأولى بأن يتخذ من الإمبراطورية القرطاجية الجديدة فى إسبانيا قاعدة للعمليات من أجل غزو إيطاليا براً . وكانت خطته هذه غاية فى الجرأة والروعة فقد كانت تتطلب تخطى سلسلتين عظيمتين من الجبال ، وهما سلسلتا البرانس والألب ، وتستلزم عبور نهر عظيم هو نهر الرون . وكان الطريق الذى ستتقدم به الجيوش يمر بأكمله ببلاد متخلفة ومجاهل غير مطروقة فى واقع الأمر ، بيد أن هذه العقبات الطبيعية التى تثير الرهبة فى النفوس كانت تبدو هينة جديرة بالمخاطرة بالنظر إلى المغنمين العسكريين والسياسيين العظيمين اللذين كانا يكمنان وراء هاتين السلسلتين من الجبال إذا سارت الأمور وفق الخطة الموضوعة . وكان من المتوقع إلى حد بعيد أن تتحول الحملة القرطاجية ، فور نزولها بحوض نهر

البو، إلى نقطة تجمع للشعبين الوطنيين الغالى والليجورى ، اللذين كانا قد رفعا السلاح بالفعل فى وجه موجة الاستعمار الرومانى الزاحف . كما كان للحملة القرطاجية أن تأمل - حال عبورها لجبال أبنين وبمعاونة قوات مساعدة من الغاليين والليجوريين - فى إحداث سلسلة من الانشقاقات بين الدول الإيطالية الحليفة لروما . كانت الغاية التى يرمى إليها هاميلكار ، هى تحطيم الدولة الرومانية عن طريق إحراز نصر قرطاجى برى حاسم على روما وعلى الأراضى الإيطالية التابعة لها، ولامراء فى أن تحقيق هذا الهدف كان من شأنه قلب النتائج التى أسفرت عنها الحرب الأولى ، وربما أزاح عن كاهل قرطاجة خطر الرومان إلى ما لا نهاية بسحقه قوة روما سحقاً تاماً لا قومة لها بعده .

عاجل الموت هاميلكار قبل أن ينتهى من استعداداته الحربية ، ومن ثم وكل لابنه مهمة تنفيذ خطته . والحقيقة أن المجتمعين الكنعانى والهلينى قد عجزا عن أن ينجبا قائداً أعظم من هانيبال ، ولا تثريب عليه إن كانت خطته قد باءت فى النهاية بالفشل . وقد زحف هانيبال حسب الخطة الموضوعة من إبرو إلى البو ، ومن حوض نهر البو إلى الأراضى الإيطالية التى تحدها جبال أبنين شرقاً ، وكبد الرومان فى خلال ثلاث سنوات متتالية ، الهزيمة فى ثلاث معارك تتدرج تصاعدياً من حيث خطورتها وفداحتها ، وذلك على نهر تريبيا فى عام ٢١٨ ق.م وعلى شواطئ بحيرة تراسيمينى فى عام ٢١٧ وفى كاناى عام ٢١٦ ق.م ،

وصمد بقواته فى أراضى إيطاليا التى تحدها جبال أبنين شرقاً مدة خمسة عشر عاماً تبدأ بعام ٢١٧ وتنتهى بختام عام ٢٠٣ ق.م. غير أن ثمة عوامل ثلاثة مناوئة ، لم يكن ليستطيع معها دفعاً ، هى التى أحبطت خطته جميعها ألا وهى : الروح العالية الأبية التى كان يتمتع بها مجلس الشيوخ الرومانى والشعب الرومانى ، وذلك الولاء الراسخ الأكيد الذى كان يدين به لروما الجانب الأعظم من المواطنين الذين حصلوا على الجنسية الرومانية ، ويكنه لها أيضاً حلفاؤها الذين أبدوا من الثبات والاستماتة فى القتال ما ظهر على النقيض تماماً من التخاذل المزرى من جانب مواطنى كابوا وسرقوسة وتارنتوم . ثم ذلك الاحتياطى الضخم من القوى البشرية الممثل فى المواطنين الرومان وفى اللاتين والحلفاء ، الذين كان بوسع روما أن تتزود منه .

واختتمت الحرب الثانية بين روما وقرطاجة ، بإحراز روما لانتصار حاسم عام ٢٠٢ ق.م على آخر جيوش قرطاجة ، بقيادة هانيبال نفسه ، وذلك فى موقعة ناراجارا Naraggara ، بالقرب من زاما ريجيا Zama Regia أى على أرض أفريقية . ولكن لهيب الحرب كان قد امتد قبل ذلك التاريخ بزمن طويل من كل من إسبانيا وإيطاليا وصقلية إلى بلاد اليونان الواقعة فى القارة الأوروبية وإلى بحر إيجة أيضاً . ففى عام ٢١٥ ق.م عقد هانيبال معاهدة مع الملك فيليب الخامس ملك مقدونيا ، لرغبة الأخير فى إزالة رأس جسر كان الرومان قد أقاموه على جانبه

الخاص من مضيق أترانتو فيما بين الحرب الأولى والثانية ، فرد الرومان على ذلك بأن عقدوا عام ٢١١ ق.م حلفاً معادياً مع أيتوليا Aetolia ألد أعداء مقدونيا . كما لم تتوقف الحرب العالمية يوم أن كفت قرطاجة عن القتال، إذ لم تلبث الاشتباكات بين روما ومقدونيا ، التى توقفت عام ٢٠٥ ق.م أن استؤنفت من جديد عام ٢٠٠ ق.م ومنى المقدونيون فى هذه المرة بهزيمة ساحقة على أيدى المشاة الرومانيين والفرسان الأيتوليين فى موقعة كينوسكيفالاى Cynoscephalae عام ١٩٧ ق.م. وقد أجبرت مقدونيا على التخلى عن جميع ممتلكاتها الواقعة إلى الجنوب من أراضيها الأصلية فى بلاد اليونان ، بل إنها اضطرت إلى أن تمنح الاستقلال لولاية أورستيس Orestis الجبلية المنشقة التى كانت تقع داخل حدود مقدونيا ذاتها . وتحررت كورنثة من حكم مقدونيا على يد القائد الرومانى المظفر تيتوس كرنكتيوس فلامينيوس Titus Quinctius Flaminius ، بعد مضى ثلاثين عاماً على تنازل أراتوس لمقدونيا عنها (إلا أن أحد القواد الرومان قد أقدم بعد انقضاء خمسين سنة على لفتة فلامينيوس الكريمة هذه، على فعلة لم يجترئ عليها أى فاتح مقدونى من قبل ، ألا وهى تدمير كورنثة وتخريبها) . وجاء بعد ذلك دور الأيتوليين ، فدب الخلاف بينهم وبين روما حول توزيع الأراضى التى تنازلت عنها مقدونيا، وتلا ذلك نزاع الملك السلوكى أنتيوخوس الثالث معها من جراء محاولته تأكيد سيادة التاج السلوكى على المدن الدول الهلينية القديمة الواقعة على الساحل الغربى للأناضول ، وبلغ الحمق بأنتيوخوس أن تحالف مع

الأيتوليين ضد روما ، وأمعن فى الطيش والتهور ، فرغب فى أن يلتقى والمتاعب فى منتصف الطريق ، بالزحف على بلاد اليونان الأوروبية . وكان قد خدع بانتصاراته الحربية السالفة التى واتته فى شئ من السهولة . فقد توغل بجيوشه فى آسيا ذات مرة حتى بلغ هندكوش ، وفى عام ١٩٨ ق.م استطاع - وذلك بعد المحاولة الثالثة - الاستيلاء على سورية المجوفة Coele Syria بعد هزيمة الملك بطليموس الخامس . ولم يكن إلى هذا الحين قد عرك قوة الرومان الحربية . فلقى فى عام ١٩١ ق.م الهزيمة فى ثرموبولاى ودحر مرة أخرى عام ١٩٠ ق.م عند مجنيسيا بالقرب من سيبيلوس magnesia-under-Sipylus . وقد أجبرت المملكة السلوكية على التخلى عن جميع ممتلكاتها الواقعة إلى شمال وغرب جبال طوروس، وكانت هذه هى بداية النهاية بالنسبة لها ، على الرغم من أنه حتى عام ١٦٢ ق.م كان المفوضون الرومانيون مازالوا يخشون انتفاضة السلوكيين العسكرية ، مما حدا بهم إلى أن يصيبوا بالعجز الفيلة الحربية التى كانت بالمقر العسكرى للمملكة فى أباميا على نهر العاصى . وقد قاتل الأيتوليون أيضاً من معاقلهم الجبلية عندما ضيق عليهم الخناق كالقطط الهائجة ، ولكنهم اضطروا بدورهم إلى التسليم عام ١٨٩ ق.م.

وهكذا طوحت روما خلال ثلاثين سنة (٢١٨ - ١٨٩ ق.م) بجميع الدول التى حاولت منازلتها وحسم أمورها معها ، بيد أن تجربة غزو هانيبال لإيطاليا قد خلفت لدى روما شعوراً مؤرقاً رهيباً بانعدام الأمن ،

وتطلب الأمر منهـا الدخول فى جولتـين أخريين من القتـال المرير لكى تقلم أظافر خصومـها المغلوبين إلى الدرجة التى تشعر مـعها بالاطمئنان إلى أنهم سوف لا يشكلون خطراً عليها فى المسـتقبل . ولقد كانت روما على حق فيـما داخلها من خـوف تجاه مقـدونيا ، فثمـة رغبة أكـيدة فى الانتقام كانت تجتاح مقدونيا بعد انتهاء حربها الثانية مع روما . كما كان الحال مع قرطاجـة بعد حربها الأولى ، وعندما نشبت الحـرب الرومانية المقدونية الثالثة (١٧١ - ١٦٨ ق.م) لم تستـسلم مقدونيا قط للهزيمة إلا بعد أن أبدت من المـقاومة المسـتميتـة اليائسة ، ما لم تبـده فى الحرب الثانية ذاتها . وكان السبب أيضاً فـى استسلامها فى هذه المرة يرجع إلى قلة نصيبـها من القوى البشرية ونقط الضـعف التى كانت تعتور جيـشها الباسل ، سواء من حيث أسلحته ، أم من حيث تنظيماته الحربية .

أما بالنسـبة لروما فقـد كانت هذه الحرب من أحرج وأدق المـعارك التى خاضتـها منذ هزيمتهـا فى كاناى . غير أن المـخاوف التى لازمت روما تجـاه قرطاجة لم تكن فى الحـقيقـة سوى أضغاث أحـلام ، فعلى الرغم من أن هانيبال كان عدو رومـا اللدود الذى لم ينثن عن معاداتها ، حتى النهـاية ، فإنه اضطر إلى الانتـحار فى منفاه عـام ١٨٣ ق.م ، أما القرطاجيون أنفسهم فإنهم لم يلبـثوا أن تخلوا عن أطماعهم حال أن عقد الصلح بين قرطاجـة وروما فى عام ٢٠١ ق.م، وبات جل ما يبـتغون أن يسمح لهم بمـواصلة العيش ، وصـون أرواحهم . ومن ثم كان الهـجوم الذى شنته روما على قرطاجة عـام ١٤٩ ق.م من أبشع الأعمال العدوانية

التى شهدها تاريخ روما ، وقد جلب عليهـا ذلك نقمة عاجلة لأن قرطاجة فى هذه الحرب الأخيرة التى نشبت بينها وبين روما (١٤٩ - ١٤٦ ق.م) والتى دخلتهـا مجبرة دون أن تكون هى البـادئة بالعدوان ، راحت تدافع عن نفسها دفعاً لمصيرها المحتوم ، فى استماتة واستبسال كاللذين أبداهما أبناء عمومـتهم يهود فلسطين عند مقـاومتهم ذلك العدو الرومـانى الجبار ذاته . وذلك خـلال حربين (٦٦ - ٧٠ من المـيلاد ، ١٣٢ - ١٣٥ من الميلاد) كان اليهود أنفسهم هم البادئون بهما . كما قام المقدونيون الذين لم تفت فى عضـدهم الهزائم الثلاث التى كبدهم الـرومان إياها ، بثورة أخرى عام ١٤٩ ق.م ، ولم يلبث أن اقتـفى أثرهـم فى طيش اتحاد آخيا وبويوتيا عام ١٤٦ . فسحقت مقدونيا ، ولم يمض العام ذاته حتى كانت كل من قرطاجة وكورنثة قد أصبحتا أثراً بعد عين ، وتلقت اتحادات آخيا وبويوتيا وإيوبويا وفوكايا ولوكريا ضربات قاصمة ثم حلت جميعها .

وهكذا لم تعد هناك أية دولة كبرى قائمة فى العالم الهلينى غير روما ذاتهـا ، ذلك لأن مملكة مـصر البطلمـية التى اعـتراها الضـعف والوهن توخت جـانب الحكمة ، فـآثرت الخضـوع للحمـاية الرومانيـة على ألا تتعرض لغزو عـدوتها المملكة السلوكية لها ، جـرياً على المثل القائل : شر أهون من شر. وفى الوقت الذى كـانت فيه نتيجة الحـرب الرومانية المقـدونية الثـالثة مـازالت فى كفة القـدر لم تنجل بعد ، حـاول الملك السلوكى أنتيخوس الرابع أن يعوض مملـكته عن الخسارة التى تكبدتها فى ممتلكاتها فيما وراء جـبال طوروس وذلك بضم مصر ذاتها إلى ممتلكات

مصر فى سوريا المجوفة التى كانت قد دخلت ضمن حدود المملكة السلوكية على يد سلفه أنتيخوس الثالث . ولكنه ما إن بلغت أنباء انتصار روما الحاسم على المقدونيين عند بيدنا Pydna، ميدان المعركة التى كانت تدور رحاها فى مصر ، حتى بادر أحد المفوضين الرومانيين الجوالين بإعلان الملك السلوكى المغير بإنذار نهائى يقول : «عليك بالجلاء عن مصر وإلا قاتلناك، كما أنى أريد ردك فى التو واللحظة» . وتوخى أنتيخوس جانب الحكمة فضرب باعتبارات الكرامة والعزة عرض الحائط ، وأذعن للأمر . وهكذا لم يعد هناك من منازع لسيادة روما داخل النطاق جميعه الذى كانت تصلح فيه العمليات الحربية التى يقوم بها سلاح المشاة التابع لها وذلك من قواعد تقام له على سواحل البحر المتوسط وخلجانه ، وظل حالها كذلك حتى تعثرت جيوشها الزاحفة بسهول بلاد ما بين النهرين وبغابات شمال أوروبا . أما بالنسبة للمنطقة التى كانت منحصرة داخل هذه الحدود ، فقد كان العالم فيها واقعاً فى هذه الأثناء تحت رحمة روما . فلم يعد هناك شىء يجرى إلا بإذن من روما ، كما كان يندر أن يتخذ أى إجراء ما لم تكن هى بادئته . فلقد نالت جزيرة رودس صديقة روما القديمة العقاب الرادع بعد انتصار روما فى حربها الثالثة ضد مقدونيا، وذلك لأنها عرضت خدماتها بالوساطة ، وقت أن كانت نتيجة الحرب مازالت غير مؤكدة ، وذلك من أجل عقد تسوية سلمية عن طريق التفاوض . كانت روما ، على ذلك سيدة الموقف الحريصة عليه . ترى ماذا كان عساها أن تفعل ؟

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

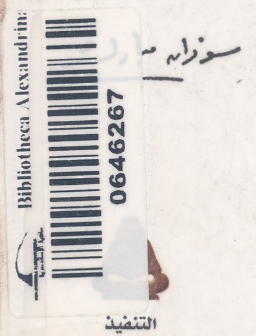


مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع : ١١٢٥٢ / ٢٠٠٣
I.S.B.N. 977 -01- 8583 -3



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية .



التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ٢٠٠ قرش